المجلس العراقي للثقافة
IRCC
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عبد الستار ناصر

الهجرة نحو الأمس

رواية كولاج

سيرة أدبية

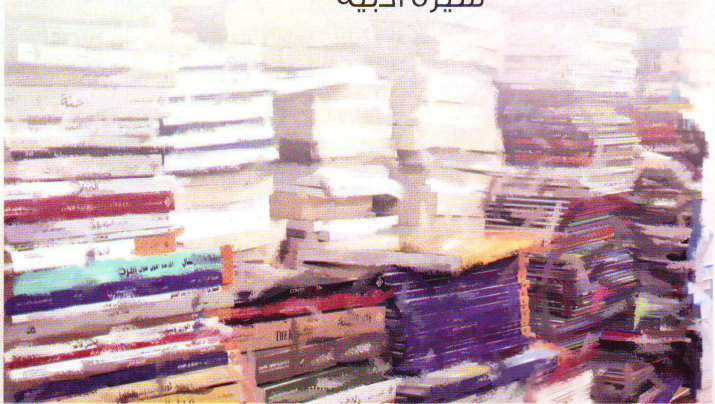

الهجرة نحو الأمس

رواية كولاج

سيرة أدبية

تأليف

عبد الستار ناصر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الثالثة

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-230-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المجلس العراقي للثقافة
الغاردنز - شارع وصفي التل
بناية مركز ناصر - مكتب 505
هاتف: 65542123 962+ - فاكس: 65542126 962+
http://www.almajlis.org

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

إلى :

إبراهيم زاير

الميّت الذي ما يزال حياً .

فهرست الرواية

1- الأصدقاء	13
2- سوف لا أخوات لها	33
3- الشيخ والوسام	55
4- الراقصة شوشو	77
5- سابع أيام الخلق	97
6- محاكمة المبدع	111
7- قانون العار	129
8- أرشيف حياة	147
9- كاتب قصة قصيرة	161
10- دفاعاً عن الحب	181
11- السابع من حزيران	197
12- مهنة الافلاس	209
13- هكذا رحلوا	215

في المقدمة

هذا الكتاب خارج التجنيس ، لم أعثر على صفة تناسبه ، ولم أجد من كتاب عربي يعتمد الكولاج كما هو الحال مع اللوحة أو المنحوتة .

لا أدري ان كان كتابي هذا أقرب إلى روح السيرة منه إلى جسد الرواية ، لكنه يقترب منهما على استحياء ، فهو مزيج من مذكرات مكتوبة وذكريات ما تزال وراء قحف الجمجمة ، إلى جانب الذاكرة التي ساعدتني على تأليفه ، مع أنني أقول :

– هي فكرة خطفت مثل نيزك ذات ليل ، أن أجمع بعض النصوص وأربطها بما جرى في حياتي ، زائداً ما أملكه من معلومات عن أدباء العراق وما حلّ بهم من هجرة وموت وشتات وأسرار .

الكتاب حزمة حقائق عن زمن أسود ما كان من أحد يصدق يوماً بأنه سينطمر ويمضي إلى الجحيم بعد أن تحررنا منه .

**

شيءٌ واحد فعلته مرغماً ، هو اسمي الذي تغيّر وصار عمّار جَواس البدري ، لئلا يتكرر عبدالستار ناصر بين السطور ، فيزعجكم .

منذ الثالث والعشرين من تشرين أول (اكتوبر) ١٩٩٩ حتى الثالث والعشرين من شباط (فبراير) ٢٠٠٧ نشرتُ عشرين كتاباً في

الرواية والقصة القصيرة والنقد والمسرح ، بينما كتابي هذا وحده الذي لا أعرف ماذا سيقال عنه ، فهو دون هوية معقولة وبلا نسب أو أب أو عائلة أو عشيرة .

كونوا أنتم عشيرته إن شئتم ، والمهم هو أنه جاء إلى الدنيا بعد ولادة عسيرة ، وليس من الرحمة أن يعود إلى الرحم .

عبدالستار ناصر

٢٠٠٧

هذا ما أعرفه :
الموت هو الموت ، وما من أحدٍ
عاد من موته
ليقول لنا شيئاً .

سركون بولص

1

الأصدقاء

اكتب في اليوم الثالث والعشرين من تشرين أول ٢٠٠٦ وهو نفسه اليوم الذي خرجتُ فيه من بغداد قبل سبع سنوات ، لم أحتفظ بشيء مما كنت أملكه غير اسمي ، عمّار جواس البدري ، وما يزال عندي في بغداد قطعة أرض جدّ صغيرة في مقبرة الكرخ وشاهدة من مرمر مصقول محفور عليها :

هنا يرقد عمّار جواس البدري
عاش ومات ، لماذا؟ لا ندري .

وتركتُ مكاناً فارغاً في أسفل الشاهدة لذكر السنة التي سأموت فيها ، ولئلا يلتبس الأمر على من تبقى من أخيّاتي وأصدقائي وأقاربي ، سأقول إن مكان قبري لصيق بقبر أمي (عزيمة خطّاب العابد) على بعد مائة وسبعين متراً صوب شرق المقبرة ، على مقربة من القبر الشهير الذي ينام فيه خمسة أطفال أشقّاء قتلوا جميعاً في لحظة واحدة أيام حربنا المسمّاة أُم المعارك ، وهي الحرب التي نشبت بعد القادسية وقبل الحواسم .

ما شاء اللّه ، عندنا أسماء لامعة وهّاجة لحروب في غاية القذارة ، بينما بائع الشربت (الحاج زبالة) مسكين حقاً ، اسمه لا يليق به ، وحقاً لا أدري ماذا سيكون اسمه لو كانت الأسماء تُباع وتشترى بالعملة الصعبة؟ أنا مثلاً أحبّ الحمار ولا أرى في اسمه شتيمة كما يحسّ بذلك البشر جميعهم!

نسيت أن أخبركم بأنني كاتب قصة قصيرة وروائي وناقد وشاعر واكتب مسرحيات من فصل واحد وكانت عندي رغبة عارمة في التمثيل ، وقد أخذني (صلاح أبو سيف) إلى القاهرة وكتب لي عقداً لمدة خمسة أعوام أبدؤها بفيلم (حمام الملاطيلي) لكنني فسختُ العقد فوراً عندما أبلغني كاتب السيناريو أن دوري في هذا الفيلم هو شخصية شاذة يتمتع معها بطل الفيلم (يوسف شعبان)!

كنت على جانب من الجمال والوسامة أيام كنت في الثلاثين من عمري ، لم أندم على ترك التمثيل ، بل استبدلته بتمثيل عشرات الشخصيات بحسب الزمان والمكان ، وما من أحد يدري بذلك طبعاً ، كانت أفضل أدواري هي العاشق المتيّم ، المغلوب على أمره ، المقامر العنيد ، المسافر الذي لا يشقّ له غبار ، زير نساء ، ولم يكن من أحد بقوة أدائي غير صديق لي اسمه (سامي محمد) .

**

لا شيء في اليدين يا سامي ، مسافة نصف العمر مرّت بسلام ، والنصف الثاني يمشي بسرعة خبيثة لا تناسب شهرتك الأنيقة ولا تناسب أفراحك الصغيرة .

ألف بداية في حياة سامي محمد ، وكلها بلا نهايات معقولة ، يبدو أن الخاتمة المعقولة تأتي مرة واحدة (بس) على مشاريع القلب

والابداع والذاكرة والشجون والأصدقاء ، مشاريع طارئة دائماً ، تطارده برغم أناقة شهرته وبرغم سعاداته العسلية العذبة التي لا تستمر أبداً .

فراشة ، برغم ثقلها ، تنقل جناحيها عبر ممرات وأروقة ودهاليز ودروب وأزقة ومؤسسات لا تناسب ساعات النهار المختصرة السريعة ، يومه أطول من أيام البشر ، فهو يعمل أكثر من ٢٤ ساعة ، والبقية يقطعها في نوم قصير وأحلام تتكرر منذ مئات السنين ، أحلام لا تتحقق .

عدد الأطفال يزداد في شعاب البيت ، والحلم (يتكرر) . . تطول اقامته في ضلوع المؤسسات الفنية والثقافية ، قد ينكسر ضلع هنا أو فقرة هناك ، لكن الحلم سيبقى (يتكرر) .

**

من يدري اين ، وكيف ، ومتى سيصحو (سامي محمد) من اطول حلم في تاريخ الشعوب؟ لكنه لا بد أن يصحو ذات شمس ساطعة ، أو ذات قمر بهي منير ، ويرى ، أو يكتشف ، أن الاحلام سميت كذلك ، لأنها مجرد (عبور) من ضفة الألم صوب السعادة (الكاذبة) . . وها هو يقطع عمراً بكامله في حلم سعيد لم يتحقق وقد لا يتحقق مطلقاً .

الجسد البشري يحلم من أجل أن يحارب ماضيه أو يعالج حاضره أو يمرح في باحة مستقبله ، وما يفعله سامي محمد - في الواقع - هو ردود فعل ، هادئة مرة ، وعنيفة مرة ثانية ، للجواب على حلم عنيد يرفض أن (يكون)!

كهرباء هذا الرجل لا تشبه النار التي تستعر فوق المسامات (المألوفة) ، فهو ثلج يحترق في شباط ، دموعه - وهي غزيرة جداً - لا

تنزل ابداً إلا فوق مخدته اليتيمة ، لا أحد يصدق كمية (الحزن) التي تسافر فيه ، هي تكفي أن تكسر جذوع ثلاث نخلات متينة ، ذلك ما يوازي كمية الصبر التي يعاني منها ولا يشكو من بركانها ولا يلتفت إلى مغازلاتها الخبيثة النافرة .

أنا الوحيد - بين اصدقاء سامي محمد - من كان يسأل نفسه منذ عهد بعيد : لماذا عاش سامي ولم ينتحر حتى الان؟؟ ثم عرفت الجواب بعد وقت ليس بالقصير ، وكان الجواب يقول لي : إن حياة هذا الإنسان لم تكن أبداً إلا عملية انتحار يومي ، وقد اعتاد على الموت حتى صار بالنسبة له حالة من حالات البقاء . . وهو كما ترون ما زال (باقياً) امامكم .

ذلك معناه - ببساطة - انه يعيش احزانه بطريقة فريدة لم يسبقه أحد إليها والمهم - بالنسبة لنا - إننا نراه كل ليلة وهو حي يرزق . . «هل هو حي يرزق فعلاً»؟

متجهم جداً ، ملامحه ترفض البسمة السهلة العابرة ، لهذا (ينكمش) أمامه من لا يعرفه ، ويبتسم على (طريقته) من عاش معه ، قالت عنه واحدة من كاتباتنا «ان تراه خير من أن تسمع به» وهو كذلك فعلاً .

مترجم ، وأديب ، وناقد ، وتاريخ يمتد إلى جذور الشجرة التي فرعها الكوابيس والبكاء والسؤال الابدي (وماذا بعد؟) . .

ثم جاءت (ألف باء) المجلة و(نادي سينما) التلفزيون ، ومواكب من اسئلة تمشي صوب رجل واحد (متجهم) يحاول أن يبتسم ، تقع البسمة في الطريق قبل أن يلفظ جواباً أو تحية أو استغراباً على رجل في المحلة أو سيدة جميلة جاءت تسأله عن أفلام صوفي مارسو أو

فاتن حمامة .

بصراحة ، لا بد أن (نعتب) جداً على (اليوم) الذي يرفض أن يكون أكثر من ٢٤ ساعة ، وإذا ما كبر (اليوم) واتسع الوقت فيه أكثر ، ربما سيبتسم سامي محمد ، وعندها ، إذا ما ابتسم ، سوف يخسر الكثير . . جداً .

قيل لي إنه مات ، ولم أصدق ما يقال ، أنا أرفض هذا النوع الوقح من المزاح ، أرفضه بخشونة ، سامي محمد حتى هذه الساعة يكتب لي ويهاتفني تليفونياً ، وقد عاتبني كثيراً على غيابي الذي طال تحت سماء عمّان .

**

سافرتُ إلى القاهرة عام ١٩٦٤ واكتشفتُ هناك أن يوسف السباعي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ واحسان عبدالقدوس شخصيات حقيقية تأكل كما نأكل وتنام وتشرب الشاي وتمشي وربما تتبوّل أيضاً كما نتبول ، رأيتهم في (أخبار اليوم) ، وكان ذلك في الخامس من نيسان ، وقررتُ حينها أن أكون كاتباً ما دام كل واحد منهم يكاد يشبهني في الملامح وله يدين وأصابع وفم وأنف ، رأيت أيضاً أن اسمي لا غبار عليه وله رنين وموسيقى وايقاع إذا ما قال أحدهم : عمّار جواس البدري ، ولم يبق أمامي غير أن أكتب حتى أنال حصتي من الشهرة والمجد ومحبة النساء والصبايا ، كأن لا أحد من الرجال أو الشبّان سيقرأ قصصي!

كتبتُ أول قصة بعنوان (السعادة في نهاية الطريق) وأظنها من أسوأ ما فعلته طوال حياتي ، كانت مضحكة وسخيفة برغم أن عبدالرحمن مجيد الربيعي نشرها وهو يقول :

- نريد منك أعمالاً أخرى!

لا يدري عبدالرحمن كم ضحكتُ حينها من كلمة (أعمال) ذلك أن ما كنت اكتبه ، كما قال لي حميد جمعة أول صديق عرفته في حياتي ؛ لم يكن غير خربشات وكلام فارغ يشبه أفلام إسماعيل ياسين ، وكم أحزنني ذاك الوصف الخبيث ، لكنني لم أعبأ بما قاله حميد جمعة ، بل ذهبتُ بعد خمسة أيام إلى جريدة (الأنباء الجديدة) وأعطيتُ قصتي الثانية (صائمةٌ عن الحب) التي أسقطتني تماماً من نظر القراء ، بينما عبدالرحمن (حفظه اللّه ورعاه) ما يزال يطمئنني على مستقبل عظيم لامع .

**

جيل الستينات ما زال يتذكر (ثلاثية حميد المطبعي) التي تجمع كل ثلاثة أدباء في صفة واحدة . كان من نصيب عبدالرحمن مجيد الربيعي أن يأتي مكانه في (خانة) الحالمين بجائزة نوبل ، شاركه تلك (الثلاثية) الشاعر فاضل العزاوي والقاص محمد عبدالمجيد .

بعد ربع قرن من الكتابة والنشر والانتشار ، صار اسمه (مشعاً) و(شائعاً) في أكشاك الصحف والمجلات ، في حرم الجامعة و(حرمانها) . . رجموه وترجموه ، صفعوه وصافحوه ، وطوال هذا الزمن تكرر اسمه ورسمه ملايين المرات - إذا ما جمعنا نسخ الجرائد والمجلات التي ظهر فيها والكتب التي أصدرها - وبات قاب قوسين من اكاديمية السويد التي تمنح (نوبل) .

لكن محنة هذا القاص أنه لا يعرف كم ستأخذ من سنوات عمره (قاب قوسين) هذه . إذ ، لا أحد من كتّاب القصة القصيرة في العراق يزاحمه أو ينافسه أو يتجرأ على القول بأنه أكثر (شهرة) منه ،

فهو يطبع كتاباً وينشر في بيروت ، ما ان تقرأ خبراً عن صدوره حتى يطبع وينشر كتاباً في المغرب ، ما إن تسمع خبر انتشاره في سوق الكتب حتى يطبع وينشر كتاباً ثالثاً ورابعاً وخامساً في بغداد وتونس والقاهرة .

مؤدب (وعلى خلق) . . حجم خوفه على مجده الأدبي لا يوازيه حجم خوفه على أي شيء أو على أي كائن آخر في الكرة الأرضية .

بدأ رساماً ، وانتقل شاعراً ، واستقر روائياً ، لكنه أحب القصة القصيرة وصارت عشيقته الأولى . . هجره نقاد العراق – مع سبق الاصرار – منذ عشرين سنة فهاجر بنتاجه إلى نقاد بيروت وكازابلانكا . . يكتب جواب رسائله قبل أن تصل إليه ، وأرشيفه الثقافي اثقل من أرشيف المكتبة الوطنية ، فهو يكتب وينشر منذ أربعين سنة والكثير من أقرانه وأبناء جيله من كتاب القصة (راحت عليهم) وذهب أغلبهم إلى بحور النسيان ، لكنه يعرف السباحة جيداً ولم يغرق في هذا البحر العميق إلاّ مرة واحدة فقط . . يوم راح يسأل عن هذه (القاب قوسين) التي ما زال بينه وبينها وبين جائزة نوبل قاب قوسين ليس إلاّ .

**

أعرف اليوم ، أنه لو لم أنشر تلك القصص البلهاء لما أصبحتُ عمّار جَواس البدري ، مع أنها لم تظهر في أي كتاب لي ، والبعض ما يزال يحتفظ بها حتى يثبت بالدليل الملموس مدى هشاشة كتاباتي برغم مرور أكثر من أربعين عاماً على تلك السعادة التي جاءتني في نهاية الطريق!

**

بعد عشر سنوات على رحلة القاهرة ، بدأ وسواس السفر يتغلغل بين ثيابي ، سافرتُ في عام ١٩٧٤ إلى أنقرة واستانبول وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا وهنغاريا وجيكوسلوفاكيا ، عشتُ كما الملوك في كونستانسا ورميتُ جلدي على بحيرة بيلاتون ورجعتُ من هناك إلى دمشق بثلاث حقائب سرقوها مني في لمح البصر .

لم أحزن على ما سرقوه ، بل أرعبني ما قاله (أحدهم) عني (ليس غير جاسوس من يسافر هكذا إلى آخر الدنيا) مع أنني لم أكن غير سائح مفلس يتعكز على فرق العملة بين السوق السوداء والسوق الرسمي .

لهذا السبب ، أنا أحبّ رياض قاسم ، فقد قال قولته الشهيرة في الدفاع عن سمعتي :

– المسألة وما فيها لا تستحق الريبة أو الشك ، عمّار جواس يحب المغامرة ونحن هنا قابعون نراقب ما يفعله البدري في طرقات أوروبا .

**

ربما ترك الشعر ، رياض قاسم ، لكنه الشاعر الذي هشّم تقاليد جيل الستينات ، وما تباهى بذلك ، ربما ترك الشهرة ، هو الذي حصل عليها مبكراً قبل مئات الشعراء في بغداد ، وعافها خلف ظهره بلا ندم ، ربما ترك الدراسة قبل أقرانه جميعاً ، لكنه أفضل أبناء جيله تربية في القراءة والتحليل والمعرفة ، ولم يلفت الانتباه إليه ، ربما تواضعاً ، ربما سخرية ، ربما إيماناً منه أن لا شيء يستحق الضجة ، وأن الموت قادم في الحالات كلها ، ربما؟

ربما دخلت إلى منازل عقله (افتراضات) لا نعرفها ، ربما غلبته (القناعة) التي كانت كنز بعض الادباء ، أو سبقته الاستهانة بما

يرى ، لكنه بعد السنوات الطوال التي جرجرها وراء (ضحكته) الطروب ، أو التي جرجرته خلف احتجاجه الساكن المجنح بالرضا والغرور ، لجأ - دون ارادته - إلى الصحافة وصار يكتب (واحته) و(انهاره) و(سعاداته) الصغيرة ، بينما القليل الذي كان (يريد) أن يكتبه ، ما كان ليرضيه أبداً ، ما كان ليقنع به ذاك الإنسان المبدع الذي أدرك اللعبة في وقت مبكر جداً ، واحرقها - وربما غادرها - في وقت مبكر جداً .

**

صارت الصحافة ، جزيرته الصغيرة ، حدودها التماسيح والماء المسموم والسلاحف وادغال الطحالب ، وهو رجل لا يعرف العوم افضل من سواه إلاّ السباحة في بحور الكتب الجميلة ، لذلك ، غلفته المتاعب والنيران وشجون العائلة ، وهو في تلك الجزيرة التي حدودها البحر والسماء والصخور وبقية (المذكورين في أعلاه) فايقن أن شيطان الشعر صار (يفكر) أن يهرب منه ، فما كان منه سوى اختيار (النموذج) الذي يحلم به ، لذلك راح يكتب بصمت - كما يقول - ويحتفظ بقصائده - لمن؟؟؟ - عساها تظهر في سنة هجرية أو عام من أعوام الفيل . . وقد لا تظهر أبداً إلاّ في مخيلة الروح .

رياض قاسم ، ندوة أدبية ناجحة ، في جلسة سمر عابرة ليس فيها غير اثنين أو ثلاثة من أصحابه ، وهو نفسه كرنفال فرح (لا يتسامح) إذا ما حاول طارىء أو (شويعر) أن يطفىء شموعها وبخورها وأن يدخل عنوة لقطف برتقالها الطري أو يبتسم - معنا - - ذاهلاً ليأخذ رشفة من (نقاشنا) الشخصي عن ديكتاتور بوليفيا أو عبقرية مارلين مونرو ، وربما عن بابلو نيرودا الذي (يظن) الجميع بأنه مات منذ

عشرين سنة؟

هذا رجل سرقته الصحافة ، خدعته أن ما تعطيه من أموال واسم وشبر في الجانب الأيسر - بين المشاهير - إنما هي حقوقه كلها ولا شيء له بعدها سوى (الامتنان والشكر) للسادة أعضاء مجلس الشيوخ ، الذين (يعشقون) هذا النوع العبقري من النبيذ المعتق ، والذين ينظرون إلى العملة الصعبة كما ينظرون إلى غيرها من العملات المزورة ، لئلا يكتشف (الجيش الذري) حقيقة حجمه وخطورته ، وإذا به ، ذاك الجيش الخطير المتماسك يتعامل - مع نفسه - كما يفعل الجيش المهزوم في «شوميريس» إذ ينظر إلى نفسه وهو يراها أصغر ، ثم أصغر ، حتى تتلاشى .

**

نجم في الصحافة ، هل يكفي؟ أبداً ، هو بيضة (كولومبوس) والعصا السحرية التي يمكنها أن تفعل الاعاجيب . دعونا نقرأ «الواحة» ذاك الحقل الصغير الذي يرميه بيننا كل (اثنين) . . أنا على يقين أن هذا الرجل العجيب محارب مقنع يمشي على أرض من شوك حارق ، وهو بين مئات (الاسماء) في نقابة الصحفيين من يقرأ شيلي وجون كيتس وساباتو ، وبين العشرات في اتحاد الأدباء من يعرف كازو ايشيغورو وغراهام غرين ووالت ويتمان وديلان توماس وميغيل استورياس .

ارجوكم الهدوء قليلاً ، أنا لا أعني أنه يعرف الاسماء فقط - كما يفعل البعض - كنت أريد القول إن رياض قاسم يجلس معهم ، ويدخن بينهم ، وينام - إذا إقتضى الأمر - في قبورهم ، وينهض من طيات فراشهم ، ويأتي في أول المساء ليخبرنا : كم ذبحته الصحافة عندما (طردته) من بيوت هؤلاء؟

وبرغم ذلك كله ، سيكتب كل أسبوع ، واحته العذبة ، وسوف نراه كل يوم ، نتذكر معه ، أو بدونه ، ألف ربما كانت له ، وألف ربما بقيت معنا ، لا ندري كم هدّمنا منها ولا يدري هو نفسه كم بقيَ منها عليه .

ربما سيعرف ذلك اليوم ، وربما غداً ، وربما - برغم وعيه وثقافته - قرر أن يسكت على ماضيه وابداعه ، من أجل أفواه لا تدري حجم خسارته ، ذلك أن ملامحه تقول إن رياض قاسم ، الأب ، الشريف ، الحنون ، هو الرابح برغم كل شيء .

وحده من أنقذني من لسان ذاك النمس السليط ، مع أن المشكلة وما فيها ، أن ما فيها ليس بمشكلة ، فأنا في النهاية ، أسافر وأعود ، وأحكي له عما فعلته هناك في روما وباريس ومدريد .

**

في التاسع من شباط عام ١٩٧٥ اعتقلوني في واحد من بيوت المخابرات ، كتبتُ قصة تحكي عن الحزن القاهر الذي عشناه تحت بلاهة وحماقة وغباء خير اللّه طلفاح وهو يصبغ أفخاذ البنات تحت نصب الحرية ويقصّ شعور الشبّان على طريقة الحلاّق الثرثار ، وصرخت في القصة (يا عشاق القرن العشرين اتحدوا) وقلت كلا لنوسكيه رئيس القصابين في عهد هتلر ، كلا للماركيز دي ساد عميد الشاذين جنسياً ، قائد الخراب الروحي الذي أحاط لندن وشعوب أوروبا الغربية ، ولا أدري ماذا جرى في بقية السنة ، فقد رموني في مكان تحت الأرض لا أرى فيه حتى أصابعي .

خرجتُ من ذاك الجُب ، مكسوراً ، محطّماً ، وربما منتصراً في الوقت نفسه ، فما زلتُ حتى اليوم اكرر مع نفسي ما قاله رامبو :

- عيش يوم واحد كالأسد ، خيرٌ من عيش مئة سنة كالنعجة .

كان مالك المطلبي ، البعثي الوحيد الذي هنأني على سلامتي من براثن السلطة الحاكمة آنذاك ، ما زلتُ بعد ثلاثين سنة أتذكر ملامحه الحلفاوية الفكهة وهو يقول دون خوف :

- علينا أن نشكر اللّه على سلامتك يا عمّار ، إذ ليس من المعقول أنهم أفرجوا عنك ، ها أنتَ تعيش مرة أخرى .

لم يقل (عليك) بل قال (علينا) كأنه كان معي في تلك الزنزانة الرطبة الموحشة المخيفة تحت الأرض ، أما بقية البعثيين فقد قالوا بصوت واحد :

- بعد (شتريد) عمّار ، صرتْ أشهر واحد بين الأدباء!

**

لا يشبه أي فرد في عائلة الثقافة ، لا يشبه أي واحد من اقرانه ، كنوزه من كنوز (السيد سمسم) مع أنه لا يعرف حتى اليوم كلمة السر التي يفتح بها أبواب الكهف الاسطوري الغامض .

**

لم يتهالك على عظمة المجد ، ولم يذهب إلى بيت الشهرة ، ولم يزاحم أي كائن عربي أو عالمي أو عراقي على منزل الوظيفة ، بالعكس ، هذا الرجل العجيب افنى زهرة رجولته وعطر مراهقته ورائحة شبابه دونما ثمن ، هو الذي اعطى أكثر من سواه ، ولم يفكر أن الدنيا سوف تصبح (هكذا) . . مجرد سباق إلى مجد كاذب (هو أغلى من الأمجاد كلها) وإلى شهرة عابرة (هي أفضل من أيما شهرة حصلت عليها مادونا) وأيضاً ، مجرد سباق إلى وظيفة مزخرفة بالمنافع وملونة بالنفاق ، هو الذي يستحق أن يكون رئيساً لتحرير جميع رؤساء

التحرير (ولم يفعل) ويستحق أن يكون مديرا عاماً على جميع المدراء (ولم يفعل) . . وحده الذي يستحق جائزة (نوبل) في العراق يوم تفكر اكاديمية السويد أن تمنحها لعراقي في سنة ما .

**

مالك المطلبي ، لا يملكُ أي شيء ، ولا يطالب أبداً بشيء ، غريب حتى اسمه ، مالك ، المطلبي ، هو الذي عاكس الريح وصار يمشي صوب غبارها الذهبي وصوب أوجاعها وفواجعها الطرية ، انقذ آلاف الشعراء من اوهامهم وأخبر المئات من القصاصين برداءة اعمالهم ، ودون أن يدري زاحم النقاد واعطاهم اليقين : ان لا نقد في العراق ولا هم يحزنون .

رأس مشحونة بالذكاء ، وذكاء مشحون بالعبقرية ، وعبقرية مشحونة بالتواضع ، وتواضع - لا مفر منه - مشحون بالمستقبل الذي لا يضيء سوى اعماقه .

**

رجل بمواصفات مالك المطلبي ، كان ينبغي أن يموت منذ زمان بعيد ، أجل ، منذ زمان بعيد ، نحن لا نعرف كيف نحافظ على (أموالنا) ولا نفهم كيف نبقي على (كنوزنا) ولا ندري كيف نكرم افضل مبدعينا ، هو الذي يستحق أن يكون الأول فينا ، فقد تعلم كل واحد منا عشرات الدروس من مالك المطلبي ، ونام منكسراً خجلاً - على مخدته - وهو يرى الموهبة منسية وراء الجدران ، ويسمع (القيمة) مهملة خلف الاسوار ولا نريد أن نصحو ، خوف أن يستمر (مالك المطلبي) منسياً بلا هوية ومتروكاً بلا جواز محبة ، هو الذي اعطانا هوية الدخول إلى ديوانية الابداع وراح يمنح العاجزين عن الكتابة جواز سفر

إلى ادراك (اللعبة) . . هو الذي - يا عيني عليه - تمكن من السكوت على خساراته كلها . . والذي - أبداً - لم يبح بما فعلوه في حقه من جرائم النكران ومؤامرات الاهمال ومذابح الصمت على اجمل مواهب العراق وأعمق آيات الذكاء في (وسط) ليس فيه من المواهب والعبقرية والابداع إلا مجرد (اكذوبة) نحتاج أن نصدقها ونعلن زوراً عنها لئلا يقال باننا دون ابداع كبير أو عبقرية باهرة أو خلق خارق .

**

مالك المطلبي ، أجمل ما فيه ، أنه ليس جميلاً إلا في كتمانه القوي على أصعب المصاعب ، وسكوته العنيف على كابوس كوابيسه دون أن ينطق أو يشكو أو يعتب أو يتساءل أو يحاسب أو يستفسر أو يحارب أو (يتنهد) أو يبكي أو (يتحسر) على خسارات العمر الذي مضى منه حتى الآن أكثر من ثلاثة أرباعه ، وهو ما زال يبتسم معنا ويضحك من أجل عيوننا ويقول الحقيقة لئلا نخسره أو يخسرنا .

والاعجب في شأن هذا الموهوب الكبير والصديق الشهم المحبوب ، المبرأ من الاخطاء ، هو أنه حتى اليوم - رغم عذاباته الخاصة التي لم يعلن عنها مطلقاً - ما زال اسمه في الهوية الشخصية وفي بطاقة التموين العراقية وفي دفتر الخدمة العسكرية (مالك المطلبي) هو الذي لا يملك أي شيء ولم ، ولن يطلب أي شيء .

أي رجل جميل - في هذا الزمان القبيح - من يسكت عن الارباح كلها ويمضي - بقناعة معجزة - مع الخسارة إلى نهايات العمر!!

**

في نهاية ١٩٧٥ أخرجوني ، رأيتُ أن الحياة لا تستحق أن

نخسرها مهما كان السبب ، وكان يجب أن أغادر البلاد دون عودة كما فعل سركون بولص ، لكنني لم أكن يومها أملك شجاعة هذا الشاعر ، كان عقلي يرتاح إلى النساء ، كأن لا نساء في الأرض خارج بغداد ، كنت أحبّهن بالجملة ، خمس صبايا في وقت واحد ، لا أدري من أين يأتيني ذاك الكلام المغمّس بالعسل ، الممزوج بالدبس والسكر والراشي ، لكنه الكلام نفسه لهن جميعاً ، ولذلك حفظته عن ظهر قلب سنة بعد أخرى ، والغريب هو أنني لم أتعب من تكرار المفردات : حبيبتي ، حياتي ، نور عيني ، مولاتي ، لا معنى للحياة بدونكِ يا محاسن ، كيف يمكن العيش إذا رحلتِ عني يا عفراء؟ كلام ، أنتِ هبة من السماء ، أنتِ كوثري وشهيقي ، ولا أدري حتى هذه الساعة لماذا تصدق النساء كلَ ما يقال مع أنهن خبيرات أيضاً بهذا النوع من الكذب؟

**

جنيتُ الكثير من الغيرة والحسد ، نساء حسناوات ليس من السهل اصطيادهن ، مجلات وجرائد عربية تنشر لي وتنشر عني ، بل حسدوني حتى على اعتقالي وأيام عذابي وبكائي تحت الأرض (بعد شتريد عمّار؟ صرت مشهور بين ليلة وضحاها) حتى وصلتني ذات يوم رسالة من الروائي جاسم الرصيف يقول فيها :

قرأت كل (المعارك) التي خضتها فوجدت أن الكثيرين توجعهم صراحتك ، براءة إنسان يولد فيك تواً ، ودهشة مبدع يكتشف الآن ركناً جديداً من أركان حياتنا المدغلة .

نحن أيها الإنسان نكره من يصارحنا بأمراضنا المزمنة وغير المزمنة ، وتلك حقيقة أزلية لم ينج منها غير الأنبياء ، تماماً كما نفعل

عندما نهرب من طبيب إلى مشعوذ يزين العلة بالنفاق المزخرف كي نموت ونحن نظن انفسنا (سعداء!) .

ترانا نبحث عن (الاوسمة) و(الالقاب) والامجاد الزائفة بحمى رهيبة نسفحها على موائد المجاملات الفارغة ودوائر الشللية الضيقة ، التي اوشكت أن تصل شواطىء الطائفية في (الادب!) ، وندعي الثقافة ، والنقاء ، والصدق ، وغيرها من الادعاءات التي ندري انها عقيمة ولكننا نمارس (الكلام) بها لعلها تلد إبداعاً .

**

وان تجرأت ، وكثيراً ما تجرأت وحدك من بيننا ، على تشخيص علة قبل أن تتعملق على موائدنا المنتفخة بالعباقرة ، فسنطلق عليك النار دون رحمة ونجرحك بحثاً عن آخر قطرة دم فيك وعن آخر خطاياك القاتلة لعلك تسقط من ساحتنا الجليلة فتبقى الزوايا المظلمة مدمنة ظلامها؟

وسنهمس في غيابك أنك كاتب (بذيء) و(هابط) ويمكن لأي طالب في المدرسة المتوسطة أن يكتب أفضل مما كتبت ، وأنك أناني ، وعدواني ، وحتى ابن (. .) ، لكننا لن نذكر ، أو نذكّر بعضنا أنك صريح ، وبريء ، وتمتلك اخلاق فرسان حقيقيين ، وأنك مبدع شئنا أم أبينا ، وسنستقبلك بكلمة (استاذ) إذا اقتربت من مائدتنا ، التي تنشر (الصدق والموضوعية والاخلاص) ، وسنبذل جهدنا لاقناعك (بعبقرية) آخر ما كتبنا ونحن نطبخ لك ألواناً من الشتائم والتهم حالما تغادرنا .

إنها لعبة يومية ، ليس للتسلية البريئة بكل تأكيد وهذا أفجع ما فيها ، يمارسها معظمنا كي (يتقدم) خطوة إلى أمام في ساحة الزيف

والادعاءات الفارغة ، اعني ساحة (الابداع) التي نقف عليها بكامل ابهتنا الفارغة كي نتسلق على جثث افترضناها لزملاء لا ذنب لهم غير أنهم مارسوا قليلاً من الصراحة ، من البراءة ، من الإبداع الحقيقي ، ولم يسقطوا في دهاليز الشللية الموبوءة بامراض اخطر من امراض العاهرات .

ومع ذلك فأنت وحدك من بيننا حصدت أكبر عدد من الشتائم المعلنة ، فاضفت إلى مجدك في الابداع مجداً لا جرأة لغيرك على حمله ، لذا اعلن اعتزازي بك .

**

هذه الرسالة غازلت كبريائي ونرجسيتي ، وأيقنتُ أن البشر لا يتشابهون في اللوعة ولا في المحبة ولا في الغرور ، لا أنكر أنني عانيتُ من الغيرة النسائية والحسد النسائي الذي يغزو بعض الرجال ، حتى كدتُ في لحظة طيش مارق أن اكفّ عن الكتابة لئلا يتناسل حسد الآخر فيطمرني تحت حقد لا أستحقه وكراهية لا تناسبني .

ما جاء من كلام ، في تلك الرسالة ، أعادني حالاً إلى شخصية فريدة من نوعها ، وأعني بذلك سهيل سامي نادر ، وهو بحق يناسبه كل حرف في اسمه الثلاثي ، فهو نجم معروف (سهيل) وهو اكثرنا سمواً في أخلاقه ، ويكفي اسمه الثالث في قلب المعنى ، أتساءل في حضرته :

– كيف ولماذا نحسد غيرنا؟ وإذا كانت المرأة لها أسبابها في الغيرة والحسد ، فما هي أسباب الرجال؟!

إنسان (مسالم) أكثر مما تحتمل الدنيا في نهايات القرن العشرين ، يكفيه القليل (جدا) هو الذي تبرع بتاج مرصع بالمواهب والإبداع

واعطاه إلى هواء العالم بلا بديل أو ثمن سوى الهدوء والقليل (جداً) من السعادة .

فريد في طريقة (التفكير) فريد في شكله ، قصير ، اطول منا جميعاً ، عملاق ، لم نكتشف قصر قامته أبداً ، يفهم (البشر) من أول نطق على مائدته ، وسيأتي الجواب على حجم الرجل الجالس قبالته .

شجاعته تحيا في رأس كبيرة لا تساوم على الماضي ، ولا تريد أن تدخل طرفاً في اخطاء الحاضر ، يدرك (الاسرار) قبل أن يكشف عنها المنجمون والراسخون في العلم ، بين اصابعه مفتاح قلوبنا ، وقلب كل واحد منا هو مفتاح (ابتسامته) العجيبة ولياليه السهرانة (مبكراً) .

نسأله في (الامتحان) هو الاستاذ الذي ينادونه (أبا ياسر) الوردة ، يفوح بيننا ويسكن فينا ويعشق اللحظات التي نكون فيها سوية ، ربما يعشق أن نكون معاً لتصبح اللحظات غنية أكثر مما يراها أو يعيشها سوانا .

**

مفكر خطير (سهيل سامي نادر) وسوف يشطب على صفة (خطير) بنفسه ، ساخراً ، متواضعاً ، وسوف نكتبها من وراء ظهره لئلا يخسر (حقاً) يستحقه منذ زمان بعيد ، هو الذي اعطى ولم يأخذ ، هو الذي (رأى) المحنة قبل أن تجلس بيننا ، والذي (ابتسم) لها وهي تدخل في عروقنا بعد أن (شبعت) من لحمه ودمه وايامه الحزينة التي ما انفك (يسخر) منها ولا يخافها ابداً .

لا مكاسب له ، كسب الكثير من المدح والمحبة والاحترام واكرمه الاصدقاء بذاكرة لا تنساه مطلقاً ، ولكن «ما نفع كل هذا في زمن الدولار؟» ربما تضحك العائلة على رجل «لا يريد» أي شيء ، لماذا

وحدك (لا تريد)؟

سفينة لا تخاف الامواج ، هي سفينة لا تدري بالموج الطالع من فك الحوت ، فقد سحبها الماء النقي إلى (سيتن لويد وغورباتشوف والمتنبي ومارسيل بروست وجواد سليم واندريه مالرو) ولم يعد الموج الطافح غير ماء . مجرد رذاذ ماء يأتي ويمضي إلى اعماق البحر ، ربما مجرد حلم عابر ، ربما مجرد يوم من أيام العمر عليه أن (يصبر) عليه كما صبر العمر كله على بئر مهجورة .

لا أحد يفهم الصخور ولا غرين البحار العالق بسترته (العريضة دائماً) لا أحد يدري بشظايا الرصاص ولا الطعن الذي اصابه تحت الحزام – هو لا يشكو أبداً – لان هذا الرجل النبيل العجيب الذي نسميه (سهيل سامي نادر) كان أكثرنا رغبة بالصمت وقتل الجواب ، فقد مرت الصخور وغرين البحار وشظايا الزمن والطعن تحت الحزام دون أن (يعترض) . . هو وحده الذي يعترض بالسكوت الجامح الاصيل ، ذلك أنه يعترض وهو يقرأ (ميلان كونديرا أو شرف الدين الطيبي أو ملحمة جلجامش) .

هل ثمة اعتراض اجمل؟!

**

أحدق الليلة في خارطة الأصدقاء ، سامي محمد في مقبرة الكرخ ، عبدالرحمن مجيد الربيعي في تونس ، حميد جمعة في السويد ، فاضل العزاوي في المانيا ، محمد عبدالمجيد في لا مكان ما يزال يفكر في جائزة نوبل ، رياض قاسم لم يزل في بغداد ، وسيبقى فيها حتى مماته ، سركون بولص في أميركا ، وكذلك جاسم الرصيف ، بينما سهيل سامي نادر في دمشق ، أما مالك المطلبي فما يزال في

بغداد وسيبقى فيها كما هو الحال مع رياض قاسم ، وأعني حتى مماته أيضاً .

أليس جميلاً ما قاله حسن النواب :

في البلاد

كنا نذرف دموع الغربة

وفي الغربة

صرنا نذرف دموع البلاد؟

**

هؤلاء هم أبطال الجزء الأول من كتابي هذا ، والحمد للّه ليس من ميّت بينهم غير واحد ، على عكس الجزء الثاني ، وكم أتمنّى شطبه من ذاكرتي .

2

سوف، لا أخواتَ لها

قال لي : سأموت مبكراً ، ولم أصدقه ، كان في عافية وصحة ونشاط مثل غزال في الثالث من عمره ، لكن الغزال مات فعلاً ذات صباح رمادي بينما كان يحلق ذقنه ، مات واقفاً ، سقطت من بين أصابعه شفرة الحلاقة ، ثم انتهى كل شيء .

مات في آذار ١٩٨٨ ولا يدري أن الحرب ستنتهي بعد موته بخمسة شهور ، لو كان يعلم بذلك ربما تأخر موته ، ما من أحد كان يصدق أن الحرب ستنتهي ، وبخاصة لطيف ناصر حسين الذي ذهب إلى جبهات القتال أكثر من مرة ، ورأى نصف مليون جثة في ساح المعارك وبكى كثيراً عليها .

أيها العزيز ، أيها الصديق ، أيها المبدع . لطيف ناصر حسين .

كان أمامنا - وأنت تدري - من المشاريع ، ما يكفي ثلاثة اعمار أخرى . . قصص وأحلام ومقالات وسهرة بريئة تركناها للصدف ، أو كما تقول : حتى انتهي من معاملة التقاعد . .

لماذا استعجلت الغياب أيها الصديق الفقير؟ وماذا أقول في غيابك المفاجيء هذا؟ أما كنت تريد أن ترى بيتك بعد أن يكتمل

البناء؟ أما فكرت - يا لطيف - أن تعرف نتائج إمتحان اطفالك السبعة؟ ماذا حلّ بمجموعتك القصصية التي تريد نشرها وروايتك التي تفكر في إنجازها؟

ألا ترى أن الوقت ما زال يمتد أمامنا ونمتد خلفه ، عسانا نحقق بعض احلامنا قبل أن يصافحنا الموت ونمضي معه إلى (مائدة) بلا حوار؟ نعم ، أيها الصديق ، كان أمامنا من المشاريع ما يكفي ثلاثة أعمار ، لكنك ، كما عرفتك دائماً ، تستعجل احلامك كما تستعجل الحياة .

**

يا لطيف بن ناصر ، أيها القلب الطيب ، كان عليك أن تكف قليلاً عن خمرة الدنيا ، فقد اخذتك منا بسرعة لا تناسب عمر صداقتنا ولا عمر مشاريعنا البريئة . . ها أنت تركت مكانك فارغاً في إتحاد الادباء ، ننظر صوبه ، نريد أن نصدق مرة واحدة (إنك تأخرت عن موعدنا أكثر مما ينبغي ، وأنت الوفي في مواعيدك حقاً)؟

لا أحد يصدق ان هذا الإنسان المسالم الهادىء البسيط المبدع قد ذهب دون سلام ولا تحية ولا كلمة وداع أخيرة . . من يدري ، ربما سافرت إلى العمارة حتى ترى أهلك يومين وترجع ، ربما تطوعت مرة ثالثة محارباً في جبهات القتال ، ربما يا لطيف ، ربما يا أبا خلدون ، ربما أيها الصديق النبيل المسحور بالقصة القصيرة والترجمة والمحبة وسكائر (سومر) السود الطويلة ، أيها المأخوذ إلى مخيلة دافئة مزحومة باعظم الروايات ، أيها العاشق الحقيقي للحياة والأصدقاء ، ربما سنكتب قصة مشتركة غير صالحة للنشر ، ربما سنلتقي ثانية و(نشربها) في صحة

النسيان أو في ذكرى صديقنا الذي غاب قبل عامين (حسين سلمان) ربما ، لكن المهم ، يا لطيف ناصر حسين ، المهم حقاً ، أن نسمع صوتك ، أو - ان شئت - صدى صوتك يأتي في وحشة الليل أو في ظهيرة النهار ، أن نراك ، حتى نثرثر في الهموم القصصية ، وهموم أيامنا التي ستطول ما دمت يا لطيف قد ذهبت مبكراً جداً وتركت (المائدة) فارغة إلا من الذكريات .

إننا نتذكر ، ونصغي إلى صوتك ، أو صدى صوتك ، يأتي إلينا في كل جلسة وعلى امتداد امسياتنا ، ونقول كما تقول ، ثم نشربها معاً في صحة الصديق الفقير الطيب .

سأنتظرك الليلة ، وسأعرف كل شيء منك في جلسة واحدة ، سأعرف أنك ما زلت مفلساً ، وأنك ما زلت تقرأ وتكتب ، وأن ترجمة آرنست همنغواي وصلت نهاية المطاف ، وأن بيتك صار أفضل مما كان ، سأعرف ان منذر الجبوري قال بأنه سيأتي متأخراً ، وأن سليم السامرائي سيأتي معه ، سأعرف آخر اخبارهم ، ثم ندخن ، أعرف أن سكائري من النوع الذي تريد ، حتى إن كانت من النوع الذي تحتفظ به في جيبك ، وإذا اعترضت عليك أيها العزيز ، أعرف انك سوف تقول :

- لعد ليش اصدقاء ؟!

**

أعرف كل شيء ، سأعرف كل شيء يا لطيف ، لكنني لا أريد أن أعرف أنك غادرتنا إلى الأبد . . أنا يا صديقي لا أرثيك الان ، احتاج إلى وقت آخر حتى أصدق انك لن تعود ، إذ أخبرني سيف الدين الجراح وفهمي الصالح ان ما سمعته اليوم كان صحيحاً ، أصدقهم ، لكنني حال اختفائي داخل نفسي سأصرخ مثلك عن ولع بالحياة

وأجلس هادئاً بانتظارك حتى تأتي .

سوف نراك بيننا دائماً يا لطيف ، ألا ترى أيها العزيز ، انك غادرتنا مبكراً لأول مرة؟

نعم أيها القاص المبدع ، إنها أول مرة تترك فيها موائدنا وتذهب راكضاً ، مع السلامة يا لطيف ناصر حسين ، دير بالك على نفسك .

**

يقول جورج كورتلين :

- في الأساس ، بالنسبة للدبلوماسي ، الدهاء هو قول الحقيقة ، عندما نعتقد أنه لا يقولها ، وعدم قولها عندما نعتقد أنه يقولها .

مرة وأنا في القاهرة ، صادف يوم عودتي إلى بغداد مع مجموعة من الأدباء العرب ، كنت أجلس خلف ثلاثة منهم وأمام اثنين آخرين كانا ورائي .

جرى حوار على جانب من العنف بين هذين الكاتبين ، ثم انقطع الحوار بالقذف والصراخ ، راح كل واحد منهما يتهم الثاني بحفنة من الصفات السيئة ، المشينة ، حتى إذا ما أعلن كابتن الطائرة وصولنا إلى مطار بغداد ، سمعت أحدهما يقول هامساً هادئاً : «إن علينا نسيان ما جرى بيننا من سوء تفاهم ، ومن الخير لي ولك أن نظهر أمام الجميع بصورة أفضل ، ولا تنسى أننا أكثر شهرة وأحسن سمعة من سوانا» .

اجاب الثاني موافقاً ، وهو يقول : لكنني يشهد الله لن أسال عنك بعد اليوم مهما كان السبب .

وفي بغداد ، على امتداد أيام (المربد) نشرت الصحف والمجلات ، كما قدم التلفزيون واذاعة بغداد واذاعة صوت الجماهير واذاعة المربد ، العديد من (المقابلات) الأدبية مع هذين (الصديقين) فكان كل واحد

منهما يمدح (صاحبه) بافخم الصفات وأكبرها ، بل وصل الأمر بواحد منهما ، أنه قال في واحدة من جرائدنا اليومية :

- إن الروائي (فلان الفلاني) تمكن في زمن نسبي أن يسبق عشرات المبدعين الكبار (امثال نجيب محفوظ ويوسف ادريس وادوار خراط والشاروني) ويتركهم خلف مسيرته .

هذا النموذج من العلاقات ، ليس سيئاً كما يعتقد البعض ، إنه في صميم الاخلاق ، إذ من العيب - وهذا ما جرى فعلاً - أن يسافر أحدنا خارج الوطن ، فيأتي - مخادعاً - على ذكر محاسنه وأسباب نجاحه وصعود اسمه ويخدع الجمهور في البلاد التي يمضي إليها ، على أنه (الوحيد) الذي فتح اندلس القصة والرواية .

لماذا؟ ومن أجل أي شيء ندوس باقدامنا على ابداع سوانا؟ ألا نتمكن مرة واحدة أن نقول الحقيقة في حق غيرنا كما نقولها في حق أنفسنا . ؟

**

اكتب في ليل الثالث والعشرين من تشرين أول عام ٢٠٠٦ ، اكتب دون انقطاع ، اكتب بسرعة كأنني سأموت غداً ، شاهدة قبري ما زالت فارغة من رقم السنة التي سأموت فيها :

هنا يرقد عمّار جواس البدري ،

عاش ومات ، لماذا؟ لا ندري .

ماذا كان سيحدث لو أنني بقيتُ في القاهرة وظهرتُ في (حمام الملاطيلي)؟ ربما تمكنتُ بعد الشهرة والمجد والمال ، أن أتزوج سميّة الخشاب ، وربما حنان شوقي أو ياسمين عبدالعزيز ، من يدري؟ الحياة إما حظ عاثر أو حظ عظيم ، وأنا رفستُ النعمة بعيداً عني ورضيتُ

بالكتابة والتأليف والافلاس ، كم كتبنا من قصص قصيرة ومقالات ، نحن أدباء العراق طوال عشرات السنين؟ مائة ألف مقالة وقصة؟ مليون؟ أم أكثر من ذلك؟ ما هو حجم التأثير الذي (فعلته) تلك المقالات؟ سهر الليالي ، وعذاب البحث عن (افكار) واحتراق الخلايا أمام (التبريرات) الجاهزة ، وجع الدماغ ، جلطة القلب ، أحزان النفس إزاء من يفهم ومن لا يريد أن يفهم؟

ماذا فعلت تلك المقالات والقصص في نفوس من يقرأ؟ لا شيء . . أنا أقول هادئاً : لا شيء ، وأقول بلا غضب ودون أي انفعال : لا شيء ، إنها مجرد مقالات تكفي هذه المساحة من الجريدة ، فيها اسم الكاتب وعنوان المقالة أو عنوان القصة ، وآلاف الحروف السود التي إن قالت أعظم الافكار ، لن تقول أي شيء .

والسبب ، جد بسيط ، هو أن ما نقرأه يوم السبت لن يرجع إلى الذاكرة يوم الأحد ، وما نؤكد عليه يوم الاثنين سيموت حتماً مساء الثلاثاء ، وما نتوهم أن كلام الأربعاء سيبقى إلى نهاية العمر في مذكرات الدنيا ، يموت نهار الخميس فعلاً .

**

نعم ، كلنا يقرأ ، كلنا ينفعل أثناء القراءة ، ونقول صواباً ما جاء في هذا المقال . . لكننا أبداً لن نتذكر ما جاء بالأمس من رأي أو فكرة أو انقلاب في الحياة الثقافية ، مشاكلنا تكفي ، هذا ما يقوله البعض ، والبعض الثاني يقول : هذا كلام معقول لكنه كلام جرائد .

والبعض الثالث ، وهو أصدق خلق الله ، لا يقرأ ولا يشتري الجريدة ، لا يقرأ هذه الفكرة ولا يريد أن يصغي إلى رأي يستحق النقاش .

لكن المحنة الحقيقية ، مع الكتّاب أنفسهم ، هم الكتّاب وهم القرّاء في وقت واحد ، وأمامهم ، وبينهم ، بل معهم ، تجيء المقالة وتنشر ، هم يقرأون الحروف ، ويسافرون مع الكلمات ، ويصرخون انتعاشاً وراء السطور ، لكنهم ، برغم هذا كله ، لا يتأثرون بما يقرأون . . أنت صديق (فلان) ستبقى الصديق ، أنت عدو فلان ، ستبقى العدو ، مهما قال من رأي صارم ومهما ابتكر من افكار إستثنائية ، ذلك أن طقوس الشهرة والنفاق والحسد اللعين ، هي ذاتها طقوس الموت والنهاية والرداءة .

– أنا لا أصافح يدك المتسخة بشتائمي ، لكنني أكتب رأيي . . هل تريد أن أمدحك على شيء لم أعثر فيه على إبداع حقيقي ؟!

سنكتب مئات المقالات ، ويمسحها مطبخ البيت تحت طعام المساء وسوف نكتب آلاف أخرى ويمسحها الحسد الجميل ، لكننا بعد مائة سنة – إن شاء الله – سنأكل انفسنا ندماً واعتذاراً من ذلك الإنسان الصادق الذي كتب يقول :

– معي كان هذا ، أو ضدي ، ما اقرأه الان منك ، يساوي ما احتاج إلى كتابته ، ساعتذر من نفسي على انني ذات يوم كنت اكرهك أكثر من نفسي .

وما الفائدة ؟

إنها ، مجرد حكاية أو رواية أخرى ، سوف يمسحها مطبخ البيت أو الحسد الجميل .

**

أنا والقصة القصيرة عاشقان سقطا من طائرة محترقة بمظلة واحدة ، أنا مشروع يمتد إلى نهاية عمري ، والجزء الخطير من حياتي لم اكتبه

بعد ، ربما كتبتُ شيئاً منه ، لكن أسراري تحتاج إلى عشرات الدفاتر ، هناك ما يشبه الزواج الكاثوليكي بين قصصي وحياتي ، وأحلامي مضحكة لا يمكن أن يحققها سوى الأطفال ، يظن البعض أنني أخاف من الموت ، بينما الحقيقة هي عكس ذلك تماماً ، وأنا أول ضحايا أدب الاشاعة ، أخاف أن يقترب الموت من أحبّتي وأصدقائي ، وما زلتُ حتى هذه الساعة لا أصدق رحيل حسين سلمان ، لا أصدق رحيل رشدي العامل ، ولا محسن اطيمش ، ولا نصر محمد راغب ، ولا صاحب الشاهر ، ولا ضرغام هاشم ، ولا موسى كريدي ، ولا محمود جنداري ، ولا جليل القيسي ، ولا عبد الأمير معلّة ، ولا يوسف الحيدري ، ولا سامي محمد ، ولا حاكم محمد حسين الذي بعثَ لي رسالة على علبة سجائر قبل اعدامه بأسبوعين يرجو فيها انقاذه من الموت بعد فراره من الجيش إبّان حربنا مع إيران ، يومها أبكاني وأضحكني في وقت واحد ، بكيتُ شبابه الذي ضاع سهواً ، بكيتُ مبدعاً كان يمكنه أن يكون ، لكنني ضحكتُ من الوهم الذي كان فيه ، أن أكون (أنا) عمّار جواس البدري أملك مفتاح النجاة له من موت مؤكد ؟!

وفي كل موت ، أتذكر موت حسين سلمان ، ضحيّة أخرى من ضحايا السرطان ، مات في الشهر التاسع من عام ١٩٨٥ وكان آخر أعماله أنهم اختاروه (مصوباً لغوياً) في فيلم القادسية حيث عاش آخر أيامه ما بين المستشفى وبين سعاد حسني التي رحلت أيضاً بعد رحيله بعشرين سنة ، كان يحكي لنا عن سعاد ، يتلذذ بما كان يقول لها عن اللغة العربية ، يتلذّذ أكثر حين يسمعها تقول : مفهوم كده يا سي سلمان .

**

ارثي نفسي في موتك ، لا ارثيك ، أيها الصديق الطيّب الذي صار اسمه يشبه اسمي ، وصار لحمه يشبه لحمي ، وصار شهيقه يوازي شهيقي .

يا حسين بن سلمان .

بكيت على نفسي قبل أن أبكي عليك ، فقد قلتُ وداعاً لنفسي وأنا أقول وداعاً اليك .

كيف يذهب الاصدقاء بهذه السرعة ؟

لماذا يهاجر الاحباب وهم أكثر حباً ؟

ولماذا يا حسين بن سلمان رحلت سريعاً ومضيت عنا ونحن أكثر حباً لطيبة قلبك ونقاء روحك ؟

من يداري بعدك آمال «ميادة» وأنغام «اطياف» ودموع «زينب» وكيف نخفف – بعدك أيها النبيل النبيل – آلام «علي» ومن يراقب مستقبله وطموحه ودروسه الصعبة ؟

أرثي نفسي في موتك ، لا أرثيك ، أيها الحبيب الذي ضاعف وزن الحب ، أيها الشقيق الذي جاءت به «أمي» واعطته اسم اب غير أبي . . يا حسين بن سلمان ، اهلاً بك في أحلامي ، أهلاً بك في كل ليلة ، فقد نسيناك قبل موتك ، وربما يا صديقي ماتت مشاعرنا قبل موتك ، فصار اعتذارنا «عذاباً» وصار عذابنا «اعتذاراً» . . لكنك واللّه أكبر من عذابنا وأكثر من اعتذارنا ، لأنك – وحدك أيها العزيز – من كان يعرف الحقيقة ، ووحدك من كان يفهم الجواب .

**

هي نادراً ما تتعب الكلمات ، لكن في حضورك يا حسين تعبتْ معي هذه الكلمات وأنا الذي أريدها واستعين بها . . تعبت يا حسين

الكلمات معي ، فقد كان حبك أكبر منها . . أكبر منها بكثير .

اربعمائة يوم ، أيها الصابر العجيب ، وأنت تعرف شكل الموت الذي جاء نحو فراشك واقترب من مستقبلك وغازلك بلا حياء وبلا احساس ، لكنك برغم هذا كنت تعيش بيننا تسامرنا ، تسهر معنا ، وهو يأكل فيك ، ويأكل فينا ، أربعمائة يوم يا حسين بن سلمان ، ساعدك اللّه ، كم صبرت وكم عانيت ، ونحنُ لا نعلم عن موتك إلا القليل؟

ارثي نفسي في موتك ، لا ارثيك ، فقد صار الحصول على (صديق) صادق اصعب آلاف المرات من الحصول على سمكة حيّة في صحراء . . أصعب آلاف المرات من الوصول إلى الشمس وقت شروقها .

ماذا نقول عنك؟

ماذا نقول فيك؟

خسرنا أنفسنا حين خسرناك ، فقد ضاع من بين أيدينا كيف نعتذر في غيابك ، نحن الذين فشلنا من الاعتذار في حضورك أيها النقيّ ، الطاهر ، النظيف .

اعذرني وحدي يا حسين بن سلمان ، فقدكان موتك بعض موتي ، وصار وجهك في ذاكرتي بعض وجهي ، وإذا ما سمعت يوماً - وأنت في جنات اللّه - أنني ما زلت اضحك واسامر الأصدقاء في اتحاد الادباء أو في المرايا ، لا بد أن تعرف أيها الحبيب ، أن هذا الضحك الذي ما زال حاضراً على ملامحي ، وأنت بعيد عني ، ليس إلا ضحك كالبكاء !

ويشهد اللّه ، أيها الرائع ، أن هذا الغياب الخطير . . غيابك يا

حسين بن سلمان صار اصعب ما نعانيه ، لأنه يا صديقي اصدق ما نعانيه .

اعذرني وحدي يا حسين ، فقد بكيت عليك بعد أن بكيت على نفسي . . كنت صديقي ، وأنا فخور آلاف المرات ، إنك يا حسين بن سلمان كنت صديقي فعلاً .

كم هو جميل ونقيّ - أيها الغائب الحاضر - أن أكرر عشرات المرات ، أنك كنت صديقي ، ويكفيني شرفاً أن امثالك كانوا أصدقائي في لحظة عابرة من هذا الزمان العابر .

**

قبل موته بأيام ، كان يكرر كلمة (سوف) بين جملة وجملة ، حياته مزدحمة بما سيفعله غداً ، ولا أدري حينها أيّ ابليس أزعر قال نيابة عني :

- سوف ، لا أخواتَ لها .

راح يضحك بقوة ، كنا في المستشفى نجلس على عشب ميّت في حديقة جرداء ، ثم قال : إنه عنوان مثير يا عمّار ، سوف لا أخوات لها ، وفكرتُ مثله بذاك العنوان :

- سأكتبه من أجل عينيك يا أبا علي .

كان عندي حقل أسبوعي ثابت في جريدة القادسية ، والقادسية هي الحرب التي جاءت بعد حرب النظام في كردستان وقبل أُم المعارك في عام ١٩٩١ ، وقبل أن يأتي فجر اليوم التالي كتبتُ مقالتي (سوف لا أخواتَ لها) وتمنيتُ من اللّه أن يبقى حسين سلمان حياً حتى يقرأها ، لكن المقالة ضاعت بقدرة أحد حسّادي ولم تنشر ، وبما أنني أحتفظ دائماً بنسخة ثانية من كتاباتي ، فقد ظهرت المقالة (وا أسفاه)

بعد موته بشهرين ، قلتُ فيها :

سوف تمضي السنوات ، سنة بعد سنة ، سوف ينسى القراء عشرات الكتّاب ، سوف ينسى حتى الكتّاب اسماء الرواد الذين سبقوهم ، سوف ينسى هذا الجيل ما فعله ابناء الجيل السابق ، ولن يعيش في الذاكرة إلا (الكتاب) الجيد ، وحده الذي سوف يبقى علامة حب للماضي واشارة أمل للمستقبل .

الكلام الذي يقال ليلاً على الموائد ، سوف يموت فوراً في الصباح ، الكلمات المنشورة في الجرائد آن للعائلة أن تمسح بها زجاج البيت وتفرش عليها وجبات الطعام ، سوف يموت الكلام المنشور بعد حين من الدهر ، ويومها قد يموت الكاتب أيضاً . . لكن ذاكرة الإنسان لن تغفل ابداً قيمة (مبدع) أصيل ولن تشطب مطلقاً على حياة روائي اعطى سنوات عمره من أجل هذا السحر الجبار الذي يسمونه الرواية .

لن تموت القصيدة المحترمة ، ولن يموت شاعرها ابداً ، سوف يموت مئات الشعراء بلا ذكريات عنهم ولا مذكرات نكتبها بعد فراقهم ، وحده الشاعر الاصيل من سوف يبقى .

**

سوف تمشي اعوامنا ، عاماً بعد عام ، سوف نكتب آلاف القصص والقصائد ، لكن قصة واحدة أو بيت شعر واحد ، سوف يبقى ، وعندها سوف تنتهي الاكاذيب ، إذ لا وقت يومها لرشوة الناشر أن ينشر سخافاتنا ، ولا أمل يومها أن نخدع رؤوساء التحرير على قبول ابتسامتنا الطيبة التي نخفي خلفها أو خلف ظهورنا قصة تافهة أو مسرحية بلا معنى أو قصائد مسروقة من المعاجم والقواميس .

لا أمل يومها في رشوة الضمير ، سوف تنام السنوات في قبور

مزخرفة بالتاريخ لا شأن لها بمن ادركته الشهرة أو عانقه المجد ، ولا شأن لايامها بمن حاز أو فاز بجائزة الدنيا . . ذلك أن السنوات لا شأن لها بمن يسابق نفسه إلى الوهم ، أو يسابق الوهم إلى الجمهور ، أو يسابق الجمهور إلى النجاح ، أو يسابق النجاح إلى وظيفة افضل وأعلى .

المبدع لا شأن له باخطاء النفس البشرية ، فهو حالم كبير لا حلم له غير ابداعه الكبير ، ولا سباق يدخل فيه غير سباق ابداعه الطافر الذي يشهق به قبل شهيق انفاسه وقبل أن تأذن بذلك قصباته واعصابه ومسامات جلده النافر الذي لا يعرف الهدوء .

سوف تمشي سنوات العمر كلها ، سنة بعد أخرى ، سوف نتعب وقد نتألم ، سوف نصرخ وقد نشكو ، سوف نكتب وقد يأخذنا اليأس إلى الصمت . . لكننا من أجل (كتاب) واحد نقول فيه ما نريد ، سوف نستمر ، وسوف نحيا ، وعندها سوف يفهم الاديب الاداري ، العاجز عن الابداع ، أن المبدع العظيم لا شأن له ابداً بهذا السباق المضحك ما بين الوهم والنجاح ، أو ما بين الجمهور والوظيفة ، لأن الابداع منذ تزوج ابونا آدم سيدة الدنيا حواء ، هو أن نقول ما لا يقال ، وأن نخلق من سراب الأرض ماء .

**

مرّت أيام وشهور وخمسة أعوام ، انتهت الحرب بعد أن مات فيها مليون عراقي ، وتهيأت الديرة لحرب أخرى يوم أن غزونا الكويت ، الجنون حلّ مكان الخبل ، والخبل حلّ مكان الهستيريا ، والهستيريا صارت في مكان الغرور والنرجسية وسيجار هافانا الذي يأتي من أقاصي كوبا ، هدايا من مخبول بالزعامة إلى زعيم مخبول بالهدايا ، حينها تمّ فتح أكبر متحف للهدايا في العالم .

وقبل أن ننسى حسين سلمان ، مات رشدي العامل ، مات الشاعر الذي نُحب ، بينما الكويت تستجير من رمضاء المجنون ، ولم تجد الكويت غير النار ، جيش عرمرم من اللصوص داخل الدكاكين والقصور والبساتين والأزقة والبيوت والشوارع ، لم يصدق رشدي العامل مستوى الخبل الذي أصبحنا عليه ، فقرر أن يموت مخموراً لئلا يرى بقية المشهد ، كان شاعراً بما سنكون عليه ، ولهذا تخلّى عن الحياة دون أن يفكر مرتين ، وعند قبره رحتُ أهمس من وراء الكفن الأبيض :

اشكرك جداً على غيابك عنا ، أيها العزيز رشدي العامل ، اشكرك حقاً ، فقد ذكرني غيابك أيها الجميل أن الشعر ما زال بخير ، فها هي آخر القصائد الغزلية التي اهديتها الينا وعرفنا منها كيف يكون الحب والشعر بديلاً عن الجسد الذي فارقنا إلى الأبد .

أيها الرجل الطالع من فرط عشقنا ومن نبض أوراقنا ، أيها النبيل الذي لا يشرب حتى الماء إلا في صحة احبابه واصدقائه والمقربين إلى شيب شعره ، اشكرك الآن جداً ، فقد آمنت ، بعد غيابك عنا ، ان العشق لا يموت ، وان دموع العيون ما زال يغسل القلوب ويعطيها جواز مرور إلى مملكة الذاكرة .

اشكرك جداً ، على بعدك الليلة عن مجلسنا ، نحن بحاجة إلى ذكرياتنا البعيدة يوم كان القلب نقياً ومسالماً لا يفهم في أي شيء سوى الحب ، من أين يأتينا هذا الحب إذا ما فارقنا بائع التفاح الذي تبرع أن يأخذنا جميعنا إلى «حديقة علي» حتى نأكل اصابعنا حزناً على حديقته التي عافها وأغلق صنبور الماء عنها .

**

من يفتح ماء القلب على حديقتك الليلة يا سيدي ؟ من ؟ هل يتذكر بعد غيابك الشعراء أن باب الحديقة مفتاحه بين طيات القلب؟ من سيمسك مفتاح الرقة والنقاء ويفتح باب حديقتك الصغيرة الشاسعة ؟ من أيها الجميل يتذكر : ان الشعر لا يكتبه غير الشعراء؟ إن الشعر لا يفهمه سوى نبض الروح ، وإن غابة الحب لا تشبه صحراء الحقد ، وإن الشعر لا يأتي إلاّ من شريان المحبة ، من وريدها البهي الطافر من اعماق الروح ؟ .

اشكرك يا أبا علي ، كان ينبغي أن يغادرنا بعض هذا الصفاء كيما نتذكر الصفاء كله ، فقد ارهقنا قلوبنا بأيدينا وآن لكل واحد منا أن يتذكر كيف تموت الاجساد ولا تموت القصائد ، يا سيدي العزيز ، سامحك اللّه ، اتراني صدّقت بعدك عنا؟ ابداً ، إنني أمازحك الآن كما كنت تمازحني على أوراق حبّي . . يشهد اللّه يا صديقي ، تمنيت لو أنك الآن تمازحني على غيابي ، وأكون قد فارقتك بجسدي كما فعلت ، شرط أن تبقى بعض أوراقي أمانة في يديك .

تماماً كما هي اشعارك الآن ، التي ساقرؤها ثانية قرب شهيقك الذي لا يمكن أن يفارقني .

إسمع يا صديقي ، دعنا من المزاح ، اريد أن اقرأ الآن آخر ما كتبت ، وإذا تعذر أن تأتي بنفسك أرجوك أن تقرأها عبر الهاتف .

انتظر قليلاً ، سأحضر الأوراق فوراً واكتبها بخط يدي قبل أن تنساها يا رشدي .

**

يا سيد أسياد الأرض ، يا محمد ، طاف الموت على مقربة منا ، وعاد الشيطان للتجارة والنهش وذبح لبانة القلب ، ينحسر الحب يوماً

بعد يوم ، وتنمو الضغينة في بستان الانسان ، سيد أسياد الأرض ، هشمتني أخبار الفضائيات وأنا في اليوم الرابع من تشرين الثاني ٢٠٠٦ ، انهم يقتربون شراً على خفّة وعجلة من أرض القديسين ، لا شيء في فراغات عقولهم غير السلب ونهب الخيرات واختطاف أفضل أولادنا ، يموت العباقرة أو يقتلون ويبقى البلهاء والقصابون ، فمن يحفظ جسد الديرة من مخالب الوحش ؟

بينما كنت أشتعل في حمّى موت الأصدقاء في عام ١٩٩١ اتصلت بي تليفونياً واحدة قالت إنها (معجبة) كم كان صوتها عذباً مثل مطر خفيف ينزل في موسم الصيف ، لكن الشك أخذني صوب زوجتي ، ربما كانت احدى صديقاتها وجاءت بها تمتحن اخلاصي ، لكن الشك تسرّب يوماً بعد يوم ، كان الصوت يزداد عذوبة وحلاوة وكلامها كله في القصص والروايات والحقل الذي كنتُ اكتبه أسبوعياً ، لم تذكر اسمها ، وأنا لم أسأل عنه ، حتى قالت ذات صباح خريفي جامح :

- هل تسمح لي بزيارتك في الوزارة ؟
- أهلاً وسهلاً في أي وقت تشائين .

في اليوم التالي ، جاءت ، قالت مسؤولة استعلامات الوزارة : هناك امرأة تسأل عنك ، هل تريدها أن تدخل ؟ قلت لها : طبعاً .

ليتني ما رأيتها أبداً ، ليت أن الأرض انشقّت وبلعتني قبل أن تراها عيني ، هل ثمة في الدنيا امرأة بهذا القبح ؟ كتبت عنها قصيدة بعنوان (امرأة على الهاتف) أقول فيها :

يغازلني صوتها ،
فأحلم أن الثريا ثراء ،

بابها للعواصف مفتوحة ،
وأنا حارس عند سنّ البحار ،
عشقها سفر في الضلوع
نبرة ، جرسها دمعة أو سناء
شوقاً يسامر جرحاً ،
يطاردني ،
عند باب العواصف ،
منحدراً ، والدموع معي ،
على ميسم ، غصنه الكبرياء . .
اجمع جلدي
جسراً ، إذا رنّ هاتفها ،
واصغي إلى نهر اسماكها
طيراً يسابق جمر السماء ،
قالت : أراك
فقلت : خيراً . .
لم تكن ثمة عاصفة ، ولا حلم
لا نهر اسماكها صار نهري
ولا مطر في السماء
وأنا ، لم أعد حارساً عند سنّ البحار
فقد نام من يومها جسر جلدي
ومات الغناء .

لم أعد أصدق الصوت الذي يأتيني عبر التليفون ، كم من امرأة صوتها لا يناسب حُسنها ، وكم من امرأة مثل تلك المعجبة ، صوتها

لا يتوازى مع قبحها ، برغم ذلك أحزنني أنها شعرت بذلك ، حيث انتهى كل شيء ، ولم أعد أبالي بأي صوت جميل بعد تلك المهانة .

**

كان ذلك في سنوات الحرب ، أخذت تلك المعجبة الكثير من وقتي وأنا مشغول بالحرب التي قصمت ظهر البلاد دون أي نور في نهاية النفق (بحسب وصف الساسة وباعة الشعارات) .

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، انتقل العشرات من ادباء ومفكري - وحتى فناني - أوروبا ، إلى الصحافة ، لم يكن ثمة وقت مناسب للتفكير في القصة القصيرة أو الشعر أو الرواية أو اللوحة .

كان الاحساس والانفعال في أعلى حالات عنفوانه وغضبه ، يدفع كل واحد منهم إلى التفكير بواجبه أمام الرصاص والمدافع وقنابل الطائرات ، لم يكن عسيراً على أدباء وشعراء أوروبا العثور على وسيلتهم للتعبير عما يدور في أعماقهم .

ولم تحضر الرواية ولا القصة القصيرة إلا بعد نهاية الحرب بسنوات ليست قليلة ، وكذلك بقية الفنون .

الأمر عندنا كان على عكس المألوف ، أو عكس ما نرى ونسمع في الحروب الكبيرة ، فقد بدأ الحماس قصصياً ، وصار بعد فترة حماساً روائياً يلهث خلف الأحداث دون أن يغوص إلى شريانها ، وما كان يمس إلاّ جلدها بشفافية لا تخلو من سذاجة .

إذا رجعنا اليوم إلى تلك الحرب الملعونة ورسمنا خارطة صحيحة لنتاجنا آنذاك ، ماذا سنقرأ؟ ليس من شك في أن المنتوج الغزير لا بد أن يخفي بعض الجودة ، مع الكثير من الشوائب والبلاهات وهي التي

كانت طاغية فعلاً .

نصوصنا جرجرتها الرغبة في المشاركة ، إما وجدانياً ، أو تحت ضغط الترهيب (إنها بلادك ، لماذا أنت بعيد عنها؟) لهذا جاءت مئات القصص دون فائدة ، بل دون معنى ، قصص ممسوخة للبيع وقصص للتمويه حتى نتخلّص من المشاركة في الحرب القذرة .

وجاءت اغراءات المال بقوة ألف حصان ، سيارات فارهة ودنانير وبيوت على نهر دجلة وأوسمة وأسفار إلى باريس ولندن وروما ، فأجهزت الاغراءات على آخر ما تبقى من حصون منيعة لا سيما وأن أديبنا فقير منذ طفولته لم يأكل وجبة محترمة إلاّ في أحلامه !

لم يعد من أحد يكتب عن الحب ، ولا الجنس ، ولا الملذّات اليومية ، سباق ماراثون نحو المكاسب ، وفي كل مرة نظنّ فيها أن مكسب هذا الشاعر هو أعلى ما سيأتي في زمن الحرب ، نفاجأ بمكسب أكبر ، ثم أكبر ، وهكذا حتى نهاية آخر قطرة حياء في الجبين .

**

لا أحد يعرف بعد الحرب كيف ولماذا ومتى صارت الكتابة عن الحب جريمة يحاسب عليها قانون ابداعنا؟ ها نحن أمام آلاف الكتب وما من كتاب واحد صار يحكي عن الحب ، وليس من كاتب واحد يلتفت إليه ، مطابعنا ممنوع عليها طباعة أي شيء عن هذا المخلوق الذي يوشك أن ينقرض ، وكتّابنا أنفسهم يغرقون في الوهم الذي أخبرهم أن الكتابة في الحب هي مهنة الكسالى والمخنثين وحرفة غير الموهوبين .

انظر حولك إلى شاشة التلفزيون ، إلى الجرائد ، انظر إلى اكشاك المجلات ، ثم اذهب إلى رفوف المكتبات وحاول أن تعثر على كاتب

عراقي واحد يكتب في هذه الفضيحة الكبرى التي يسمونها الحب . . لن تعثر ابداً على كاتب يحكي عن الربيع والعشاق والسماء الزرقاء ، ليس من كاتب يهمه نبض القلب ولا فرح القلوب ولا آلام فارتر أو احزان قيس .

صار الحب بسبب الحرب والغنائم مجرد موضة قديمة من العيب أن يلبسوها في زمن الفيديو والكومبيوتر والقنبلة الذرية ، صار الحب مجرد نكتة وكلام فارغ بلا معنى ، وبات عليهم قتل هذا الشبح الذي يحوم حول أوراقهم وينام على وسائدهم .

مات الحب في عقولهم ، وصار عليهم حمل جنازته إلى المقبرة حتى يتسع الوقت للحقد والشتائم والنفاق من أجل أن تدخل عروس الكراهية إلى غرف نومهم وتغازل قصائدهم وقصصهم التي لا يقرأها سوى الموتى .

**

ماذا جرى حقاً في هذا العالم المحنط الذي غادره الحب؟ هل انتهت المحبة فعلاً؟ هل انتهى زمن القلب؟ لكن أوروبا وأميركا ونصف آسيا وافريقيا ما زالت تكتب في الحب اعظم القصص واعذبها حتى في سنوات الحرب ، فكيف صار من نصيب الكاتب العراقي وحده أن يرفع خنجره على رأس الحب ويفتك به مرة واحدة ؟

ما زال القلب العراقي ينبض بالحب كل يوم ، ماذا دهاكم وأنتم تمزقون الحاضر والماضي صوب تهشيم المستقبل دونما رحمة وبلا شفقة؟

إذا كان الابداع أن نمزق تاريخنا ونحرق عوائلنا ونكفر بأنفسنا ، يكون من الخير أن نكف عن هذا الابداع القاتل ، يكفي ما احرقنا من

قناعات حجة أننا نبحث عن أسلوب أفضل وطرق أرقى وابطال بلا ملامح .

دعونا نخلق افكارنا بانفسنا ، يكفي ما قطعنا من العمر ونحن نستورد الافكار والقصص من غيرنا ثم نقنع انفسنا بأنها افكارنا وقصصنا .

نريد فكرة واحدة فقط نصنعها بعقولنا لا بعقول سوانا ، فكرة واحدة نصدرها إلى الدنيا ونعتز بها ، الا يكفي أن السنوات تمشي ونحن ما زلنا سعداء بالبضاعة التي نشتريها من السوق السوداء ثم نوهم أنفسنا بأنها بضاعتنا ؟

**

لقد كان الحب بضاعة العرب منذ آلاف السنين ، وقد صار حتى الحب بضاعة غيرنا ، ولم يعد امامنا غير أن نستورده بالعملة الصعبة ما دام كتابنا ينكسرون خجلاً إذا ما وردت في قصصهم عبارة واحدة يكون معناها : احبك الآن أكثر .

الكتابة في الحب ، واحدة من اصعب فنون الابداع ، ومن يعجز عن هذا اللون من الكتابة سوف يعجز عن الابداع . . ذلك أن الحب في صميم الإنسان ، مهما تغيرت العصور ، ومن يتبرأ من الحب ، تراه اصلاً قد تبرأ من جزء عظيم من إنسانيته .

3

الشيخ والوسام

من حوار واحد مع (غارسيا ماركيز) كان قد اجراه (بلينو ميندوزا) تمكن ماركيز من الحصول على آلاف الدولارات ، وتكرر الأمر بعد حوار (ميغيل براسو) ناهيك عن ذكر العشرات من الحوارات التلفزيونية وغيرها تلك التي ظهرت في الصحف والمجلات والتي ما زالت تشكل منبعاً من النقود يصبّ في خزينة هذا الكاتب ويضاف إلى ملايينه الموزعة في بنوك أوروبا وكولومبيا .

**

هناك حكاية معروفة تقول إن غارسيا ماركيز اتصل يوماً بصديق قديم راح يسأله عن أحواله فأخبره ذاك الصديق بأنه يعاني من الافلاس ، ولما كان ماركيز يعرف أن صديقه القديم هذا سيرفض أي معونة مباشرة منه ؛ فقد اقترح عليه أن يأتي لزيارته ، ولا مانع - كما قال ماركيز - أن تكون في جعبة الصديق القديم بضعة أسئلة تعهد ماركيز أن تنشر في اقرب فرصة ، وكان مفهوماً لدى ذاك الصديق (أن ازمته في طريقها إلى الحل) وعندما ظهر الحوار تحت عنوان (ماركيز رائد الواقعية السحرية) كان بلينو ايوليو ميندوزا - صديق ماركيز منذ

أربعين سنة - قد حصل على عشرين ألف دولار بينما حصل غابرييل غارسيا ماركيز على ثلاثة أضعاف هذا المبلغ !

إن الحوار مع القاص أخطر بكثير من كتابة القصة ، والحوار مع الشاعر أخطر عشرات المرات من نشر القصيدة ، ذلك أن الحوار سيكشف أوراق المبدع ويظهر ملامحه الخفية السرّية الباطنية أمام العيون ، وهناك العشرات من الكتاب العرب يرفضون أي حوار معهم خوفاً من أية زلة أو أي كلام يأتي في غير مكانه وزمانه .

المبدع هو الذي سيقول ، هو الذي سنقرأ ، وتكفي تلك السنوات الطوال التي مرّت علينا والتي ما كان يستفيد منها غير من جاءنا بأسئلة منسوخة مكررة يرفع منها اسم هذا المبدع ليكتب عليها اسم ذاك الدعيّ ، ثم يشتري بمجهودنا أفضل السلع المعمّرة وبسعرها التجاري .

أما نحن ، فقد لا نسمع حتى كلمة : شكراً .

**

هذه ليست رواية كما قد يظنّها البعض ، بل هي سيرتي الشخصية مع الكتابة ، منذ أول قصة قصيرة كتبتها حتى آخر رواية قرأتموها منذ شهور ، وهي أول عمل يكتبني قبل أن أكتبه ، وقد تكون آخر أعمالي وبعدها النهاية ، نهايتي ، فأنا لا أطمع بالبقاء أكثر مما بقيت ، الموت مبكراً يناسب أمثالي لئلا أطعن في السن كما جرى مع نجيب محفوظ أو محمد مهدي الجواهري أو يحيى حقي ، أريد الحفاظ على آخر صورة لي بينكم ، في الستين مثلاً ، أو أكثر من ذلك بعامين أو ثلاث سنوات على أقصى ما أتمنّى .

لا أدري - على وجه التحديد - ما هو الفرق بين تاجر جشع

وأديب إداري جشع؟ وبمعنى آخر أكاد لا أفهم كيف يصبح الكاتب أقرب ما يكون شبهاً بتاجر أو «وسيط» بين المعنى والدجل ، بين الفكرة والتدليس ، بين الابداع والسحت؟

فهذا يبيع بضاعته بسعر تجاري «أسود» وذاك يصطاد «المناسبات» الوطنية من أجل أن يتاجر فيها . . وسبحان من سيعرف الفرق بين السنارة والصياد ، أو الفوارق بين الصادق والكذاب في لعبة أزلية ، كان ، وما زال ، وسوف يبقى اسمها : الضحك على من هو ادنى مكانة منا .

أريد أن اعترف ، بأنني ساحترم التاجر الجشع أكثر مما ساحترم الأديب الإداري الجشع ، ذلك أن الأول محكوم بسفالته وقد انتهى إلى شكل ممسوخ أمام اللّه والوطن والناس اجمعين ، بينما الأديب الإداري – الذي صار يمسخ نفسه بنفسه – إنما هو اقرب إلى جحيم الربّ من ذاك التاجر المترهل السارق العنيد .

وتفسير المسألة ابسط من دروس الصف الأول ابتدائي . . ذلك أن التاجر «تاجر» ومن اسمه حسب ، لا نحتاج إلى تفسير آخر ، بينما الأمر على النقيض تماماً عندما يتعلق باديب مبدع مفكر شاعر كاتب محسوب على ملاك الوطن والوطنية وربما على ملاك النضال والمسؤولية . . ذلك أن الخطأ الذي يأتي من التاجر إنما هو محض خطأ عابر ، لكن الخطأ الذي سيأتي من الأديب لا تفسير له سوى «الجريمة» وهي بحق جريمة في حق التاريخ والابداع والجماهير ، وجريمة جانبية أخرى تشمل خداع الناس والضحك على ذقونهم وسلب احلامهم وامنياتهم ورميها في سلة الفضلات .

**

كيف ترانا سنحكي لكم القصة وجميع ابطالها على قيد الحياة والمسؤولية؟ فهذا اديب اداري لا يمنع نفسه من السفر إلى خارج العراق في المناسبات كلها ، لا فرق بين مهرجان أدبي أو مؤتمر مهني أو أسبوع ثقافي أو توقيع اتفاقية أو تبادل خبرات أو احتفال بشخصية ابداعية ، لا فرق ، سيكون هناك دائماً وعلى رأس الوفد ، دون أن يفكر – مرة واحدة – إن كان ثمة من يستحق هذه الرحلة ومن يتمكن بحق أن يبدع فيها ويستحقها أكثر منه بجدارة قد لا يملكها ذاك الأديب الإداري الجشع .

لكنه – هذا الأديب الإداري – يعمل ومنذ زمان بعيد ، تحت شعار «الحياة منافع ، إن لم تسبقها ، سبقتك» ولن يلتفت ابداً إلى قرار في المجلس المركزي ولا رأي مناقض يقال في المكتب التنفيذي ، فقد «غلبته» سطوة المنفعة الشخصية وسيطرت عليه حمى الدولارات وفروق العملة التي تكرر نعيمها عليه عشرات المرات في فترات جد قصيرة ، صار بعدها من افضل «تجار» الوسط الثقافي . . ذاك الوسط الذي لا يدري أي شيء عما يدور في الخفاء ، ولا يعلم طبيعة اسفار «الموما إليه» فهي بالنسبة له مجرد «اعمال وطنية» كما أوهمه بها ذاك الأديب الاداري الفاخر السعيد الذي لا هموم له سوى الضحك على الهموم ، والذي لا فرق – بالنسبة له – بين رجل مقتول ورجل قاتل إذا كان القتل بعيداً عنه ، وفي الوقت عينه ليس هناك من شيء غريب أو عجيب – بالنسبة له أيضاً – بين ظالم ومظلوم لا سيما إذا كان الظلم بينهما لا يؤثر مطلقاً على رحلته القادمة إلى فضاءات الكرة الأرضية .

بالتالي ليس من أحد أو شيء سيمنع عنه تحويل امواله إلى حالة

افضل ورفاه أكبر ونوم عميق بلا كوابيس ، وعلى الأدب والأدباء الف تحية وسلام .

هذا الأديب الإداري المسؤول ، الناعم ، الجميل ، لا يؤذيك بهمسة عالية ولن يرهقك ابداً بكلام عسير ، إنما يؤذي حياتك في الصميم ، لأنه يأخذ كافة حقوقك الإنسانية والإبداعية - وأمام عينيك ، وبشكل رسمي يفرضه عليك - بلا خجل وبلا ضمير . . بل يأخذها ساخراً ، ضاحكاً عليك ، أنت الذي اعطيته «فيزة» السفر إلى سرقة ماضيك واسمك وحاضرك ، وعساك تنتبه قليلاً إلى مستقبلك قبل أن يسافر فيه - وهو على جناح الطائرة التي يسافر فيها للمرة الألف - ويضحك من هناك عليك .

سامحك اللّه - أيها الأديب المبدع - على الغباء الجميل الذي أنت فيه ، وسامح ذاك الأديب الإداري الذي «اشبعه» منك ذاك الغباء الثمين .

**

هل تراني أهذي؟ ربما ، أنا عانيتُ كثيراً من هلوساتي ، عانيت كثيراً من القطار الذي يرفض التوقف في محطات افتراضاتي أو محطات رغباتي ، كتبتُ آلاف الأوراق عساني أحقق نفسي ، لكن القطارات كلها رفضت أن تتوقف في المحطة التي أسكن فيها ، واليوم بدأتُ أصدق أن الفشل كان يطاردني أينما حللت !

النساء اللواتي أحبّنني طوال حياتي ١٨٢ امرأة ، بما في ذلك الشريفات منهن والعاهرات ، هنغاريات ، رومانيات ، حلبيات ، فرنسيات ، مصريات ، وتوقف الرقم عند آخر زواج لي ، ربما اكتفيتُ بالزوجة الأخيرة ، وربما دخلتُ إلى الشيخوخة ولم أعد مرغوباً من

النساء بعد أن طرقت باب الستين من عمري ، بصراحة لا أدري ، لكنني أخدع نفسي كل يوم : أنا ما زلتُ مرغوباً كأنني في الثلاثين .

لا بد من الكذب على النفس ، فالحياة لا يمكنها أن تستمر إذا تأكد لك أن النهاية باتت قاب قوسين منك ، ما فائدة الرجوع إلى ذكرياتك ، ماذا تكسب من فيوليتا الطليانية وسينيثيا البلغارية ودراكا البولونية ؟

ولّى شبابك في غمضة عين ، كأنك لست ذاك العاشق والمعشوق ، كم يؤسفني الليلة أنني خسرت طعم الصبا ، هكذا فجأة ودون أن يخبرني بذلك أي صديق ، وجدتني في الستين وما زلتُ أحبو نحو نهدين رائعين أريد الرضاعة منهما حتى يجفّ الحليب .

– ترى هل ستأتي المرأة الحلم التي أفوز معها بالرقم الساحر ١٨٣؟ الحياة ليست سيئة إلى هذا الحد .

**

وحتى تأتي السيدة ١٨٣ رحت أقرأ في رواية (الشيخ والوسام) التي غلّفتني حتى عنقي بالأسى ، إنها بكائية عن الإنسان كتبها (فرديناند أويونو) بأبسط أسلوب ممكن ، بسيط ومفهوم وعسير المنال في الوقت نفسه ، والمؤسف في هذا العمل الجميل كثرة الأخطاء التي أساء المترجم التصرف بها ، وقد تكون محض أخطاء مطبعية .

(الشيخ والوسام) رواية قصيرة متميزة ، كتبها الروائي الكاميروني (فرديناند اويونو) وترجمها إلى العربية الشاعر الراحل ممدوح عدوان ، ورغم أن هذه الرواية كانت قد صدرت عام ١٩٥٦ باللغة الفرنسية ، إلا أنها طبعت بعد ذلك عشرات الطبعات في كافة أرجاء العالم وآخرها إلى العربية .

هذه الرواية تحكي طقوس وعادات وتقاليد بعض قرى الكاميرون من خلال شخصية الشيخ (ميكا) الذي استدعاه (المبعوث السامي) ليقلده وسام الشرف بعد بلوغه السبعين من العمر ضمن احتفال سنوي يراد منه التخفيف من احساس السود بالتمييز العنصري .

حدث بسيط كما نرى لكنه يأخذ الرواية إلى عوالم لن تصل إلينا في كتب أخرى إلا في بعض أعمال (جيمس بالدوين) .

وفي المسافة التي يقطعها الشيخ من قريته إلى مكان المهرجان يحكي الكاتب قصة حياة الناس في مساحة منسية ومهملة من الكرة الأرضية ، وعندما يصل الشيخ إلى الحفل الكبير منتظراً تقليده الوسام ، يعاني من آلام في رأسه ومعدته ورجليه بسبب الشمس التي بدأت تحرق جلده وهو ينتظر الوسام الذي لم تعد قيمته توازي الجوع والعطش وآلام الرأس التي تفاقمت عليه .

**

إنها دائماً حكاية السيد والعبد ، أو حكاية القوة والضعف البشري ترويها افضل روايات القرن العشرين .

يأتي المبعوث السامي - بعد ثلاث ساعات من العذاب - ويقلّد الشيخ وسامه الذهبي ، ثم وهو في طريق العودة وبسبب مشاركة الشيخ الحفل البهيج وشربه النبيذ المعتق بكمية كبيرة ، يسقط الشيخ (ميكا) في الطريق دون أن ينتبه إلى الوسام الذي ضاع منه وهو في أجمل حالات نشوته .

وتبدأ الرواية الحقيقية من هذا الخيط القاسي ، عندما تعثر شرطة الحاكم الأبيض على الشيخ (ميكا) وهو في أرض محرمة على السود إذ يأخذونه ويحجرون عليه بعد ضربه والسخرية منه .

وما كان على هذا الشيخ غير أن يخبرهم (أن المبعوث السامي بعث بطلبه ليقلده وسام الشرف) . . وكان هذا القول يزيدهم سخرية وبطشاً به ، حتى إذا ما جاءهم خبر بذلك افرجوا عنه وتركوه يمضي إلى قريته ، حيث كان الناس ينتظرون رؤيته مع الوسام ، فإذا بهم أمام شيخ يوشك على الموت بسبب الضرب والمهانات التي لحقته في طريق العودة .

ولعل أجمل ما في هذه الرواية ، أن كاتبها يعود بالناس والقراء فوراً إلى طباعهم وعاداتهم وطقوسهم اليومية ، اشارة إلى أن العالم مستمر على ما هو عليه وأن ما جرى للشيخ (ميكا) وما سوف يجري لسواه ليس إلا مجرد حكاية سوف تتكرر وربما تعيش القرية ما هو أسوأ منها . . لكنها تبقى حكاية مهمة عن حياة الكاميرون ، هذا الجزء الذي لا نعرف عن أدبه وابداعه وفنونه إلا القليل .

لكن الرواية انتهت ولم تطرق بابي السيدة (١٨٣) مع أنني سمعتُ طرقاً فوق مساماتي وليس من باب أفتحه!

**

سألتُ نفسي بعد الشيخ والوسام : ترى ما هي قيمة (الكتاب) بعد أن دخل بيوتنا التلفزيون والفيديو كاسيت والانترنيت وبعد أن صارت السينما وكرة القدم وركوب السيارات هاجس الصغار والكبار؟

كم عدد الذين يقرأون في الوطن العربي الممتد من الماء إلى الماء ؟ إن احسن ديوان شعر يقدمه شاعر كبير تجد «المرجوع» أكثر من نصف ما بيع منه ، وأفضل مجموعة قصصية - لمن تشاء من الاسماء - لا يباع منها في احسن الاحوال أكثر من ثلاثمائة نسخة ، وقد لا

يشتريها البعض رغبة في قراءتها إنما من أجل ديكور المنزل وغرف الضيافة .

والكتاب في بعض البيوت ، ديكور يناسب جميع الأذواق ويرفع رأس صاحب البيت أمام الموهومين من الضيوف .

ترى ماذا يجري إذا اعطينا بعضهم كتاباً من تأليف شولوخوف أو عبدالخالق الركابي أو وليم فوكنر ، واعطيناه في الوقت نفسه شريط فيديو عن آخر صيحة في الحياة الباريسية أو فيلماً عن الحياة السرية لمارلين مونرو وقلنا له «أن يختار» .

ماذا سيختار ؟

**

في القرون الماضية لم يكن ثمة في الحياة اليومية ، من سينما أو فيديو أو تلفزيون ، كانت الطبيعة والتجارب هما هاجس الأديب والمفكر . . الهاجس القوي الذي يأخذ المبدع إلى الكتابة ويأخذ القراء إلى اكتشاف الذات ، كانت هموم الكتاب والقراء مشتركة دون اتفاق مسبق ، لكنها طبيعة الحياة نفسها .

ولهذا ظهرت الأعمال الرائعة ، ذلك أن الأدب الكبير لا يأتي من المتسامرين على موائد مزحومة (بالفراغ) أو الثرثارين الذين يعرفون كل شيء (من غلافه فقط)!

الاعمال الصعبة تأتي عن تفرغ حقيقي للابداع ، من حب حقيقي للكتاب ، انهم يعيشون نظاماً صارماً ضد انفسهم ورغباتهم من أجل الوصول إلى تلك القيمة العليا للإبداع .

فهل يستوجب حرق أجهزتنا الكهربائية من أجل هذا الكتاب المدلّل؟ هل من حق الإبداع علينا أن نهرب بجلودنا من ثرثرة

الأصدقاء والزوجة وشغب الأطفال والحرب «البنيوية» الثالثة ؟

كلا ، أنا لا أقول هذا .

لا قدرة لنا على ما فات من تجارب الكتّاب القدامى ، لكننا نطمع في قليل من الوقت وقليل من التسامح مع انفسنا من أجل (كتاب) يقول شيئاً ونستطيع به أن نقول : بأننا أبدعنا .

هي دعوة صغيرة للرجوع إلى الذات ومحاكمة النفس على الوقت الذي ضاع منا وما زال يضيع بلا حساب . . دعوة مفتوحة للعودة إلى الكتاب وقراءة ما وراء الغلاف .

وليرحم اللّه من أخبرني ذات مرة وقال :

– هناك فارق كبير بين من يقرأ كتاباً وبين من يريد كتاباً للقراءة .

**

كنت أقول دائماً : إن الكاتب الجبان جريمة ، وكتّابنا بعد التصفيات العالمية والعربية والمحلية على ثلاثة أنواع فقط ، الأول يملك رأياً يكتبه على استحياء وخوف وتردد ، وربما بشيء من القوة الناقصة ، والنوع الثاني يملك رأياً أيضاً ، لكنه ينتظر من سيكتبه نيابة عنه لئلا تصاب حياته بشيء من العطب والخدوش والمتاعب ، والنوع الثالث لا يملك رأياً ، ولهذا يستر نفسه بالصمت والعزلة أو يسترها بتوزيع الابتسامات والمجاملات حماية لحاضره وفراغه وضعفه .

وهناك في الوقت نفسه ، ثلاثة صنوف في كل نوع من الأنواع المذكورة ، تشبه تابعاً يمشي خلف كل واحد منهم ، والصنوف الثلاثة في النوع الأول ذاك الذي يكتب ابداعه مع رقيب جاهز في الرأس ، أو يكتب أفكاره مع تغيير طفيف في أصل المعنى ، أو يكتب نتاجه ويبرر ما جاء من جرأة في بعض الفقرات على أنها لا تعني الظرف

السياسي الراهن مثلاً ولا تعني فلان المسؤول ربما .

بينما الصنوف الثلاثة في النوع الثاني « واعني به من ينتظرك أنت أو سواك لتكتب رأيه لئلا تصاب مصالحه بالخسارة » فهو حقاً من أسوأ الأنواع ، فهو أكثر الجميع (ثرثرة) في المقاهي والبارات ، وسوف (يعلن) عن رأيه بالثرثرة (حسب) حتى إذا ما كتب أحدهم رأياً جاء - مرة - على لسانه سيقول ان فلاناً سرق رأيه وراح يكتبه في الجرائد (يعني يتباهى بما لا يملك) وهو جاهز لتبرئة نفسه من أي عقاب ، لأنه أصلاً لم يكتب شيئاً صريحاً منشوراً أمام الناس ، وثالثاً ، هو قادر على السخرية منك أيضاً إذا ما جئت على (رأي) كان يفكر فيه ثم تبرأ منه بسبب أي تغيير يطرأ على الشارع السياسي .

والنوع الثاني - مؤسف ما سأقول - هو الشائع اليوم ، لكنه سيصبح أسد الميدان مع أي انقلاب في طبيعة الحاضر ، وسوف يكسر عظامك ويقتل اطفالك وينهش لحمك قطعة اثر قطعة ، مع أنك لم تكتب سوى ما أراد هو نفسه أن يكتبه في حينه ، لكنه قادر على كسب (التغيير) لصالحه ، وعذره يومها أن السكوت - سكوته - كان حرباً من نوع ما .

**

أما النوع الثالث ، فهو ذليل وتافه ولا يستحق الكثير من الشرح ، لأنه يختفي وراء اعذار كثيرة ومسمومة ، فقد يخبرك - أولاً - أن وحي الكتابة عاجز عن زيارته ، أو يأتي إليك - ثانياً - باعتراف كاذب ، إذ يقول كم يحسدك اليوم على نشاطك (الرائع) الذي يتمنى أن ينال بعض بعضه ، أو - ثالثاً - وتلك أسوأ الحالات ، أن يكثر من توزيع ابتساماته على الجميع ، لا فرق عنده بين بعثي أو شيوعي أو

ماسوني أو تروتسكي أو بهائي أو رجعي متطرف أو حزب دعوة أو عميل من هونغ كونغ ، فهو لا يدري لمن المستقبل ، وعليه أن يحمي نفسه ويحتمي - منذ الآن - لئلا يجرحه كلام عنيف أو تلمسه شتيمة كما العصا أو يغرقه شبر من الماء ؟؟

فكيف ترانا نخلق (ادباً) رفيعاً ، وكيف يأتي (الابداع) إلينا وكتّابنا - كما رأينا - ثلاثة أنواع أفضل من فيهم لا فضل له أبداً على تطور نتاجنا الإبداعي ، وأحسن واحد منهم يرفض أن يقول أو يكتب (بعض) ما لديه من نفور أو وقاحة مبدعة أو صراخ جميل أو - على أضعف الإيمان - بحة حنجرة كان لها (نبرة) صدق في ما مضى (كما سيقول) .

ألا يريد أن يعرف (هؤلاء) السادة أن الابداع والكتابة رسالة ومسؤولية و . . نوعاً رابعاً؟؟ أم أن (المبدع) لا شأن له بما (يرى)؟

**

في عام ١٩٧٣ سافرتُ مع الراحل منهل نعمة المهدي إلى بوخارست ، وبرغم سمرته الطاغية كالسواد ، جذب النساء إليه كالمغناطيس ، وأيقنتُ في رومانيا أن الوسامة لا تكمن في حلاوة الملامح وحدها ، فأنا مع تلك المقاييس أكثر وسامة منه عشرات المرات ، لكنه (كوّش) على الحسناوات من كل جنس ونوع ، إيرانية من مدينة قُم ، هولندية في غاية الحسن والدلال من أمستردام ، وبلغارية من صوفيا ، يرقص ويشرب الخمرة ، يضحك ويدخن السجائر ، يسفح الهدايا بلا حساب ، ورحتُ إلى مقهى كاتانكا ذات يوم ، إذا به محاط بأربعة صبايا واسمه يتكرر في أرجاء المقهى كما لم يتكرر كازانوفا من قبل !

- ماذا تفعل يا منهل حتى ينهمرن عليك كما المطر ؟

قال لي وقد جلستُ بينهم :

– أنا نفسي يا عمّار لا أعرف السبب ، حتى أن هذه الرابعة جاءت من بودابست ولا أعرف اسمها حتى الآن !

ليس من لغة تجمعه بهن ، اللغة اشارات مفهومة فقط مع بعض المفردات بلغات عالمية مفهومة أيضاً ، أما فوق فراش الملّذات فليس من حاجة به إلى الكلام ، هناك أشياء تحكي بدلاً عنا .

**

منهل نعمة كان شاعراً بارعاً ، لو أنه عاش ولم يقتل على يد النظام البعثي ، لكان اسمه فوق مئات القصائد الرائعة ، وأنا اليوم أتمنّى حقاً لو ينقلب احساس الكرة الأرضية على نفسه وأن يتغير اتجاه مدارها عكس الزمن المعقول ، حتى يرجع منهل نعمة إلى الحياة ، وعساني أنا أيضاً أرجع صوب بداياتي ، بل صوب طفولتي وصباي وشبابي قبل أربعين سنة مضت ، وسوف أمنع نفسي حينها عن أشياء كثيرة ، سوف أصنع من حياتي ما أرجوه الآن لها ، بعد أن اكتشفت نوع العيوب في سلوكها ونوع الأخطاء في طبائعها القديمة .

ساتخلى فوراً ، وبلا ندم كبير ، عن مهنة الكتابة ، لن أفكر فيها أبداً ، سوف أختار الطب أو الهندسة المعمارية ، أنا أحب أن أكون طبيباً للأطفال واحب أكثر أن أكون طبيباً للنساء أو مهندساً اخطط البيوت والعمارات التي تناسب روح العصر .

لن أترك القراءة طبعاً ، فهي أساس المهن كلها ، إنها تعطيك قوة خاصة تضاف إلى قوة الجسد ، أكاد لا اتخيل بيتي خالياً من الكتاب ، فهو أفضل متاع في الدنيا بعد الحب .

إذا كان لا بد أن أكون أديباً – إذا ما رجعت إلى بداياتي – سوف

احذف أشياء كثيرة ، اتفرغ للقصة القصيرة والرواية فقط ، وامنع نفسي من الحروب الصغيرة مع انصاف المبدعين ، والتي دخلت غمارها واحترقت بنيرانها تحت ضغط النفاق والحسد ، واصبحت (محامياً) لمن لا يستحق الدفاع .

**

جميل وخارق ونادر أن يعود الإنسان إلى سنوات ابداعه الأولى ، واعتقد أن الاعتراف بعيوبنا مسألة رائعة ، لهذا ساعترف بأنني اتمنى وارجو اليوم حذف العديد من قصصي المنشورة واعادة كتابة بعضها الآخر ، واختصار عدد الكتب التي صدرت لي ، لكنني ساحتفظ - بحب جنوني - باجمل قصصي التي نشرتها تحت عنوان (الحب رمياً بالرصاص) و(لا تسرق الوردة رجاء) زائداً كتابي (السفر إلى الحب) والذي نشرته في بغداد بعد قصصي العزيزة جداً (نساء من مطر) والتي غابت عن عيون القراء بعد ثلاثة شهور على صدورها !

أما عن رغباتي في إنجاز شيء ابداعي متميز غير الذي انجزته طوال ٤٠ سنة ، فهو امنية قديمة لا أدري ان كان قد فات أوان تحقيقها ، وهي أن اكتب رواية عن حياة عائلتي ، بالذات عن أبي الذي عاش حياة جد غريبة وطريفة ، حيث انتقل بين المهن الحرة (عشرات المهن الشعبية المشهورة) بينها ومنها ايام كان يعمل (طباخاً) عند الباشا نوري السعيد ، ثم (بلاماً) بين الكرخ والرصافة ، وغيرهما من المهن التي ربطته بنماذج كثيرة من البشر ، كما أنه سافر إلى عدد كبير من المدن البعيدة وعاش ثمة اعواماً في الهند وإيران وتركيا ، وكان (مقامراً) من الطراز الذي يخسر دائماً .

**

إذا تحقق لي يوماً أن اعود إلى بداياتي في الكتابة ، سوف أباشر في كتابة هذه الرواية ، وأنا على يقين أن عنوانها سيكون (مملكة الطاطران) وهي المحلة أو الزقاق الذي كنا نسكن فيه قبل ما يزيد على خمسين سنة ، فهناك بدأ أول احساس عندي بالكتابة ، وأيضاً ، بدأت هناك مجسات الشعور بما يفعله أبي في حياته اليومية المتشعبة الغريبة ، إذ كان يأخذني معه (وحدي) إلى المدن التي يسافر إليها ، كما أنني الوحيد الذي (اطارده) بين ازقة الطاطران وباب الشيخ وفضوة عرب وشعابها ، أرى ما يفعله أبي (سراً) فقد كنت أعمل يومها (جاسوساً) لوالدتي ، وكان حبي لها أكبر من حبي لأبي ، إذ اكتشفت ذات مساء ، وأنا في التاسعة من عمري ، أن أبي (متزوج) من ثلاث نساء قبل أمي ، وأن هناك عشرة من الأطفال غيري ينادونه (بابا) .

بصراحة ، كان هذا الرجل العجيب الذي صار أبي ، هو أفضل ابطال قصصي ، وقد كتبت عنه الكثير في قصصي الأولى (الرغبة في وقت متأخر) و(فوق الجسد البارد) عام ١٩٦٩ لكن الرواية التي افكر فيها ستكون شيئاً آخر ، من يدري ، ربما أبدأ بها بعد قليل .

بهذه الطريقة سانقذ نفسي تماماً من شتائم انصاف المبدعين واتركهم (على باب اللّه) فقد بدأ البعض يذهب إلى عمله ، وآن الوقت الذي يصرخون فيه لترويج (بضاعتهم) ! .

برغم ذلك ، أعني برغم بعض الجروح التي شقّقت جلدي بين عام وعام ، ما زلتُ أتذكر ما كتبته عني (رشا فاضل) في التاسع والعشرين من أيلول ٢٠٠٥ تحت عنوان طريف ، هو (حضور مكثف رغم الغياب) على موقع (كتابات) دون أن تدري بأنني أصبحتُ في

آخر الركب (تكنولوجياً) وأن الفأر الذي يصول ويجول على شاشة الانترنيت لا يخافني ولا يعبأ بي ، بل أحسّه يضحك من بلاهتي ومن عنادي في عدم الدخول إلى هذا العالم الشاسع اللاّمتناهي العجيب .

عزيزٌ على قلبي ما كتبته عني تلك الغزالة الجامحة ، الصريحة ، وبما أنني اكتبُ سيرتي على ضفاف الورق ، أرى النوارس تصدح بين الحروف ، لا أعرف ما تقوله النوارس طبعاً ، لكني قرأتُ رشا فاضل وكم أسعدني ما قالته عني من كلام كبير قد لا أستحقه بعد ، كتبت تقول :

لاسمه ذلك العبق الخاص الذي يرافق كل ما يمت للحب من طقوس تبتدئها الأماكن وتظلّلها الكلمات ليظل عطرها حاضراً في أدق تفاصيل الذاكرة وأكثرها سرّية .

أعترف أيها السادة ، إني أصغر من أن أكتب عن هذا (الكبير) الذي أخذ بيدي وعلّم أصابعي كيف تمسك بالقلم وكيف ترسم بالكلمات الخرائط السرّية للقلب ، دون أن يدري . .!

وعلى الرغم من غيابه واغترابه ، ما زلت أجده حاضراً بشقاوته ، بنزقه ، وطفولته التي تجاوزت الأربعين أو الخمسين .

ما زلت أذكر ملامحه جيداً حين رأيته لأول وآخر مرة في أحد المهرجانات الثقافية التي اقامتها الجامعة ، كانت ملامحه تشي بالكثير من الطفولة رغم شعرات رأسه البيض التي أضافت له طفولة استثنائية أخرى ، قلت له مشاكسة ومتحدية بعد انتهاء الحفل (احفظ اسمي . . لأن كتبي سوف تزاحم كتبك في المكتبات!!) فأجابني بابتسامة كبيرة (يكفي أن تضعي صورتك على الغلاف ، لا

داعي لأن تكتبي اسمك!!) .

لكم أن تتخيلوا معنى أن يطلق هذا الكاتب الكبير دعابته هذه بوجه امرأة أو مراهقة حفظت حتى الفارزة والنقطة في أوراقه العاشقة . .!

ما زالت تلك الكلمات العابرة متقدة في ذاكرتي النحاسية ، وما زلتُ أستحضر بشغف وسط هذا اليباس المحيط بنا والمهيأ ليقتات علينا حلماً تلو آخر ، أوراق هذا الرجل العاشق وأستجدي أمطاره النبوية لتغسل عن وجوهنا يباب الحروب وغبار البارود .

نعم إني أبحث عنه في غيابه العسير الذي طال أمده ، وأوجه له دعوة خالصة وحقيقية حدّ الصراخ أن يعود إلينا عاشقاً . . منتصراً أو مهزوماً ، ليتلو أمام أحزاننا وخيباتنا تراتيله العاشقة . . أملاً في مساء ماطر لا تطرزه (المفخخات) أو يخترقه الرصاص .

أدعوه باسم كل قرّائه وعشاقه (وأنا واحدة منهم) أن يلج هذه الشبكة العنكبوتية كي يعيد للكلمة هيبتها واتزانها بعد أن صادرها الدخلاء الموهومين والمتطفلين عليها ، ولكي يلغي بحضوره كل كتّاب الدرجة العاشرة ويهيل على ذاكرتنا الموشكة على التصحّر أمطاره المضمخة بعبق دجلة . . ورائحة الآس المنتصب في الشرفات الأنيقة المحدقة بوجه دجلة وأبي نؤاس حباً . . وشغفاً . . وانتظاراً .

**

مع أنها غمرتني بالسعادة ، ما زلتُ حتى اليوم أتساءل لماذا نكتب؟ سؤال قديم ، لكنه ما يزال يستيقظ في رأسي بعد كل قصة قصيرة وبعد كل رواية يكتبها أقراني أو اكتبها أنا ، لماذا نكتب؟ ماذا ستفعل هذه القصة المسكينة أو تلك الرواية التي نزداد بها افلاساً

على افلاسنا؟

هل ثمة (هيرمان هسه) بيننا؟ هل يمكن أن نأتي بـ(ميلان كونديرا) أو (هنري تروبا) أو (ماركيز) آخر إلى منازلنا؟ منذ عشرات السنين ونحن نقرأ ونكتب بلا هوادة ، نسابق بعضنا في هواء رطب أصاب أجسادنا بروماتيزم المكابرة وعطّب جلودنا بقروح الكذب الجميل الذي نقوله ونكتبه أيضاً ، وبرغم ذلك لم يظهر بيننا أي فرانز كافكا ولا أي جان بول سارتر ، بل راح المئات منا ، وبثقة عمياء مضحكة ، يسخرون من (ديستويفسكي) وبلاهة (غونتر غراس) وسطحية (كولن ويلسون) والسنوات تمشي هنا كما تمشي هناك ، وأبواب المعرفة مفتوحة في كل شبر من الأرض ، لكن سيظهر بينهم هناك (ميغيل آستورياس) وكذلك (جراهام جرين) ولا أحد منّا يجرؤ يا رشا فاضل على مجرد الاحساس بالمساواة معهم أو المنافسة أمام أصغر واحد منهم .

لماذا نكتب إذاً؟ ومن أجل ماذا ؟

خذ مثلاً (سد هارتا) ذاك البطل العجائبي المقدس الذي جاء به (هيرمان هسه) وانظر إلى خيوط المعرفة ، ومن ثم كنوزها ، ناهيك عن اسلوبه المتميز البهي ، تعال معي إلى (الحب في زمن الكوليرا) وراقب مرور السنوات ونمو عشب التقاليد وطلاسم الشيخوخة وتسرب ماء الحياة إلى أجمل عشاق الدنيا وهما أقرب ما يكونان من شفير الموت ، واسأل كيف تراه – غارسيا ماركيز – كان يكتب هذا العمل الساحر ؟

**

مئات الكتب الجبارة في مضامين عسيرة المنال ، ازمنة تطارد أفكار المبدعين ، يركض خلفها الكاتب قبل أن تسبقه وترميه أرضاً ،

هناك قضية كبرى تزاحم العقل والارادة معاً ، هي التي ستحكي (الرواية) وتكتبها لتصبح كتلة النار التي نهتدي بها إليها ، فهل نملك نحن (قضيتنا) العليا لنكتب عنها أونطارد زمانها ونجلس في خيمته؟ من منا يعيش طقوس مبدع اصيل من نمط (شولوخوف) ليكتب (الدون يجري هادئاً) أو طقوس (كونستانتان جيورجيو) ليكتب ملحمة (الساعة الخامسة والعشرون) .

لا أحد بيننا سيكتب عملاً بهذا المستوى ، ولن نتمكن من ردم المسافة بين الموظف والمبدع فينا ، تلك المسافة الشرسة التي نعاني من سطوتها منذ مئات السنين ، وسنبقى نعاني من فقرالتجربة ومن قلة زاد المعرفة إلى زمن بعيد ، ولن أذكر طقوس الكتابة مرة ثانية ، لأنني أعرف أن الكاتب العراقي لا طقوس له ، ذلك أن لا طقوس للفقراء ، لأنهم مرغمون على المكان الذي يأكلون ويكتبون وينامون فيه ، بينما الكتابة في الابداع ستحتاج إلى شيء من الرفاه واختيار المكان الذي يناسب العقل ، تحتاج إلى الكثير من التجارب والاسفار والحركة بل والنضال من أجل حياة افضل .

وحتى ان توفر هذا كله ، لن نحصل على (وليم فوكنر) أو (همنغواي) أو (دينو بوتزاتي) قبل مرور وقت سيطول بانتظار أن (تختمر) روح تلك التجارب ويأخذ المكان الذي سنعيش فيه تأثيره علينا ، وسوف اعطي مثلاً عربياً على ذلك ، الكاتب المبدع (عبدالرحمن منيف) الذي اختار بنفسه (العالم) الذي يناسبه وجاء (باريس) من أجل أن يكتب (مدن الملح) في خمسة اجزاء كبيرة لتصبح واحدة من افضل الروايات العربية .

ومثال عربي آخر ، هو الكاتب (نجيب محفوظ) الذي يمارس – منذ

خمسين سنة أو تزيد – طقوساً في الكتابة لم ينقطع طوالها عن اختيار الوقت والمكان والموسم الذي يناسبه ، وكان قد (تفرس) في الزقاق المصري وعاش فيه وله اصحاب بين شعابه واسراره وماضيه ، وقد اخذه الزقاق إلى اكاديمية السويد ونال (حقه) في أكبر جائزة عالمية .

فهل يملك كاتبنا طقوسه وتجاربه؟ هل تراه – عبر العشرات من اعوام الكتابة – تمكن أن يختار المكان الذي سيكتب فيه؟ وهل تمكن أن ينقذ نفسه من ورم الوظيفة ومن كابوسها الانيق؟ كم هو طول المسافة التي يقطعها المبدع بين طفولته وشيخوخته ، وماذا تراه كان يفعل فيها غير ما يفعله أي كائن آخر لا إبداع له ولا استثناء في شخصه؟ إن المبدع العراقي (مظلوم) من الطراز الأول ، وأول من ظلمه هو المبدع نفسه ، ويأتي بقية من ظلموه في الدرجة الثانية .

**

في العاشر من كانون أول عام ١٩٨٥ سألتني سحر حجار لماذا تكتب يا عمّار ، فقلتُ لها دون أن أتأمل السؤال ، فقد كنت حينها مشغولاً بحسنها وأناقتها وقوامها الباسق مثل نخلة من نخيل العشّار :

– من سوء حظي أن هذا السؤال أجاب عنه أربعمائة أديب عالمي وعربي ، وقد قال جوابي الذي سأكرره الآن ، المبدع العظيم (غابرييل غارسيا ماركيز) . . أنا أكتب حتى يحبني أصدقائي ، وأنا أكتب حتى أكون أكثر قرباً من أحبابي ، وكلما رأيت نظرة اعجاب من صديق أشعر أنني أملك نصف الدنيا ، أما إذا جاءت النظرة من حسناء مثلك فقد صارت الدنيا كلها ملك يدي ، أنا يا سيّدتي أكتب حتى أرى نفسي في عيون الناس وبخاصة النساء الجميلات .

**

أما عامر حسن فياض فقد سألني في الخامس من شباط عام ١٩٨١ عما أعطته لي تجارب السفر ، فقلت له وأنا أتذكر آخر رحلة لي نحو روما ومدريد :

– للسفر لغة خاصة وجمال خاص ورائحة عذبة ، هناك بين زعيق القطارات وزحام السيارات والبشر ، وطرب الطائرات ، ودلال البواخر ، رأيت الكثير من خفايا نفسي وخفايا النفوس ، لعل أجمل قصة كتبتها في حياتي والتي عنوانها (النورس في مدريد) ما كان لها أن تكتب دون تجربة السفر التي قمتُ بها من بغداد ، إلى دمشق ، إلى بيروت ، إلى الاسكندرية ، ومنها أبحرتُ إلى نابولي ، ثم مارسيليا ، وبعدهما نزلت في برشلونة ، ومنها صوب مدريد الجميلة على ظهر باخرة عملاقة ما يزال طعم اسمها (كرادنيس) تحت لساني ، أبحرتُ فيها أكثر من سبع ليالٍ وثمانية نهارات ، تعلّمت في تلك الرحلة أشياء كثيرة لم تستطع عشرات الكتب أن تمنحني إياها ، وما يزال جرثوم السفر يطاردني ، وقد يبقى في جسدي ومساماتي حتى آخر لحظة في عمري ، وإذا كان لي أن أقول شيئاً لكاتب جديد ، سأقول له : أن يسافر أولاً وأن يقرأ الكتب بعد ذلك .

**

لماذا تكتب؟ لماذا تسافر؟ تتكرر تلك الأسئلة في كل حوار معي ، وليس مستغرباً أن يتغيّر جوابي بين حوار وحوار ، بحسب البلدان التي أرحل نحوها ، وأيضاً بحسب مزاج آخر ساعة اكتب فيها .

4

الراقصة شوشو

أشعر بالذل والخيبة في كل مرة أتسلّم فيها مكافأة من جريدة أو مجلة ، وأقرر عادة أن لا أكتب شيئاً بعد ذلك ، وفي كل مرة أذهب فيها لتسلّم مكافأة عن قصة أو مقالة ، أصطحب معي شخصاً أو صديقاً بسبب احباطي وخجلي من دنانيرها التي لا توازي تعبي فيها ، فالمكافأة يجب أن تأتي إلى بيتي أو مقر عملي وليس أنا من يذهب إليها ، وهناك مثال معروف هي (فرانسوا ساغان) والتي تعتبر برأي النقاد ، كاتبة من الدرجة الثانية ، بالنسبة لأوروبا طبعاً ، تحولت إلى مليونيرة بعد الطبعة الثانية من روايتها (مرحباً أيها الحزن) بينما الكاتب العراقي سيكون مديناً مائة ألف دينار لو طبع ثلاثة كتب من أعماله ، وهذه تشمل العرب أيضاً ، باستثناء نجيب محفوظ الذي ذهب إلى السينما وكتابة السيناريوهات لتغطية نفقات معيشته قبل فوزه بجائزة نوبل .

يوجد ما يشبه القانون بين الكاتب الأوروبي والأميركي والمكان الذي ينشر فيه (جريدة أو مجلة) على دفع مبلغ مقالته (أسبوعياً أو شهرياً) وليس على طريقة الصحف والمجلات التي ننشر فيها (هنا) .

في أوروبا هناك مبالغ طائلة مخصصّة لكتّاب معيّنين يتعاونون مع أماكن النشر ، خُذ مثلاً سومرست موم ، كان عنده مقالة أسبوعية في إحدى الصحف يتقاضى عنها مبلغاً سنوياً ولا يحق له النشر في مكان آخر . . والمعنى في ذلك ، هناك احترام للكاتب من قبل الصحف والمجلات ، وهو ما لم ولن يتحقق عندنا حتى بعد خمسين سنة .

**

جمعتني مائدة واحدة مع شلة من الأدباء العرب على نهر النيل ، وبعد أن انتهينا من آخر احداث الساعة ، وأبرزها ما جرى للفنان أحمد زكي وسعاد حسني مروراً بالراقصة شوشو التي كسرت باب العمارة عندما رأتها مغلقة في الثالثة صباحاً ، وجدنا انفسنا أمام ازمة الكتاب العربي الذي ضاع في زحام البحث عن لقمة العيش ، وكيف أن أقرب الناس إليه قد أهمله على باب الجامع لعل أحد المحسنين يلفّه ويحميه من البرد والجوع .

يومها كانت مقهى ريش - أشهر مقاهي الأدباء في العالم العربي - قد أصبحت مقهى للأغنياء والسياح وفارقها أدباء مصر ، لكن المقهى في الوقت نفسه راح يعلّق صور الفنانين والأدباء المصريين الذين فارقوا الحياة ، مما دفع بالروائي الراحل نجيب محفوظ أن قال حينها :

- مقهى ريش ترحب بالموتى من الأدباء بعد أن طردت الاحياء منهم إلى الأبد .

وفي سؤال طرحته على صاحب مكتبة شهيرة ، عن عدد النسخ التي تباع من أفضل ديوان شعر فقال باعتزاز (إنها تصل احياناً إلى

عشرين نسخة)! . وكذلك الأمر مع الكتب النقدية والقصصية ، ولكن بزيادة خمس نسخ وربما أكثر!!؟

ولم يبق أمامنا في تلك الجلسة الهادئة غير العودة إلى مأساة الراقصة المسكينة شوشو التي اضطرت إلى زيادة (بقشيش) بواب العمارة من أجل انتظارها حتى رجوعها من العمل . . ولم يكن البقشيش أكثر من ثلاثين جنيهاً فقط . . ولهذا السبب تجد البواب يقرأ ، ويقرأ ، حتى بعد منتصف الليل! . .

**

ما يزال البعض من المؤلفين ينظرون إلى الكتاب على أنه منصب اجتماعي وكرسي هزّاز وراء مكتب من خشب الأبنوس ، وكلما ازداد عدد المؤلفات تزداد معه فخامة النظرة إليه ورفعه عالياً فوق الأعناق!

ومن هنا تزداد الرغبة اشتعالاً لاصدار حفنة من الكتب تفتقر احياناً إلى ابسط دلالات الابداع ، وأكثر تلك المؤلفات نكبة وخطورة على واقع الأدب هي المجاميع القصصية والروايات ودواوين الشعر . . فهذا (قاص) مولع بكتابة القصة القصيرة ، وهو على حق في هذه المحبة ، لكن جمع القصص كلها - دون تمييز في مستواها - ونشرها في مجموعة مستقلة مسألة مختلفة ، إن عليه اختيار القصة الاستثنائية التي تستحق أن تظهر في كتاب مستقل ، لكنه من أجل كتاب آخر ، يخطىء في حق نفسه كما اخطأ في حق ابداعه .

وذاك روائي اصدر في عام واحد ثلاثة اعمال (روائية) . . نعم في عام واحد فقط ، ثلاث روايات لم يفكر في قارىء أو ناقد أو متابع لها ، ما يهمه أن يزداد رصيد الكتب في سجلات المكتبات لا سيما إذا اخذها معه وهو ينجز عملاً في دائرة ما ، سينظر إليه على أنه

(روائي) فعلاً ، فهل كانت الكتابة (وجاهة) وظيفية اجتماعية وهل صارت الكتب درجة ترفيع؟!

وكم ديوان شعر ضاع من ذاكرة القراء ولم يلتفت إليه أحد ، لكن اصحابها في قمة وجاهتهم الاجتماعية؟

الا ينبغي رسم الخط الفاصل بين (ابداع) و(كلام مكتوب)؟

نعم ، المسافة بين الابداع وبين كل ما هو غير ذلك معروفة جيداً ، لكن ما يخيفك اليوم أن الجميع أعضاء في المؤسسات الثقافية والأدبية على حدّ سواء .

والغريب في الأمر أن نسبة حقوق غير المبدعين في الحياة العامة صارت أكبر حجماً عشرات المرات من حقوق المبدع الاصيل . . فهذا الكاتب الطارىء على الابداع يملك بين يديه ما يجعلك - أنت المبدع - بحاجة إليه ، بل تطمح أن تنال نصيباً من رضاه . . هو يملك ماكنة النشر وجواز السفر ، هو يملك تصدير الاسماء وطرد الاسماء ، وأنت المبدع لا تملك غير الصبر والكتابة والسكوت .

لقد صعد البعض منهم على حفنة من الكتب الرديئة التي تمكن من نشرها ، وصارت تلك الكتب تعطيه من حجمها طولاً وترفعه عالياً بعد أن امتطاها كما الحذاء .

من هو المسكين هذه الأيام ، الكتاب أم الكاتب؟ من هو الخاسر اليوم ، الابداع أم المبدع ، ومن ترى يعرف الجواب ، ثم من يستطيع أن يكتبه وينشره ويناقش فيه؟

**

في عام لا رأس له ، جاءت أوامر عليا بضرورة طبع ألف كتاب في سنة واحدة ، كيف؟ لا أحد يسأل ، لا أحد يمكنه أن يعترض ، ألف

كتاب دفعة واحدة ، والبلد خربانة ، هاجر عنها وتهجّر منها المئات ، فكيف ومن أين نأتي بالعقول حتى نطبع ألف كتاب في عام واحد؟

كم كانت مربكة وخطيرة تلك السنة البوليسية ، وكم كان مرعباً أن يأتيك أمر لا يمكنك حتى مناقشته مع نفسك ، انهم يقرأون أفكارك إذا ما قلت : كلا ، هذا لا يمكن ، وسوف يأخذونك إلى (هناك) ولن تعود .

في رواية (حرب العوالم) للكاتب هـ . ج . ويلز ، يقول كائن المريخ : إن أهل الأرض في صراع مكثف مع أنفسهم ، وأعجب ما في هذا الصراع أنهم لا يعلمون به ، وأرى بوضوح أن الحال نفسه يتكرر مع العقول الباردة التي لا تفهم معنى ألف كتاب في سنة واحدة في بلد منخور من أعلاه إلى أسفله ، لا سيما بعد هجرة المبدعين إلى خارج الجحيم .

إن زمن الكتابة والنشر السريع بأوامر عليا بلهاء ، كان قد أجهز تماماً على زمن القراءة والبحث والتأمل ، نريد منك كتاباً لطبعه فوراً ، لكن ذلك يحتاج إلى عامين أو عام واحد على أقلّ تقدير ، أمامك أسبوعين ، رواية ، قصص قصيرة ، حتى إذا كانت منشورة في كتاب سابق ، والكتابة هنا بمعنى أن تمسك القلم وأمامك أوراق بيض وما عليك غير حشوها بسرعة ، المكافأة ستكون أكبر مما تحلم ، عندنا أوامر بالصرف ، وهناك حوافز أخرى ، وهكذا جاءت الكتب ، يسمونها كتب والسلام ، المهم أن نطبع ألف كتاب في عام واحد ، كلا ، ممنوع الاعتذار ، نحن في حالة حرب مع الزمن ، هيا ، اكتب ، اكتب .

المعلومات مفيدة (في المقاهي) ويمكن أن تكون كذلك عند الكتابة ، كلمات من (جان بول سارتر) على كمية افكار منسية من

(ادموند ويلسون) مع قليل من بهارات (الكتب المقدسة) اضف عليها بعض الهوامش من هنا وهناك ، بشرط أن تكون المعلومات على نسق واحد محبوكة بحرفة (معلم) يفهم املاء الدروس . . وسوى ذلك ، من يدري إذا ما اكتشفوك وأنت (تحكي) كيف تكون الحال ؟

**

هذا (صراع) من نوع آخر مع النفس ، والمصيبة الكبرى هو (أنهم) لا يعلمون به ، صراع ضد الحقيقة وضد الفن وضد الابداع ، يتم خفية أو علانية ، مع ابتسامة (حلوة) تبرر السلوك الذي يخفي رائحة الجريمة .

وإذا انتقلنا من تلك الخريطة ، وبدأنا النظر في حدود ما يظهر امامنا في الصحف والمجلات سنقع على حال آخر مزحوم بالوهم ، ولا اقول «الادعاء» ذلك أن «الوهم» يطغى على حياتنا زمناً اطول مما يفعله الادعاء . . انني اقرأ - منذ وقت بعيد - مقالات وقصصاً وقصائد وروايات لم استطع الوقوف عند نموذج منها ، إنها تضيع منك حال مرورك عليها ، ولن تخسر أي شيء إذا ما فات زمن هذه المجلة أو ضاع منك العدد (كذا) من تلك الجريدة ، ثم اتذكر جيل الستينات فوراً ، تلك القصة التي كتبها (س) وتلك القصيدة التي كتبها (ص) والحفاوة (الروحية) بما كان من ادب ونفور ونوازع وصراعات ونقاش وابتهال وانتظار لقصة اخرى وقصيدة سيكتبها (ن) في زاوية من المقهى .

**

لا اقارن ، لا وقت ولا مكان للمقارنة ، كل جيل بما لديهم فرحون ، ويبقى وجه الأدب نقياً مهما اختلف الزمان والمكان ، لكن

بشـرط واحـد : أن نقـدس مـا نكتب وننظر إليـه على أنه عطاء من السـماء وموهبـة منزوعة من تحت تراب الأرض ، ذلك أن الكتـابة في الشعر والقصة ليست أقل اهمية ابداً من الزراعة والمطر وبث الروح في الجسد الميت .

هناك كتابات لا تمس الجلد ولا تغوص إلى الداخل ، لا تعني أي شيء ، تراها امـامك يومـاً بعـد يوم من دون أن يكف اصـحـابهـا عن (الوهم) الذي هم فيه يسرحون ، فـهل ترانا نعيش حالة من الثقافة الباردة التي لا تريد الوصول إلى أحد؟ كيف نفسر ضياع الوقت والورق وقـدسـيـة العـقل الـذي يلعـبون به؟ ثم ، لماذا نكتب إذا لم تكن ثمة (فكرة) أو حتى (خطوة) قـصـيـرة ابعـد من خطوة سـابقـة؟ أعني مـا أهمـيـة أن نكتب من دون أن نصل بهـذه الكتـابات إلى (هدف) أو (أحـد) أو (غـاية) أسـاس؟ هل كـانت الكتـابة هكذا أيام «توفـيق الحكيم» و«طه حسين» و«عبدالملك نوري» و«يوسف ادريس» و«يحيى حقي» و«نجيب محفوظ»؟

وكما أن (الزمن في العلم لا يدوم) كما يقول (نوفيكوف) كذلك لا يمكن دوام زمـان هذا الصنف من الكتـابات . . إنهـا مـجرد خطأ في ممرات حـيـاتنـا ، مـحض مـحـاولات لتـثـبـيت الذات على حـسـاب الحقيقة ، ومن المؤسف أن تسقط تلك «الهالة» الجميلة المقدسة عن رؤوس المبدعين بسبب هذا النمط الطارىء على الحياة بدون رادع قوي يوقف قطار المهزلة . وانها - بحق - مجرد لعبة أن يستمر (فلان) في الكتابة هنا وهناك وأن يعاندنا السيد «فلان» الثاني في نشر افكار لا أفكار فيها ، حتى إذا ما مرّت بنا اخف الرياح ضاع من بين ايدينا كل ما قرأنا وصار علينا أن ننتظر سكون العاصفة حتى يعتذر كل واحد

منهم عما جنى في حق الإبداع .

وهكذا ، تمكن الطغاة من تحقيق ألف كتاب تافه ، صارت هذه الكمية فيما بعد طعاماً للجرذان والدود ، وقد عاش الديدان والفئران عيشة سعيدة حتى جاء الصباح وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح .

**

بعد هجمة البلاهة والرعونة التي عشناها مع ألف كتاب في سنة واحدة ، أرى أن الكتاب في بلادي يحتاج إلى رصاصة الرحمة ، حتى ننتهي من خداع أنفسنا في الديرة التي عافها أفضل مبدعيها .

لم يكن ظهور نجم أدبي معزولاً عن الحالات السياسية وعن الرقعة الجغرافية ، فهذا الظهور والمجد والشهرة ، يرتبط مباشرة بسلوك وطبيعة الوطن الذي يعيش فيه المبدع ، وأنا ما زلت أعتقد أن نجيب محفوظ إذا ما ترعرع في بلد آخر سوف يموت اسمه ، وكذلك الحال مع سارتر إذا ما نشأ خارج فرنسا ، ذلك أن قيمة الإعلام توازي أحياناً قيمة الكتاب ، ولن يظهر بعد مائة عام كاتب من الكويت أو مسقط أو العراق أو سوريا أو السعودية أو اليمن يمكنه الفوز بجائزة نوبل ما دام لا أحد يترجمه أو يعبأ به ، بل ترى في الكتابة عنه أو نشر خبر عن مؤلفاته ما يشبه الصدقة في شهر رمضان .

إن أفضل شاعر عراقي ، في أفضل حوار أدبي معه لن يكتب اسمه إلا بحرف ناعم لا يرى بالعين المجردة ، وإذا ما ظهرت (صورته) مع الحوار سوف تحتاج إلى أكثر من شاهد حتى تصدق أن هذه الصورة هي للشاعر نفسه !

وإذا ما قرأت لقاءاً مع كاتب قصصي معروف في مستوى جليل القيسي وموسى كريدي وعبدالرحمن مجيد الربيعي سترى نفسك

أمام أصغر حروف الدنيا ، بلا تزويق للصفحة وبلا هوامش جمالية وبدون اشارة معقولة إلى قيمة الكاتب . . لماذا ؟

ألا يستحق المبدع إلى شيء من الرعاية أو لمسة حب لماضيه الإبداعي الممتد على بحر سنواته الطوال ؟

هل ترانا نخجل أن نعطي مساحة أكبر - بقليل - إلى شاعر تصفق له الملايين في أرجاء المعمورة؟ هل ترانا نحارب كاتبنا عندما نواجه به خارطة الدنيا ؟

وإذا ما رأينا سوانا من كتّاب الدنيا وهم يطلّون علينا باحجام توازي احجامهم الحقيقية على صفحات المجلات والصحف الأدبية ، ألا نسأل أنفسنا : لماذا هم هكذا ولماذا نحن بلا رصيد حتى من أقرب الناس إلينا ؟

والأمر نفسه مع الكتاب الذي يصدر لأي واحد منا ، فهو يمضي إلى جحور النسيان فور صدوره ، ثمة اتفاق على (قتله) في مهده بلا شفقة . . أنا عندي ما يزيد على ثلاثمائة كتاب عراقي لم يكتب عنه إلا مجرد خبر هنا أو خبر هناك ، وفيما غير تلك الأخبار - الموجزة جداً - لا شيء يوحي للقارىء أن ثمة كتاباً قد رأى النور ! .

**

الكتاب كائن عجيب لا يشبه بقية الكائنات ، لكنه أكثر حياة وأطول عمراً من الأحياء جميعاً ، ويستطيع هذا الكائن بطبعة ثانية وثالثة أن يعيش ألف سنة ، وإذا كان عظيماً ونافعاً واستثنائياً ، يمكنه أن يعيش ألف سنة ثانية ، فهو الحاكم الذي يعشق أحكامه ملايين البشر ، وهو المحكوم الذي يخاف على حياته ملايين البشر .

إننا نحتفل كل عام بعشرات المناسبات المؤثرة ، عيد نوروز ، عيد

الحب ، عيد المرأة ، عيد الصحافة ، وأعياد المسرح والسينما ، وغيرها ، ألا يستحق الكتاب أن نخصص عيداً له وهو أفضل أغنياء الدنيا وأغنى عباقرة العالم؟ ألا يستحق هذا الكائن الجميل أن نحتفل به كل عام ونعطي بسببه الجوائز ونكرّم كل من ساهم في زيادة نسله وأحفاده؟ إنه عيد للأرض وما أنجبت ، عيد للإنسان بما حمل ، وهو عيد للنصر على البلاهة والحقد والمسالخ والطغاة .

**

بعد رحيل فالح حسون الدراجي إلى أميركا عام ٢٠٠٠ عن طريق المفوضية الساميّة لشؤون اللاّجئين ، كتب مقالاً حارقاً عن الغربة والشتات ، فقلتُ لنفسي بكثير من الحسرة والجزع :

– ماذا جرى؟ ماذا حدث في هذا العالم حتى أسمع صوت دموعه يأتي غزيراً ويضرب أمنياتنا كلها ويصفع نور أحلامنا التي ما تحقق منها أي شيء ؟

يوم جئنا إلى عمّان كنا نبكي على بغداد شوقاً ولهفة ، ويوم نمضي عن عمّان إلى أية بقعة في الأرض سنبكي على عمّان حزناً ولوعة ، فماذا جرى في الروح حتى تصبح الأشياء غامضة بهذا المستوى وذات ملامح تختلف من حالة عاشها فالح حسون قبل نصف عام إلى حالة أخرى يعيشها بعد نصف سنة ؟

كتبت له أقول وأنا ما زلتُ في بيت الحسرة :

– كل واحد منا يعرف الجواب ويفهمه ، بل ويغوص في شعابه حتى الرمق الأخير ، لكن الحال يا صديقي من المحال أن يبقى على هذا الشكل المرعب في بلاد النهرين ، ودعني اخبرك أن (المستحيل) أو (المعجزة) لم تعد غير كلمات في القاموس تركها العقل البشري

منذ عشرات السنين ، فها هو العالم يمشي إلى فضاءات أبعد من خيالاتنا ، وها هي الدنيا تسعف نفسها بنفسها تحت عظمة القانون الإنساني الذي لا بد أن يحسم المواقف كلها لصالح الإنسان مهما تأخر الوقت .

المشكلة لم تعد أمام خارطة الوطن الذي نحب ، المشكلة يا صديقي في نفوسنا التي حطمتها حفنة من البشر لا علاقة لهم بروح الإنسانية على الرغم من أنهم يشبهون (الإنسان) ولهم انف وفم ولسان وعينان كما البشر ، لكنهم خارج قانون الإحساس وخارج بيت المشاعر ، وأفضل من فيهم تخرج بامتياز من (المجزرة) وصار المسلخ هو المكان الوحيد الذي ينتسب إليه .

تبتعد الأوطان كلما اقتربنا من الحرية ، وتبتعد الحرية كلما اقتربنا من الوطن . . أية معادلة مخبولة يا فالح؟ قال لي أحد المستشرقين ذات يوم في بغداد : انه لا يصدق نمط الحياة التي نعيشها . . قال : إنكم خارج المألوف من الحياة اليومية الصحيحة .

وأظنني يومها قلت لنفسي «إنه بالغ في الأمر حتى أفسده» والآن ، أتحسس كلماته ومعانيها وأرى نفسي مهزوماً عن ذكائي ومذبوحاً بسكين الافتراضات التي نامت معي طوال (شليلة) معقدة من سنوات عمري .

**

حسناً ، إذا كان هذا حالك وأنت ما تجاوزت الشهر العاشر من غربتك ، ماذا سيحدث لك بعد عشرة أعوام دون أن تسمع داخل حسن وزهور حسين ولا ترى شارع الرشيد ولا تشمّ رائحة النخيل والصفصاف؟ أعني ، كما ترى يا فالح يا حسون ، الإنسان يعاني من

الغربة بعد (كم) من السنين وليس بعد حفنة أيام وشهور ، وأن عليك الآن أن تفهم أن الطريق إلى بغداد لن يبقى مغلقاً ، وأن النوم قرب شطّ العرب تحت رحيق العشار ليس بعيداً كما تظن ، وأن حجم افلاسنا اليوم من الحرية والفرح والطمأنينة إنما هو بحجم الغنى الذي نستحقه غداً .

- تأكد من ذلك .

وكم أعجبني قولك عن ذاك (الفقدان) الكبير ، يوم انتقلتَ من شقة إلى أخرى ومن بيت إلى بيت في ربوع أمريكا حتى اكتشفت أن ما فقدناه ليس هو ما نبحث عنه في الشوارع والأسواق ، ذلك أن الوطن ليس مجرد بيوت أو ممرات أو محلة أو مدينة .

إنه كل شيء مرّ بنا وفات علينا ، من لمسة حب في الطفولة أو ضحكة صغيرة في الصبا ، إنه من (مات) منا ومن (ولد) بيننا عبر عشرات السنين من الفقر والقناعة والخوف واللهفة والامنيات ، من الحب والكفاح والمشقة والاجتهاد ، هو المدرسة الابتدائية التي تبقى مجساتها في أعماق النفس ، هو الجار الأول والثاني والثالث ، هو الأسى والإنصاف والبؤس والسعادات الأولى ، هو كل قطرة مطر رأيناها في الطفولة والصبا ، هو أمك واختك وأخوك وأبوك وعمك وخالك والناس الذين يمعنون في السؤال عنك إذا ما مرضت أو أفلست أو سافرت أو تزوجت أو انجبت أو نجحت أو رسبت في الامتحان .

سأقول لك إن (ابوذية) واحدة من رياض أحمد قد تعادل عندك موسيقى أمريكا كلها ، كما تقول أنت ، وقد ترجو اللّه أن تنام ليلة واحدة في مدينة (الثورة) التي تساوي عندك الآن أجمل فنادق

الدرجة الممتازة ، وقد ترى في ترابها وأزقتها وبيوتها ما هو أحلى من (ريجنسي بالاس) أو (الهوليداي إن) .

لكن صدقني إذا قلت لك : إن الأمر ليس هكذا ، وأنت تعلم جيداً وتفهم جيداً بأن الأمر ليس هكذا ، ذلك أننا بحاجة إلى بناء الروح وبناء الوطن من داخل الخطأ الأول ، على الرغم من الأخطاء كلها ، وأن نضع حجر الأساس في المكان الصحيح والزمان الصحيح وأن نكتب اسم اليوم الأول الذي تنتهي فيه هجرة العقول ، حتى نعود جميعاً إلى (الباب الشرقي) وعلى وجه الدقة تحت جدارية (جواد سليم) كما كنا نفعل أيام الصبا واليفاعة والشباب ، ونهتف بقوة وحب ونكتب بإخلاص وإصرار ، بنغمة واحدة تصل عنان السماء ، لنقول دفعة واحدة :

- إن كل تاريخ عظيم لا بد أن يسبقه ألم عظيم !

**

في حياتنا طرائف وعيوب وأخطاء من طراز خاص ، إذا تركناها وراء ظهورنا على أمل أن يكتب عنها غيرنا ، تصبح بعد حين من الدهر بحجم الجريمة ، وإذا ناقشناها وكتبنا رأينا فيها ، صار كلامنا في حق أصحابها في حجم الجريمة أيضاً .

واحدة من هذه الطرائف ، أن تذهب (مقالتك) إلى مصحح في مجلة ما ، أو جريدة . . هذا المصحح - لسبب في نفسه - لا يرتاح إليك ولا يميل إلى شخصك (المزعج) وبالتالي ، فهو لا يحبك ولا يحب ما تكتبه وتنشره أيضاً ، ولأنه لا يحبك ولا يحب ما تكتبه ، تراه يصحح (مقالتك) على هواه ، وهو خبير - بحكم المهنة والممارسة - في تهشيم المقالة وتهشيم سمعتك واسمك معها ، وما

عليه سوى حذف (حروف) قليلة جداً لن يحاسب عليها إذا ما سألوه السبب . . فهو إذا ما رفع حرفي (لا) من كلمة (لا اقرأ) صار المعنى (اقرأ) وإذا ما اضاف حرفي (لم) على كلمة (اكتب) صارت (لم اكتب) . . وما عليك أنت الكاتب سوى تبرير انقلاب المعنى لكل من تراه ، وهل سترى آلاف القراء حتى تبرر هذا (الخطأ) الجسيم؟

**

ومن العيوب التي تدور وراء الكواليس وتأخذ شكلاً آخر على مسرح الثقافة والنشر ، أن يأتيك (احدهم) ويطلب بنفسه أن تكتب عنه ، بوقاحة لا حدود لها يقول بأنه سيكتب عنك أيضاً «هكذا تأتي الشهرة ، أليس كذلك»؟

وقد رأيت بنفسي ، وما كنت حالماً ولا واهماً ، أحدهم ، وهو يهدي كتابه (الانيق) مع كلمة (رجاء) أن يعرف رأيك فيه ، وهو دون شك لا يريد رأيك هذا شفوياً وإنما بالبنط العريض وبالحرف ١٤ أسود .

والغريب في أمر هذا النوع من (البشر) أنه بعد نشر المقالات التي استجداها وساوم اصحابها ، يناقش ويعارض وينفعل ويشتم (النقد) الذي لم يستوعب (تجربته) الفذة !

الأغرب من هذا كله ، أن هذه الطريقة ، أو اللعبة المبتكرة في الشهرة والانتشار صارت (موضة) وصار (مبتكروها) من شخصيات الصف الأول الذين يشار إليهم بالسبابة والابهام معاً ، لا سيما وأنهم يتعلمون يوماً بعد آخر كيف يناقشون وكيف يعارضون وينفعلون وكيف يلعنون النقد الذي لم يصل بعدُ إلى عمق تجاربهم!

عندما أفكر في هذا النوع من الكتبة أتذكر يوسف إدريس ، هذا المبدع الذي أدهشني منذ دخلتُ إلى عالم القصة القصيرة وأعرف

أسرارها ، لذلك قرأت كل قصة نشرها ورجعتُ إلى أعماله مرة بعد أخرى .

وأعترف أنني لم استفد في حياتي من كاتب عربي كما كانت فائدتي من يوسف ادريس .

إن الدخول إلى عالم هذا الكاتب ، لا يبدأ إلا من قصصه القصيرة . . هو نفسه لا يبالي بما كتب في المسرح أو الرواية موازاة اهتمامه وهمومه مع القصة القصيرة ، إنها «الشرارة» التي دونها لا شيء يضيء .

رجعت قبل أيام قليلة إلى مجاميعه القصصية القديمة ، شعرت بشيء من الخوف وأنا اقرأ - ربما للمرة الرابعة - تلك القصص النابضة الموخزة الجارحة السرية الغامضة التي نطقت بالفن كما لم تنطق القصة العربية إلا ما ندر منها .

**

ثمة بناء قصصي بسيط - ومعقد في الوقت نفسه - جاء به يوسف ادريس وصار مدرسة لا ينكر العديد من كتّاب القصة - وأنا واحد منهم - مدى التأثر بهذا البناء ، الذي يوهم بالبساطة ، لكنه مربوط بالمشاعر في قمة اشتعالها .

ظهر يوسف ادريس في عالم القصة القصيرة منذ عام ١٩٥٤ أي منذ ما يزيد على خمسين سنة ، عندما قدم شهادة ابداعه في أول مجموعة اعطاها عنوان (أرخص ليالي) .

لم تكن هذه الرحلة مجرد رحلة طويلة في عمر الزمان ، لكنها كانت عملية إنشاء مدرسة خلقت أكثر من جيل واحد يتنفس معظم كتابه هواء يوسف ادريس وابداعه .

ثانية اقول : إن هذا الكاتب لا يشبه اقرانه من كتاب القصة من ابناء جيله ، وقد اندثرت اسماء واستمرت اسماء ، لكن ظهور يوسف ادريس كان العلامة المميزة في تلك الفترة حتى عام ١٩٨١ حيث صمت هذا الكاتب ولم يقدم سوى مجموعة قصصية فقيرة الموهبة بعنوان (اقتلها) لم تحقق له سوى رجوع القراء إلى اعماله السابقة ، اشارة حب إلى هذا الإنسان الذي وهب القصة القصيرة مثل ما وهبته من مجد وحياة ونبض دائم واسم ليس من السهل أن يقارن به سوى المبدعين الكبار .

ربما نتذكر - بين فترة وأخرى - بعض كتاب القصة في الفترة التي ظهر فيها يوسف ادريس ، أمثال يوسف الشاروني واحسان عبد القدوس ويوسف السباعي ومحمود البدوي وسعد مكاوي ، وبعض هؤلاء جاء إلى النشر قبل يوسف ادريس بعامين أو ثلاثة ، وكان (غيرهم) من الرواد قد ترك عالم القصة إلى غير رجعة ، امثال محمود طاهر لاشين وشحاته عبيد ومحمود كامل المحامي ويوسف جوهر ، لكننا حين نتذكرهم لا يمر في الذهن من نتاجهم إلا القليل الذي يكاد النسيان أن يلتهمه إلى الأبد .

هذا ما يفعله (الزمن) مع المواهب الكبيرة وما يفعله مع المواهب البسيطة العاجزة عن التطور والديمومة والبقاء . . والزمن لا شأن له بالعلاقات الطيبة ولا شأن له بالنقد الذي يكسر هذا ويداري ذاك من الكتّاب أو الكتبة .

والزمن اطول من حجم الصبر على رواية كتبها روائي مبدع أو (سالوفة) نشرها علينا (راوية) يعرف المبتدأ والخبر ويحسن البحث عن أبطال بلا بطولة .

لا اعتقد أن يوسف ادريس مثلاً ، أو أي مبدع ، سيحتاج إلى مداراة النقاد وشراء الشفقة منهم للحفاظ على قيمة ما يكتب . . وأيضاً لا اعتقد أن احدهما سيرعبه أن يقال عنه ما ليس فيه .

إن النقد بالنسبة للمبدع مجرد (رأي) يساهم في إنارة الطريق ، وإذا ما جاء هذا النقد معتماً وظالماً وقاسياً ، فهو إنارة أخرى – ضمن سلوك آخر – تساهم أيضاً في معرفة الناس والطريق معاً .

**

لا أدري كيف ينكسر البعض امام (مجرد) مقالة في جريدة ، وكيف يكف عن الكتابة إذا ما جاء النقد على تصنيفه وترتيب اسمه في قائمة دون قائمة أخرى!

ألا يعرف (المبدع) قيمة نفسه وقيمة ما يكتب؟ وإذا كان لا يدري بما هو فيه وبما يعطيه فكيف يمكنه الكتابة لملايين القراء هو بينهم (المنار) الذي يستنيرون به ، وأي (منار) هذا الذي ينطفىء من أول صرخة تأتيه؟

إن أخطر مراحل الكاتب ، أن تكون حياته بلا مراحل ، شكل واحد يتكرر في هذا العمل أو ذاك : المشاعر ذاتها والشخوص نفسها وليس له من جهد سوى جهد التكرار . . والمضحك أننا نسمع بين وقت وآخر من يقول بصوت مرتفع : إن تجاربي متشابهة ، أعرف هذا ، لأنني أعيش حياة واحدة وقضيت عمري بين بشر لا اعرف غيرهم .!

هل يمكن أن نسمع هذا النوع من النكات والتصريحات على لسان كاتب مثل غابرييل غارسيا ماركيز أو شولوخوف أو ألبير كامي؟ . . مطلقاً .

**

الكتابة ليست مهنة ، ولم تكن وظيفة رسمية في يوم من الأيام ، إنها خلق وابتكار وخيال ونهوض ونبض وحدوس واكتشافات وتراث ومواقف وهوية . . لكن الفرق بين الخلق الباهر والخلق المشوه ، هو نفسه الفرق بين ابتكار الفكرة وتكرارها ، هو نفسه الفرق بين الخيال المعجز والخيال المريض ، هو الفرق أيضاً بين النبض السوي والنبض اللاهث ، وما نقوله عن النهوض من أجل الناس لا يشبه ما نقوله عن النهوض من أجل الذات ، وحدوس المبدع لا تشبه حدوس الناقل ، وكذلك اكتشافاته ونظرته إلى ما كان يكتشفه .

الكاتب تراث لاحق ، وليس موروثاً سابقاً ، إنه النقيض للعادي والمألوف ، هو الموقف الذي لا يقف عند ردود الفعل ، هو الهوية التي لا يمكن أن يمسخها من لا هوية له .

الكتابة فن ، وهل ترانا نحتاج إلى دليل حتى يعرف من لا (فن) فيه أن لا شفيع للمبدع سوى ابداعه ، وأن لا شفيع لغير المبدع سوى السكوت .

ما زلت أذكر كلمة قاسية قرأتها قبل سنين طوال ، معناها «لا نريد أن يكون الضمير مجرد شيء جاهز نأكله دون أن نهضمه ابداً» .

وحتى يكون في مقدورنا أن نقول الحقيقة لا بد من شرح هذه الظاهرة الصعبة بعبارة واحدة بسيطة ، هي أن المبدع أكبر من جرح عابر ، وأن المبدع الكبير ، كبير بما يملك من عطاء .

**

في عام ١٩٧٥ وأنا تحت الأرض في ذاك القبو المظلم ، عرفتُ فيما بعد ، أنهم منعوني من السفر ومن النشر ومن حرية الحركة ، كان

يجب إثبات وجودي في بغداد لئلا أهرب بجواز سفر مزوّر ، وأنا منذ طفولتي آمنتُ أن الكلمة الطيبة حسنة ، وكان أفضل تكريم جاءني طوال حياتي أن أسمع من يقول رأياً صادقاً في كتاباتي ، حتى إن جاء ضد أفكاري أو عكس رجائي في مدح أو اطراء أو أعجاب مرسوم على الجبين .

الرأي الصادق عملة نادرة في هذا الزمان ، أنا أشتريه بأعصابي ونور عيني ونبض قلبي ، بل اشتريه بحفنة السنوات القليلة الباقية من عمري وأحلامي ومغامراتي ، (اسالوني كم رأي صادق في ألف رأي نصغي إليه؟) ، وسوف أقول بلا خوف وبلا تردد (ليس ثمة رأي صادق واحد من الألف الأول) ربما نعثر في الألف الثالث على رأي واحد نفخر به ونمشي في معانيه بل نسامر انفسنا في بيانه ونرضع ثانية من صلواته ونشتكي إليه .

هكذا صارت حال الدنيا في عموم شعابها واقطارها ، في غروبها وشروقها ، في ابتسامتها الرخوة أو عند سقف اغراضها المفبركة ضد الإنسان ، ولا هلاك إلا عند رأي كاذب ولا سقوط إلا تحت أغراض مفبركة مصنوعة .

وأنا أشكر اللّه على نعمة إيماني بما سمعت وآمنت به في طفولتي ، بل وصار هدياً لهذه النفس المضطربة التي لا طاعة فيها ولا نهياً في ضلوعها للفحشاء والمنكر والرأي المصنوع إلا بما وهبتني طفولتي : أن أكون مؤمناً بماجاءني وأنا في التاسعة من عمري ، والذي رحت أقوله وأكرره في صحوي ومقالاتي وفي حضرة اصدقائي واعدائي الرائعين (الكلمة الطيبة حسنة) .

**

أنا لا أريد وصف ما لا يوصف ، ولا أريد أن أحكم الكلام الذي كان وما زال يحكمني ، أنا سائر في حيرتي أتجشم هول احساسي بما أرى ، مخنوقاً بما لا يقال وما لا تستفيد منه الشمس ، وسأعترف أن طراز أعصابي من النوع المفطوم مبكراً ، والذي يبتسم فوراً إذا ما أطبق الحب عليه أو مسّه الاطراء على حين غفلة .

أنا مرغمٌ على ترجمة الخلايا التي تمشي تحت جلدي ، فإذا ما نطق الليل في الواحدة ظهراً ، أو سافر القطار على السحب البيض البراقة ، أو جاءت رسالة حبيبتي من كوكب المريخ ، فأنتم وحدكم يومها ستفهمون أن الفرح الذي يأتي من رأي لا غبار عليه ، إنما هو في الساعة نفسها أكبر من ليلٍ ينطق في النهار ، وأجمل من قطار يسافر فوق الغيوم ، وهو في حلاوة الرسالة التي ستكتبها حبيبتي إذا ما وصلت كوكب المريخ .

المولود على الحب لا يعرف أن يكتب في غير الحب ، ومن المؤسف أن كلام الحب مهما كان رائعاً وأنيقاً فهو ما زال منذ اليوم الأول من أيام الخلق مجرد كلام عابر لا يدخل في أرشيف القلب .

لهذا قلتُ منذ السطر الأول في هذه السيرة : إن الكلمة الطيبة حسنة ، ومعجزة الكلمة الطيبة أنك سوف تحتاج إلى المستحيل حتى تعرف ردّ الجميل .

5

سابع أيام الخلق

يقول الكاتب الأمريكي الساخر (امبروز بيرس) في كتابه اللاذع (قاموس الشيطان) :

- كثيرون من الناس يعتقدون أن الكتب اخترعت لكي يجلسوا عليها فقط .

وبرغم روح الطرافة التي تصبّ في كلام كهذا ، وأيضاً برغم المبالغة المضحكة الغريبة في وصف بعض الناس وكيفية تعاملهم مع الكتاب ، اخطر مشاريع العقل البشري ، إلا أن هذا القول الساخر العنيف الموجع يوشك أن يكون حقيقة ملموسة بعد زيارات سريعة إلى مكتبات بغداد .

لن ترهق نفسك كثيراً ، حتى ترى عشرات العناوين ، مركونة منذ عشر سنوات أو تزيد ، لا قارىء لها ، تزدحم بها مخازن الكتب في السراديب والغرف المغلقة والرفوف ، والمضحك في بعض هذه الكتب المهملة أنها مطبوعة مرتين ، لم ينفد من الطبعة الأولى - وهي خمسة آلاف نسخة - غير خمسين نسخة ، نتيجة عليا لهذا الكتاب الذي طبعوه مرتين .

والغريب المؤسف في هذه القضية ، أن أزمة الورق التي صارت (تعويذة) دور النشر الرسمية والتي تعتذر (بموجبها) عن طبع وتأخير واهمال بقية الكتب ، ما زالت هي نفسها أزمة اليوم .

فكيف ترانا نطبع كتاباً لا قارىء له مرة ثانية ونعطي مؤلفه (مكافأة) ثانية وكتابه (المطبوع مرتين) ما زال متروكاً تحت غبار النسيان ، يحتاج إلى عاصفة قوية كيما تمسح عن أوراقه وغلافه ملايين البكتريا التي راحت تسري بين الحروف والكلمات بانتظار طبعة ثالثة لن يكون لها حتى قارىء واحد .

هل ترانا نكتب القصص والقصائد والدراسات والنقد والروايات ونصنع منها الكتب السميكة بغية الجلوس عليها؟ . . ألا ينبغي علينا اختيار الكتاب الناجح؟ نحن خير من يعرف الكتاب الناجح ، لماذا إذن تذهب أموالنا وأوراقنا في مهب رياح العلاقات الشخصية وفي مهب المحبة المصلحية المتبادلة التي تربط الناشر بالكاتب؟

مسؤولية من؟ أعني من المسؤول عن تراكم الكتب في السراديب بانتظار زخات المطر التي سوف تسقط في تلك السراديب كما حدث عام ١٩٨٤ عندما جاءت الأوامر بطبع ألف كتاب في عام واحد وتصبح (الكتب التي طبعوها مرتين) مجرد جسر يمشي عليه الناشر لئلا يقال إن تلك الكتب كانت بلا فائدة .

هل ثمة فائدة أكبر من المرور على آلاف النسخ لئلا يتبلل بنطلون الناشر؟

**

على العكس من ذلك ، هناك في بيوت الأدباء ، عشرات ، وربما مئات الكتب الجاهزة للطبع ، روايات ، مجاميع قصصية ، دواوين

شعر ، دراسات نقدية ، بحوث أدبية ، إلى آخر ما يبتكر العقل من إبداعات .

هذه الأعمال تراها نائمة في صندوق النسيان ، لا أحد يسأل عنها وليس من ناشر يعنيه امرها ، وبعض من هذه النتاجات قد يفوق بقيمته ما نقرأ اليوم من (منشورات) باهتة لا قيمة توازيها سوى قيمة العلاقات الشخصية بين الكاتب والناشر .

كيف نفسر ظهور ثلاث روايات لكاتب واحد في سنة واحدة من احدى دور النشر الرسمية ، بينما ينتظر اقرانه ثلاث سنوات -احياناً- حتى يسمع الواحد منهم بأمر الموافقة على (روايته)؟ ثم سنة رابعة حتى يصل (الورق) إلى المطبعة - هو وحده الذي يقال له ان هناك أزمة في الورق - ثم سنة خامسة حتى تدخل المطبعة وسنة سادسة حتى ترى النور . .؟

كيف نفسر هذا (الشطب) المتعمد على بعض الكتّاب ورعاية البعض الثاني منهم ، ومستوى البعض الأول لا ينافسه إلاّ المبدعون الكبار في العالم؟ مرة حجة أن الكتاب ما زال عند السيد الرقيب ، ومرة ثانية حجة أن الرقيب ما زال يقرأ في الكتاب ، ثم تمر السنة الأولى و(الرقيب) ما زال يسامر (الكتاب) والكتاب ما زال عند السيد الرقيب ، وما عليك غير الانتظار!

لكنك - وتلك هي المفاجأة - ترى في السنة نفسها - بينما كتابك المسكين ما زال عند الرقيب - ثلاثة كتب للسيد فلان ، وثلاثة غيرها للدكتور الفلاني ، وكتابك أنت ما زال يمرح في ذاكرة الرقيب .

أي رقيب هذا؟ وأية مهانة أن يصبح المبدع مجرد ضحية لعلاقات

ومصالح لا علاقة لها بالابداع مطلقاً؟

إذا أراد المسؤول - الناشر أن يغدق نعمته ونعيمه على (نفر) منهم ، فهذا أمر يعنيه ، شرط أن لا تكون نعمته ونعيمه على حساب بقية المبدعين وهم ثروة هذا الوطن ورموزه وسمعته ، هم حضارته واسمه ، وهم صناع تاريخه ومجده مهما حاول البعض طعن هذا المجد أو رفس ذاك التاريخ تحت (لعبة) الرقيب أو أية لعبة ثانية .

هل ثمة رقيب لا يتمكن من قراءة كتاب صغير في سنة واحدة؟ معقول ؟ .

**

في عام ١٩٧٩ سافرتُ إلى القاهرة مع حمدي مخلف الحديثي ، كان عندي ثلاثة آلاف وثلاثمائة دولار ، وهو نفسه الذي يملكه حمدي ، في المطار غيّرنا مائة دولار لكل واحد منّا ، وصار عندنا ٧٥٠ جنيهاً مصرياً ، وكان أول شيء فعلته ، كعادتي عندما أسافر إلى مصر ، هو ذهابي إلى صالات الروليت والبلاك جاك ، اتفقنا على أن تكون الأرباح أو الخسائر مناصفة بيننا ، وبدأتُ اللعب في التاسعة ليلاً في فندق هيلتون على نهر النيل .

في السادسة فجراً ، خسرنا كل ما جئنا به من أموال ، ستة آلاف وأربعمائة دولار دفعة واحدة ، ولم يبق عندنا غير الجنيهات ، نظرتُ إلى حمدي بكثير من الشفقة ، وكنت أظنّه سيبكي ، لكنه طبطب على كتفي وقال :

- ولا يهمك ، فدوة .

من ذاك الصباح ، لم أفرّط بصداقتنا ، لو كان أيّ شخص آخر في مكان حمدي ، كانت اهتزّت شواربه وعاتبني ، وربما يتركني ويعود

إلى بغـداد ، لكن حـمـدي لم يفـعل أيّ شيء ، لم يعـاتب ، ولم يغضب ، ولم يتركني وحدي ، والمهم هو أنه كان دون شوارب .

قلتُ له عساني أخففّ بعض أحزانه على خسارتنا :

– حياة الأدباء هكذا يا حمدي ، لا بد من المغامرات والمقامرات ، يومٌ لك ويومٌ عليك .

لم أسمع من حمدي سوى كلمة (فدوة) بينما رحتُ أحكي له عن آرنست همنغواي وديستويفسكي واستيفان زفايج ، وكيف أن كل واحد منهم عاش حياته مغامراً ومقامراً ، والعجيب أن حمدي سألني كأنه انتبه في اليوم التالي إلى خسارتنا الكبرى :

– هل خسرنا كل شيء يا عمّار؟

وأيقنتُ أنه كان مصدوماً ليلة البارحة ولم يستطع أن يصدّق ما حلّ بنا ، لكن الجنيهات التي بقيت عندنا كانت تكفي للبقاء عشرة أيام في القاهرة ، وتكفي أن نأكل ونشرب ونأتي بالنساء (درجة ثالثة) إلى فراشنا .

كان حمدي يكرر مع نفسه بصوت مسموع :

– ماذا كان سيحدث لو أننا لم نلعب الروليت؟

فأعود ثانية لذكر همنغواي وزفايج وديستويفسكي ، الحياة محشوة بالمفاجآت يا حمدي ، المهم أننا أحياء ولم نمت في الطائرة ، ولم نغرق في البحر ، سوف تنسى ذلك بعد شهرين ، لكن حمدي وقد ذهب أسيراً في حربنا مع إيران وقضى هناك تسع سنوات ، عاد بعدها في عام ١٩٩٠ وهو يفكر بفارق العملة بين الجنيه المصري والدولار ، وما يزال حتى يومنا هذا يقول : ماذا كان سيحدث لو أننا لم نلعب ؟!

نعم ، خسرنا ستة آلاف وأربعمائة دولار ، وهذا يعني حينها ٢٤

ألف جنيه مصري ، يمكن أن تشتري بهذا المال أفضل شقة في شارع الهرم أو جاردن سيتي آنذاك .

**

وحتى أعود ثانية إلى حمدي مخلف ، تذكرتُ شيئاً ، حيث زارني قبل شهور ، مترجم عراقي معروف أعطاني نسخة من مجلة (التراث الشعبي) فيها مادة نشرها منذ ثلاثة أعوام ، أخبرني أن هذه المادة رآها منشورة - كما كتبها - في قصة أحد كتّابنا المعروفين ، مع تحوير هنا وحذف سطر هناك ، لكن أصل القصة متشابه تماماً ، لا فروق كبيرة سوى أن مادة المترجم ليست قصة قصيرة ومادة كاتبنا المعروف جاءت تحت عنوان (قصة بقلم . . .)!

سألت المترجم : لماذا أخبرتني بهذه المعلومة الخطيرة ، ولماذا أنا دون غيري ؟

أجاب المترجم : أخبرتك أنت ، لأنه صديقك ، ولا أريد أن أكشف أسراره وعيوبه بين الناس ، واعتقد ان عليك إسعاف هذا المرض الجسيم قبل أن يتكرر ويصبح في حجم الجريمة .

واعترف أن هذا الصديق المترجم ، كان من النزاهة ونقاء السريرة ، أنه احتفظ بهذا السرّ ثلاث سنوات بأيامها ، وكان من الممكن أن يحتفظ بالسرّ سنوات أخرى قبل أن يكتشف قبل أيام قليلة (سرقة) أخرى قام بها الكاتب المذكور .

إن كتّاب العالم كلهم يعانون بين وقت وآخر من عطب طارىء في الذاكرة والمخيلة والاعصاب . . وهذا شيء طبيعي بالنسبة لمن يستخدم عقله أكثر من بقية أجزاء جسمه ، وهذا العطب قد يأخذ من عمر الكاتب سنة أو أربع سنوات وربما تزيد ، لكنه عطب سيزول حتماً

مثل أيّ مرض آخر يصاب به الإنسان .

بعض الكتّاب ، ما ان تصاب مخيلته وذائقته بهذا النوع من العطب يسارع إلى الاقتباس أو إستجداء مخيّلة الآخر ، وقد يذهب البعض إلى (السرقة) بغية البقاء في الحياة الثقافية لئلا يمتصه النسيان ، ناسياً أنه بهذه الجريمة سيخسر الماضي والحاضر والمستقبل ، وأن حجم خسارته وهو يسرق مخيلة سواه وابداع غيره – مهما كانت صغيرة – هي أكبر مئات المرات من حجم العطب الذي اصابه على حين غفلة .

**

هذا السارق أجرى معي ما يشبه المحاكمة ، كان هو القاضي وأنا المتهم ، سألني بوقاحة :

– أنتَ متهم بالغرور ، فماذا تقول ؟

كنت أعرف سوء نيّته ، فقررتُ أن أصبر عليه ولا أعطيه فرصة النيل مني ، فقلتُ له :

– الغرور يأتي عندما ترى المزيد من الصغار ، في الوقت الذي تعرف حجم ما أنتَ عليه ، والغرور لغة في التعامل مع الطارئين وقراء الأغلفة ، ومع الذين يناقشونك بصوت عالٍ وهم أصغر من حناجرهم .

إذا به يسأل بوقاحة أكبر :

– أنتَ متهم باستغلال علاقاتك التي كوّنتها من خلال أسفارك الكثيرة ؟

قلت له وأنا أشمّ رائحة المؤامرة :

– أنا لا علاقات لي مع أيما بلد في الدنيا ، هذه تهمة ساذجة

يكررها كل من تعاد إليه مخطوطته معتذرين عن نشرها ، سامحهم اللّه ، فهم خيرٍ من يواسي جروحه بطعن المبدعين ، وأنا أعرف كم يتألم هذا النوع من البشر .

ثم صفعني هذا اللص الخبيث بسؤال أخبث منه :

- أنتَ متهم بقلّة علاقاتك الإنسانية في وسط رفاق المهنة ؟

قلتُ له بصبرعظيم :

- ليست بي حاجة إلى عدد كبير من هذه العلاقات ، إن رياض قاسم وحده هو جمهورية من الأصدقاء ، فكيف إذا كان معه سامي محمد وخزعل الماجدي ؟ تلك مملكتي الصغيرة وعلى من يدخل فيها أن يحترم هذه النخبة من أصدقائي .

**

زعل مني حمدي مخلف يومها ، لأنني لم أذكره في تلك المملكة من أصدقائي ، وأعطيته الحق ، فهو الذي خسر أمواله دون أن يتمتع بلعبة الروليت ، ثم انتظرني حتى الصباح وهو يرى كيف أخسر برباطة جأش لا مثيل لها !

هذه أول مرة أكتب فيها (رباطة جأش) وثمة مفردات لم أكتبها مطلقاً ، مثال ذلك : إلخ ، هلمجرا ، لا مندوحة ، يتمخّض ، دمث ، وغيرها ، بينما حمدي ما يزال غاضباً من ذاك السارق الذي أجرى معي حواراً بذيئاً ، فقلتُ له : إن النجاح سلطة وحالة من حالات الصحة والعافية يخافها الكثير من البشر ، لهذا تراني لا أستغرب ما أسمعه من كلام جارح خلف ظهري ، سواء من هذا السارق أو ذاك الكاتب ، أو من ذاك الصديق .

منذ ما يزيد على عشرين سنة ، كان يوسف نمر ذياب يتشنّج مما

اكتبه ، وعندي في أرشيف بيتي ومذكراتي من ردود أفعاله وكتاباته وتشنجاته وتعليقاته ما يكفي لطبع كتاب (آثار الحسّاد على ردود النقّاد) فإذا رآني اكتب قصة أو مقالة ، سأعرف مسبقاً ما سيكتبه عني من حرائق وحروب ، كأن الديرة خلت من الأدباء ولم يبق فيها سواي ، قال ذات مرة : إنني أتعلّق بالحوارات وأسعى وراء صغار المحررين حتى تظهر صورتي هنا وهناك ، في اشارة منه إلى حزمة من الحوارات ظهرت في وقت واحد ، وأنا بدوري تركتُ الدرب مفتوحاً أمام يوسف ليسأل من يشاء إن كنت أنا من يسعى إلى تلك الحوارات ، وليس ذنبي أن لا أحد أجرى حواراً معه حتى مماته (رحمه اللّه) كم كان يكرهني وكم حصل على مكافآت جاءته عن طريق الشتائم التي رماها في طريقي !

أوجعني الشوك الذي تكاثر حول بيتي ، وما كان من شيء يخففّ من غلوائي غير أن أقرأ ، القراءة تأخذني إلى عالم من الصفاء ، نهضتُ من غفوتي ومددّت يدي إلى المكتبة ، جاءت أصابعي على رواية عنوانها (سابع أيام الخلق) .

**

عندما تشرق الشمس كل يوم ، لن يعود ثمة من يسأل (لماذا تشرق الشمس)؟ وعندما يبزغ القمر ليلة بعد ليلة ، سوف نكف عن السؤال (لماذا وكيف يبزغ القمر كل ليلة؟) .

أشياء جميلة ورائعة تجري في حياتنا كل يوم ، لكن تكرارها البهي الزاهي يجعلنا - دون وعي منا - ننسى ذاك الجمال وذاك البهاء .

لكن تبقى الشمس معجزة في شروقها ، ويستمر القمر كما

المستحيل في بزوغه ، وكذلك الأمر في الابداع .

عبدالخالق الركابي كتب ونشر حتى الآن سبع روايات هي (نافذة بسعة الحلم ، من يفتح باب الطلسم ، مكابدات عبدالله العاشق ، الراووق ، قبل أن يحلق الباشق ، سابع أيام الخلق ، وسفر السرمدية) وقد تكرر شروق أعماله علينا ، حتى صارت جزءاً من حياتنا ، لكن شروق (الراووق) لا يشبه شروق (الطلسم) وبزوغ (عبدالله العاشق) ما كان يشبه بزوغ (الباشق) .

طعم يتميز به عبدالخالق الركابي عن سواه من المبدعين ، هو طعم الاخلاص والصدق والتفاني في نتاجه الروائي ، واقول بمسؤولية : بأنه ليس من السهل أن نعثر على روائي أو أديب عراقي في مستوى اخلاصه وتفانيه إلا ما ندر منهم ، وسوف اقول بلا تردد :

- امنعوا عبدالخالق الركابي من الكتابة ، ثم انظروا كيف يموت .

ذلك أن الركابي والابداع ، هيكل واحد ، يمتد إذا ما امتد الركابي ، ويطول أكثر إذا ما طال الابداع ، إنهما توأم في صحوهما ونومهما ، ولا يفترقان إلا إذا افترق عن القلب نبضه ودمه .

ومن هنا ، وقبل أعوام طوال ، بدأت معرفتي بهذا الرجل الذي أبدع الكثير ، هذا الرجل ما زال كما أحسه وكما أراه : أكثرنا طفولة وصراخاً ولوعة وعشقاً أمام كنيسة الابداع ، فهو يبكي وجعاً إذا مسه النسيم ، وهو يصرخ عالياً إذا سكت الضمير ، وهو أكثرنا لوعة إذا ما جار الزمان على مبدع اصيل ، بل هو أكثرنا عشقاً لفنه وكتاباته ، ودون هذا الذي تقرأون من ابداعه لا حياة له مهما كانت المغريات .

أنا احترم الركابي لأنه حسم الموقف أمام (المغريات) مهما كبرت ومهما تشعبت ومهما انتشرت في حياتنا وبين مفاصل أيامنا

العجيبة ، ولهذا اتمنى أن يستمر هذا المبدع في الكتابة ، لأنني أريد له أن يستمر في الحياة ، من أجل ابداع متميز سوف نفخر به على امتداد العمر .

لقد اعتدنا أن نمتدح ابداع «ما وراء الحدود» وآن لنا اليوم أن نقول الحق ، أو بعض الحق في ابداعنا العراقي الذي يمشي صوب الكمال ، وسوف ابدأ بالروائي عبدالخالق الركابي عساني أقول في غيره ما يستحق أن يقال غداً وما كان ينبغي أن يقال بالأمس أيضاً .

**

عاد ثانية ، ذاك السارق ، ليكمل الحوار معي ، لكنني رفضتُ بالثلاث ، القراءة أحلى من الكتابة ، والكتابة أحلى من الحوارات ، ثم أنني أخبرتُ رياض قاسم وسامي محمد أن شأن لي بعد اليوم بما سيكتب أو يقال عني ، خيراً جاء ذلك أم شراً ، ليس ثمة ما هو أجمل من قرار يأتي من أعماق النفس ، واستغرب سامي برغم سعادته ، كيف تراني سأكفّ عن الردّ على هجومات الآخر ، فقلتُ له ما قاله الشاعر الذي نسيت اسمه :

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا
هل عاند الدهر إلاّ من به خطر ؟
فكم على الأرض من خضراء مورقة
وليس يُرجم إلاّ من به ثمر
وفي السماء نجوم لا عداد لها
وليس يخسف إلاّ الشمس والقمر

ثمة من يستفيد من الردود والمشاكسات والمنابزات ، لا سيما إذا كان هذا البعض فقيراً من الموهبة ، قلت إن الصبر عليهم سيكون

أخطر الدروس ، فقد كانت أعصابي تدفعني إلى الردّ فوراً ومن المستحيل أن أخضع لها بعد اليوم ، لا بد من ترويض الذات .

ابتسم رياض وهزّ رأسه ، كمن يسألني إن كنت سأكتب هذا الكلام ، فقلت له : نعم سأكتبه ، أريد أن يعرف الجميع ومنذ الليلة ، أن لا شأن لي بأحد ، والطريق صارت سالكة أمام الراغبين المتعطشين للقذف والقدح واللعنات ، لا شيء أجمل من قرار مؤكد تتعلّم أن تنفذه بقلب خاشع بعد ترويض النفس .

كنا يومها نحتسي بعض هموم الدنيا ، نحكي عما يدور في شوارعها من ثورات وزلازل وانقلابات غيّرت الأرض والنفوس ، قلت : من العيب حقاً أن يستمر المرء على سلوك واحد وأسلوب واحد في الحياة والكتابة ، ذلك معناه الموت . . قلت أيضاً : لا بد من نار يصنعها المبدع بنفسه يحرق بها شوائب ماضيه ، لا بد من سيف يخلقه المرء بنفسه يقلع به أشنات النفس ويقشع طحالب الحسد والأنانية والعنف لئلا ينتهي النقاء الذي وهبته الطبيعة إلى روح الإنسان .

بصراحة ، كنتُ على حذر من رياض قاسم ، فهو من النوع الذي يضحك عالياً عندما أنطق بشعارات من هذا اللون ، لكنه عانقني بقوة ، بل راح يقول : إن المسافة بينك الآن وبين ما أعرفه فيك صارت أقرب مما كانت آلاف المرات . . ليس هناك ما هو أفضل من هذه الثورة على الذات ، بل ، هذا الزلزال الذي أحسّه وأراه عليك بأم عيني .

**

جميل ما يجري في هذا الكون من أسرار ومفاجآت وعلوم ، نحن نسكن في قلب هذا الكون ونرى حولنا سفن تسافر عبر آلاف بل

ملايين الكيلومترات ، نسمع عن أجهزة سوف تغزو عقولنا وجهازنا العصبي الشفاف ، نسمع عن قصائد يكتبها (الكومبيوتر) وعن قصص قصيرة وروايات يصنعها الكومبيوتر . . ربما يصبح هذا (العفريت) الغريب طبيباً ذات يوم أو محامياً أو مهندساً ونرى أنفسنا أمامه لا نفعل أي شيء سوى النوم أطول فترة ممكنة ما دام هذا الجهاز المعجزة يفعل كل ما نريد نيابة عنا .

ترى ما نفع النقد الأدبي يومها إذا صار الأمر من صميم أعمال الكومبيوتر؟ أعتقد أن هذا الجهاز لا يفهم في العلاقات الشخصية ولا يجلس على موائد هذا الكاتب دون ذاك ، ومن هنا سوف يقول الرأي الصواب فعلاً ، سوف يعطينا رأياً نقدياً صارماً بلا عواطف أو مجاملات وبدون بيع وشراء خفي ، يومها ستنقلب المقاييس التي اعتدنا أن نسمعها من هذا الناقد الذي أوهمنا طوال ربع قرن من الزمان على أن هذا الكاتب أفضل من ذاك المبدع . . وتلك - بصراحة أكبر - ستكون أعجب وأغرب مفاجآت الابداع .

إذ كم من كاتب اعطاه النقد المغفل حجماً أكبر مما يستحق ، وكم من مبدع أصيل سلب النقد المغفل منه حقاً كان يستحقه تماماً؟ وكم من حالة ابداعية أعطيناها نصف ما ينبغي أن نعطيه دون أن ننتبه إلى روح العدالة والانصاف والموضوعية ؟

**

كل هذا سيظهر جلياً على شاشة الكومبيوتر يوماً ما من أيام العمر القريبة القادمة ، عندها سيضحك من كان يستحق أن يضحك (لكنهم ابكوه وأضعفوه) ويومها سوف يبكي جزعاً من كان ينبغي أن يبكي العمر كله (لكنهم أضحكوه وساندوه) .

لهذا ، قلت لصاحبي ، سوف أكف عن الرد مهما قيل عني ، أنا أعرف أن هذا العمر الغرائبي الساحر المدهش سوف يكتب الردود والحقائق كلها ، ذات فجر ، أو ذات مساء ، ربما ذات يوم غريب ، ويومها سنعرف كل شيء ، وحتى يأتي ذاك اليوم العظيم دعهم ينعموا قليلاً بما يملكون . . كان صاحبي يسألني : إن كنت أصدق هذا (الوهم) الذي أنطق به؟ قلت له : ينبغي أن أصدق ، إذ لا جواب عندي على (أكاذيبهم) غير هذا الأمل البعيد ، فهو قاضي قضاة العصر ، وسوف (يرى) الجميع يومها ذلك الخيط الفاصل ما بين الوجه والقناع .

**

شعرتُ بالطمأنينة مع ذاك القرار الحاسم الذي فرضته على نفسي ، وصار النوم يطاوعني بسرعة ، وهكذا تمكنتُ من قراءة سابع أيام الخلق بهدوء .

6

محاكمة المبدع

أدعوكم إلى الدخول في معنى الكلمات وليس الوقوف عند أبوابها ، إن أسوأ الكلمات هي التي لا تقول أي شيء ، وأسوأ الأبواب هي الأبواب نصف المفتوحة ، إنها دعوة صغيرة إلى حفلة صراحة نراجع فيها أنفسنا وأقلامنا وعواطفنا .

لماذا لا نحاول أن نقول نعم إذا كنا نريد أن نقول نعم وأن نقول كلا إذا كنا نريد أن نقول كلا؟ ترى ما هي الصعوبة في نطق الكلمات الصحيحة؟

كيف نحدد - سواء مع أنفسنا أو مع الآخرين - درجة الاخلاص التي نحسّها في كتاباتنا؟ ما هو مدى الصدق ومدى الرغبة في العطاء؟ ما الذي يكفل لنا القناعة والرضا عما نكتب؟ هل يحق لنا أن نقارن ما نكتبه نحن من أدب بما نقرأ من أدب في العالم؟

هذا ممكن من دون شك في حدود التباهي ، لكنه آخر الممكنات في حدود الحقيقة .

**

متى سيبدأ المبدع بنقل نفسه من (وهم) مستحيل إلى وهم

ممكن؟ ربما يستطيع بعد هذا أن يصل إلى عمل معقول بعد أن شبعنا من النتاج الذي لا يقول شيئاً سوى الترهل في المعنى والمزيد من الوصف؟ كم ارتكب النقد من أخطاء في حق أفضل الشعراء وكتّاب القصة والرواية؟ وكم ارتكب الشاعر والقاص والروائي من أخطاء في حق نفسه عندما توهم أنه أكبر من النقد والنقاد؟ ترى ماذا فعل بعض كتّاب القصاقيص في حركة تطوير القصة القصيرة التي أعطت أحسن نماذجها في الستينيات؟ أعني : ماذا أضاف النقد إلى واحدة من أعمق الفترات الإبداعية في حياتنا؟ بصراحة ، لا أقول إنهم (ضيّعونا) نحن كتّاب القصة ، لكنني أقول : إنهم لم يكتشفونا ولم يعثر أي واحد منهم علينا أو على درجة إبداعنا ، هموم الوظيفة قطعت جذور بعضهم ، وهموم العائلة قطعت جذور آخرين ، وهموم السياسة أجهزت على البقية الباقية ، وكذلك هموم الحب والنكبات اليومية والحرمان والحاجة إلى الرغيف ، وغيرها ، قطعت جذور أكثرهم صبراً ورغبة في العطاء ، وصار الكاتب بلا ناقد وعاش القاص مع نفسه ولها ، من دون أن يفكر في مدح أو قدح ، فقد عاش على ثقافته ومعرفته وظنونه ، وكانت له هذه الثقافة وتلك المعرفة وبقية الظنون ، خير إسعاف وخير مرشد في حياته الإبداعية المتشعبة .

**

إننا حين نكتب القصة القصيرة نحتاج إلى قسط من الخيال ، وحين نكتب الرواية سنحتاج إلى قسط أكبر ، والوسيلة الوحيدة التي يمتلكها المبدع هي الخيال الممزوج بحالات شخصية عاشها المؤلف نفسه ، والمزاوجة الناجحة بين الخيال وبين التجربة الشخصية إنما تقف في أول مراحل العبقرية ، وليس من تفسير معقول في فشل كتّاب

الرواية سوى هذا التخبط بين وهم التجربة ووهم القدرة على مسك تلابيب الخيال .

وإذا كان بعض المعروفين من عمالقة الرواية في العالم قد أسند رأسه وقلمه إلى الواقعية ، فهذا لا يعني - في مقياس النقد - أنه أفضل كتّاب العصر مهما بلغ من نجاح ، لسبب واحد ، وهو سبب بسيط ، ومعقول ، هو أن الفن ليس موازياً للواقع ، وكذلك الواقع ، لا يمكن أن يكون موازياً حَرفياً للفن .

إن الطفل الذي لا يفهم ما يدور في العالم من كوارث ، هو أشبه ما يكون بالقاص الذي يكتب عن حالات لا يعرفها ، ومن المؤسف القول إن هذا النوع من الكتّاب يزداد في وسطنا الثقافي يوماً بعد يوم ، ولهم الحق في أن يعتقد الواحد منهم ما ليس فيه ، فهم ضحية هذا الوهم في أنهم صاروا كتّاباً ، ما دامت الجريدة والمجلة تنشر أعمالهم بلا تردد .

ليس من حق أحد أن يكون رقيباً على أحد ، لكن من حق الحقيقة وحدها أن تكون الرقيب والمسؤول عن هذا التيه والضياع والوهم الذي يعيشه عشرات الكتّاب من النوع الذي لا ثقافة ولا عمق فيه سوى ثقافة الوهم الذي رُزق به سراً أو علناً .

**

من الصعب أن نقول لكائن عابر (إنك كاتب مبدع) هو الذي لم يكتب سوى مقالة هنا وقصة قصيرة هناك . . إن روح المجاملة مجرمة في حق صاحبها ، وكذلك مجرمة هي في حق من يستخدم الحق في تسويقها أو اشاعتها بين هذا وذاك .

هل يمكن أن نقول ، حتى من باب المزاح ، إن بدر شاكر السيّاب

ليس شاعراً وان يوسف إدريس ليس كاتباً قصصياً لامعاً؟ هل يمكن أن نقول : إن محمد مندور ليس ناقداً؟ أبداً ، ذلك أن الكاتب الحقيقي هو دائماً أكبر من المزاح ، وهو أكبر ، في الأوقات كلها من تصنيفه على هذا الباب أو ذاك الشباك .

أما الكاتب الذي يستخدم أو يتكىء على سلطة الوهم واستجداء النقد وتصفيق أنصاف المثقفين ، فهو قادر على أن يعيش سنة أو سنتين وربما أربعاً .

لكنه غير قادر على أن يغرس اكذوبته في عقول كل الناس في الأوقات كلها .

**

هناك من يرى أن الكتابة تحتاج إلى العاطفة فحسب ، وحتى هذا النوع من المبدعين لا يمكنه أن يسخّر موهبته ويفكر - في حالة إفلاسه- أن يكتب شيئاً للبيع السريع ، ربما يعرض بضاعته هنا وهناك ، لكنها بضاعة ليست كاسدة وإنما جاهزة للبيع ، وهذا ليس عيباً ، هناك العشرات من الكتّاب يعيشون حالة افلاس ، لكنهم في وقت الشدة يتذكرون نتاجهم الجاهز للبيع وهذا النوع مختلف عن النوع الذي يبيع حتى ما ليس جاهزاً لديه ، أي أنه يكتب أو سيكتب عند إحساسه بالافلاس ، بل ربما يكتب لصغار الكتّاب (كما فعل نزار قباني مع إحدى المحسوبات على الشعر والتي اشترت منه القصائد للشهرة والزينة والوجاهة) ولهذا تأتي بعض أعمال هذا النوع من الأدباء مجرد بضاعة غير مثمرة لم يحن أوان قطافها بعد .

في العمل الروائي لا مكان لشراء المصادفة أو سرقة المجد على حساب نمط من القرّاء ، فالرواية فن وتأريخ وتجربة إنسانية ، وهي

فلسفة وأحاسيس ومشاعر صعبة ، إنها وعي التجربة ممزوجة بعالم الجمال ومسحوبة إلى آخر معطيات العقل البشري ، إنها الثقافة والمعرفة ومغازلة الخيال واللاّمعقول ، إنها ما لا يتكرر ، وليس من رواية عظيمة إلاّ كان كاتبها معجوناً بروح التجربة الغنية ومزحوماً بالذكريات والمعرفة وقادراً على دراسة النفس واستبطان أسرارها وخباياها ولغزها الأبدي .

**

غارسيا ماركيز يكتب من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر ، يومياً ، من دون انقطاع وعلى امتداد السنة ، واجازته أسبوعان فقط ، أي أنه يكتب بمعدل خمس ساعات في اليوم الواحد ، بينما يزداد هذا المعدل عند جورج سيمنون إلى سبع ساعات يومياً مع إجازة شهر واحد في السنة ، ولا يختلف الحال مع أي كاتب كبير ما دام قد اختار هذه المهنة الساحرة .

إن معظم الكتّاب المعروفين ، لهم طقوسهم وعاداتهم في القراءة والكتابة ، لا يتنازلون عنها بسبب كلمة نقدية طائشة أو معركة أدبية بائسة عادة ما تكون من طرف واحد .

والكتابة حياة من نوع خاص ، التنازل عنها من أجل إرضاء بعض الخواطر والنفوس ، ليس إلاّ تنازلاً عن الحياة بشهيقها وعشقها وأحلامها ومفاجآتها المدهشة ، الكتابة لمن اختارها ، ليست نزهة في عجائب النفس تنتهي حال اكتشاف هذا البطل أو موت ذاك ، إنها عملية مستمرة في الدخول إلى أسرار لاحقة لا تنتهي إلاّ بنهاية الكاتب جسدياً .

لهذا يحتاج الكاتب في كل بقعة من هذا العالم ، إلى زمن

أطول ، حتى يتمكن من الجواب على أسئلة الكون والنفس والحاضر ، وبمعنى آخر ، إنه يحتاج إلى كتابة المزيد من القصص والروايات إذا كان كاتباً قصصياً ، وإلى المزيد من القصائد إن كان شاعراً ، وكذلك إلى المزيد من الدراسات إذا كان ناقداً أو مفكراً أو فيلسوفاً .

• لكننا ، ما إن يكتب واحدنا صفحة واحدة زيادة على معدل أقرانه ، حتى تجده محكوماً بعقوباتهم ، هو الذي يستحق أن يكون حاكماً عليهم ، وإذا ما تمكن أن ينشر كتاباً عدد صفحاته لا يناسب مزاجهم ، صار عليه أن يسمع من الصفات ويقرأ من القدح ما يوازي صفحات كتابه أو يزيد . . لماذا ؟

**

الذي يحاسب المبدع على (كمية) إبداعه ، هو واحد من اثنين ، إمّا كاتب تقاعد عن الكتابة وصارت المسافة بينه وبين الابداع أطول من حلمه على عبورها ، أو كاتب فقير الموهبة يعمل على افساد الروح واحباط النفس وكسر كبرياء المبدع حتى يصبحا معاً - هو والمبدع - في صفّ واحد أمام رأي الناس بهما !

ربما كان ثمة صنف ثالث أو نوع رابع أو نموذج خامس ممن (يحاكم) المبدع سرّاً أو علناً على زيادة ابداعه ، لكنها كلها تنتهي إذا أدرك المبدع قيمة ما يعطي من إبداع ، ولا أعتقد أن هناك مبدعاً كبيراً يتنازل يوماً عن أخطر مهنة في العالم من أجل صوت ساخر هنا أو نقد لاذع غير مسؤول هناك ، العكس دائماً كان هو الطريق إلى إبداع أكبر ، إبداع دائم يُؤثّر خيراً ولا يتأثر شرّاً .

**

إن ما يكتبه واحد فقط من أدباء أوروبا أو أميركا أو روسيا ، يعادل

بميزان الحمولة ما يكتبه نصف أدباء العراق ، إذا ما حصرنا الوقت نسبياً في عام واحد أو عامين أو عشرة .

هل ينبغي ترك أفكارنا وتأجيل إبداعنا إلى حين تأتينا موافقة (الرقيب الزمني) على اطلاقها ونشرها؟ إن كمية ما نكتب فقيرة جداً إزاء كمية ما يظهر في دور النشر العالمية ، والكتابة حضارة ، إذا كثرت صارت شاهداً على تطورنا ، وإذا تعطلت صارت شاهداً على خسارتنا ، والكتابة هنا بمعناها المبدع المغيّر المتألق .

في أسبوع واحد ، سبعة أيام فقط ، حصلت على ثلاثة كتب عربية ، الأول (يحكي) في السياسة ما بعد احداث العراق عام ١٩٥٨ والثاني عن الملوك والرؤساء العرب في القرن العشرين ، والثالث سيرة ذاتية لاديب عربي معروف . . والكتب جميعها تستخدم صورة (المؤلف) وهو (يعانق) أو (يصافح) أو (يبتسم) أو (يغازل) أو (يرتمي) في أحضان الثاني الأكثر شهرة من مؤلف الكتاب !!

وحكاية (الصور) مع المشاهير ليست جديدة ، ثمة مئات الكتب التي اصدرها هذا وذاك لا شفيع لهم في رواجها وانتشارها غير تلك الصور (المأخوذة لهم) مع المشاهير .

سأعترف بأنني فوجئت بهؤلاء (المؤلفين) كما فوجئت بحرصهم على توفير العشرات من الصور وهي تأخذ القارىء المسكين إلى الظنون والافتراضات : إن المؤلف المحترم على صلة وثيقة بهذا الفارس أو ذاك (الرئيس) وعلى أقل افتراض ، فهو على معرفة أكيدة مع هذا الممثل الشهير أو تلك الراقصة (اللهلوبة) أو ذاك الأديب العالمي الذي فاز - عفواً - بجائزة العوم في بحر الادرياتيك !

**

ليست شتيمة أن نلتقط (الصور) مع المشاهير من زعماء وأدباء وفنانين ، بل تكمن المثالب في توسل بعضهم (أخذ) تلك الصور لايحاء القراء بما ليس لهم ، وقد رأيت ذات مرة صورة (احدهم) مع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، بل تجرأ على نشرها - بعد موته - وصار (يتاجر) بها شمالاً وغرباً . . ويوم كنت أدرس التراث الشعبي في (مصر) عام ١٩٧٤ جاء القاهرة أديب عراقي على جانب من السمنة والطول أراد أن (يلتقط) صورة مع الروائي الشهير نجيب محفوظ ، وكان له ما اراد ، إذا به حال عودته إلى بغداد (ينشر) حواراً قال إنه اجراه مع (محفوظ) في مقهى (ريش) ونشر صورته مع هذا الأديب الكبير ، فظهر نجيب محفوظ في زاوية من الصورة - بتواضعه المعروف عنه - بينا أخذت بقية الصورة (جثمان) صاحبنا وطوله وابتسامته العريضة (جداً) وإذا بنا بعد أيام نقرأ (ملاحظة) صغيرة في جريدة (المساء) المصرية جاء فيها :

- نشرت مجلة (ألف باء) التي تصدر في العراق حواراً مع الروائي الكبير نجيب محفوظ قال صاحبه المدعو (ي . ح) انه اجراه في مقهى (ريش) ناسياً أن كاتبنا محفوظ لا يجري أي حوار في المقهى ، بل يتم ذلك في مكتبه في جريدة (الاهرام) .

وكانت فضيحة لا معنى لها ولا حاجة إليها ، وكل ذلك من أجل (صورة) واحدة فقط!

انني اسوق هذا المثال على (جنون) بعضهم من أجل اثبات الذات ، ثمة كتب بحاجة إلى تلك الصور ، بل أن بعضها لا يستقيم بدون التوثيق والاشارة إلى زمن الصورة .

**

اتذكر الآن كيف أنني لم انتبه ، ولم أفكر اطلاقاً في لصق ملامح وجهي مع «فاليري جيسكار ديستان» يوم رأيته في أسواق الأحد (الشعبية) في باريس وهو يشتري الطماطم والباذنجان لعائلته ، كما انني لم اتحرك قيد شعرة وأنا أجلس قرب «سلفادور دالي» قبل وفاته بعامين ، ويشهد الله أنني امضيت الكثير من الوقت مع نجيب محفوظ وعبدالحليم حافظ وتوفيق الحكيم ولم يخطر ببالي أن أتمتع بأخذ صورة مع أي واحد منهم ، حتى أنني دخلت بيت الشاعر «أدونيس» ثلاث مرات ، وبيت الروائي احسان عبدالقدوس ويوسف السباعي وفريد الاطرش ولم يخطر على بالي أخذ صورة «معهم» برغم أنني لم أكن يومها غير ابن الثلاثين سنة من العمر ، بل واصغر ، ناهيك عن رؤية (كاترين دينوف) وعشرات المشاهير في باريس ولندن وروما وقبرص والقاهرة ، ولم تتحرك غرائزي صوب صورة (للذكرى)!

عندي صورة اعتز بها جداً ، مع الزعيم الكبير «عبدالكريم قاسم» أيام كان عمري أصغر من حبة الحالوب ، مع صورة أبكي في كل مرة اراها ، تجمعني مع (نصر محمد راغب) و(محمود جنداري) قبل موتهما الفاجع ، وهي تكفي أن اتباهى بها .. كلاهما غير معروف ، لكن الجرح العميق غير معروف أيضاً .

**

أعرف بأنني أقفز من فكرة إلى فكرة ، ذلك أنني مزحوم بما أريد قوله ، وأفكاري تبدو مشوشة حيناً ، لكنها في آخر المطاف لا بد أن ترسو عند الشاطىء بعد أن طال بها المشوار في هذا المحيط الشاسع البعيد ، وقد أدهشتني طبيعة ما نحن فيه من خُدع طريفة وكتابات خادعة حتى أوشكنا أن نصدق الكثير منها .

ولعل اخطر ما قاله المفكر الفرنسي (جان جاك روسو) في اعترافاته الباهرة هو «ان الرجل الحر هو الذي يفكر بعقله لا بعقل غيره» .

وهذا المنطق يرغمني على غربلة آلاف القصائد والمقالات وآلاف القصص القصيرة التي مرت على عيني وذاكرتي ، مكتوبة باقلام عربية وعراقية معروفة ، أو صارت معروفة بسبب أنها كانت تفكر وتكتب بعقول غير عقولها ، ومن هنا يصبح كل ما تكتبه اسهل من احتساء شاي الصباح ، إذ ما ابسط أن يكتب المرء قصيدة أو مقالة أو قصة قصيرة سبق لعقل آخر أن سن قانونها وابتكر أسلوبها وأبدع في طرحها وجن تحت خيمة أبطالها أو نام ملء جفونه عن شواردها ليسهر الخلق جراها ويختصموا كما يقول المتنبي .

وبعض كتابنا - المشاهير - يريد أن يكون أكثر شهرة ، لكن كيف؟ ذلك أن الإنسان محدود العمر ، والسنوات مهما طالت أو تشعبت لا تكفي أن تجعلهم بمستوى سارتر أو طه حسين ولا يمكن أن تقترب بهم من طقوس ماركيز أو امادو ، واعوام النشر في هذا العصر المرتبك العجول لا تساعدهم على قول المزيد من الكلام المبتكر والنتاج المتميز .

**

وما دامت الحال على هذه الصورة - مع منافسة الانترنيت والتلفزيون والسينما والمسرح - سيحتاج كل واحد منهم إلى (معين) يضاف إلى سواعدهم ، وإلى جهاز (مفكر) يضاف إلى افكارهم بغية أن يحقق الواحد منهم عشرات القصائد أو عشرات المقالات أو القصص القصيرة كيما يؤرشفها في جدول مستقبله (الباهر) .

وبما أن الرأي المشهور يقول (لا تفكر فلها مدبر) سرعان ما جاء (المدبر) جاهزاً أمام العيون والأوراق البيض التي تنتظر الفرج . . فهذه ، والحمد للّه ، ملايين القصص القصيرة والمقالات والقصائد ، تجدها في باريس كما في لندن ، كما في أسواق البرازيل أو اكشاك اسبانيا والمزيد منها ما زال يتطاير مجاناً في روما وبراغ بل وفي عمق الارجنتين ، وليس ثمة من يدري أو يقرأ أو ينقب أو يستفسر عنها إلا القليل من البشر ، وهؤلاء القلة من البشر التي تسأل وتدري وتفتش ما بين السطور لم تعد تلتفت إلى أحد ، إذ اتعبها وأرهق اعصابها ما رأت واكتشفت ولهذا اكتفت بابتسامة رخوة تخفي ألف معنى!

وما دامت كل تهمة بالسرقة - كما نعلم - يمكن ردها بتوارد الخواطر وتشابه الفعل الإنساني في بقاع الدنيا كلها ، إذن ، ما عليك إلا أخذ ما تشاء من تلك الكنوز وتمتع بما وهب شيطان الابداع لعقول غيرك من المبدعين .

ومن أجل اخفاء رائحة النتاج المسروق ، عليك فوراً بانواع الفلفل والكاري والبهارات المحلية لئلا يقال أي شيء عن التشابه بين رائحة كولومبيا ورائحة الناصرية أو بين طعم قصائد الأورغواي وطعم قصائد البصرة ، وأيضاً ، لئلا يقال أي شيء عن التشابه بين مقالات سان باولو بالنكهة التي صارت من نصيب مقالات بغداد أو نينوى!

لماذا لا تحسنوا رشّ الكاري على أعمالكم ما دام كل شيء متاح أمام اليدين والأصابع والعيون؟ افعلوها بذكاء وسوف نعتبر هذا الذكاء هو ابداعكم ، وهو الحق الذي سوف تملكون ، وهو كما نرى أكبر مما تستحقون ، المهم ، افعلوها بذكاء ، لا تفضحونا .

**

لم أعرف لماذا أخذوني إلى مديرية الأمن عام ١٩٩٠ ولماذا حجروني مدة يومين؟ قال المحقق : لماذا تشتم أدباء النظام؟ ولم أصدق ما أسمع ، كنت قد نشرتُ مقالة خارج العراق أحكي فيها عن حظوظ الكذّابين من الأدباء ، ولم أمسّ فيها أي مبدع من رجالات السلطة ، فكيف فكّر كتّاب التقارير عندما رموني هكذا إلى التهلكة ، واليوم وجدتُ في أرشيفي تلك المقالة التي أقول فيها :

هناك حفنة من الكتّاب لا تدري هي نفسها لماذا تكذب؟ بل لماذا تستمر في الكذب وقد توفر لها ما تشاء من اسم ومساحة للكتابة ودعوة دائمة للمشاركة في الحياة الثقافية؟ محاضرات ، مقالات ، ايفادات ، ونظرة احترام من الضيوف العرب ، إلى آخر جدول الرعاية التي لا حدود لها سوى الموت .

**

في الذاكرة نموذج من هؤلاء ، لا أحد يقرأ له ، على الرغم من كتاباته المنثورة شمالاً وشرقاً . كلامه قذف بالمبدعين وانتقاص من كبريائهم وتصغير وتسفيه نتاجهم والضحك على ماضيهم وحاضرهم ، فهو خير من يفتش في ماضيك إذا ما قلت فيه كلمة واحدة لا تناسب «كرامته» . . . تلك الكرامة التي يحفظها يوماً ويسكت عليها أعواماً - بحسب الزمان والمكان وبحسب ما يقتضيه مستوى الكرم - والويل لك إذا كان في ماضيك صفحة واحدة معوجة أو مرتبكة وأنت لا تملك ثمن عزومته ، فهو السيد الذي لا ينافس مطلقاً في فنون الاساءة ، ولسانه لن يسكت أبداً إذا ما أراد ذبحك فوراً ، وهو يبرر الخطأ باخطاء أكبر لا سيما إذا رآك على حق في رأي تكتبه أوكلام معقول نشرته ، فهو لا يأخذ من كلامك غير

عبارة واحدة أو سطر واحد يدخل منه إلى مملكة ابداعك من أجل أن يهدمها فوق رأسك من دون رحمة وبلا شفقة .

**

هذا النوع من البشر ، هو خير حليف لمن يكره الأدب ، خير أنيس وصديق لمن يريد أن يهدم ابداعنا ، ولأنه «هامشي» في ثقافته وهامشي في وعيه ، ولأنه دخيل - منذ بدايته - على عالم الفن والفكر والابداع ، فهو يضحك بصوت عال عندما يسمع قولاً لناقد يكيل القدح والذم في حق كاتب ما ، بل تراه يسرع إلى بيته ليكتب ويؤكد ما راح إليه ذاك الناقد الذي سبقه إلى تهشيم المبدع والابداع معاً .

هذا النموذج الذي يتجرأ على تمزيق العائلة الأدبية ليس من قارىء يصدق ما يقول وما يكتب ، فهو نوع من الكتّاب لا قراء لهم ، تكمن همومه في تثبيط عزيمتك ، وإذا ما رأى العزيمة أقوى ، فسوف ينتبه إلى ماضيك وسلوكك الشخصي وحياتك التي وحدك من يملك الحق فيها ، ثم يبدأ في كتابة مسلسل اخباري عن نومك وصحوك ، عن قصصك وقصائدك ، عن النساء اللواتي تغازلهن ، وعن آخر وجبة طعام تناولتها واسم المطعم الذي مضيت إليه ، بل تراه يكتب عن اسماء أطفالك ولماذا سميتهم كما تشاء ؟!

والغريب في أمره - إذا ما دخلت محض مصادفة إلى ديوانية نقاشاته التي لا تنتهي - إنك تسمع رأياً أعجب من اختراع القنبلة الذرية ، بأنه يستطيع أن يكتب في أي شيء وعن أي شيء ، ويرى في هذا الذي يقوله عن نفسه ما يجعله أكثر قرباً إلى المفكرين من المبدعين ، ولهذا ، فهو يرى في هؤلاء المبدعين مجرد مواطنين من

الدرجة الثانية ، وأنهم بالنسبة إليه ، مجرد كومة من البشر تكمن قيمتها في حشو الجرائد والمجلات ليس إلاّ .

هذا النموذج لا يكتب إلا لحاجة في نفسه ، يستلف الاحساس من عشرات الأفكار والآراء ثم يكتبها باسمه ، ثم صار يصدق فوراً بأنه يعيش في مكانه المناسب وأن ما يكتبه وينشره إنما هو بعض حقه في الإنتشار ، ما دام هو مثل سواه يكتب وينشر وفي جيبه هوية انتساب إلى أبرز تجمع أدبي في هذا البلد أو ذاك .

هذا النوع «الكذاب» محظوظ على طول الخط ، محظوظ منذ ولادته . وقد اعطاه الحظ فيما أعطى ، أكاذيب صار يعرف كيف يبرمجها لصالحه ، وما عليك أنت المبدع سوى أن تسكت ، ثمة من يقول إن السكوت من ذهب .

السكوت هو الشرخ الوحيد في مرآة ابداعنا الجميل ، والسكوت مع هذا الصنف من البشر ، خلاصة الغباء والخوف والخسارة ، السكوت هنا ، من أنواع الحرام ، إن لم يكن الحرام كله !

**

المعادلة كانت : كذّاب يعني محظوظ ، ومحظوظ يعني بعثي ، وأنا غرقتُ في شبر من الماء عندما نسيت أو أغفلت تلك المعادلة ، وبعدها صرتُ أقرأ ما أكتبه عشر مرات قبل أخذه إلى النشر ، الحياة تحت الرقابة ، والرقابة لا ترحم ، وينبغي عدم الرجوع إلى عام ١٩٧٥ وإلى ذاك القبر الذي دفنوني فيه من أجل قصة قصيرة .

برغم ذلك ما زلتُ أحتفظ بقيافة الروح ، وأناقة النفس ، كما أحتفظ بالصبر على نفش ريشي وحرق أعصابي وحريتي ، بل ما زلتُ حريصاً على طقوسي ومزاجي في الكتابة ، حتى أنني أحسدُ نفسي :

كيف أنني ما زلتُ أقرأ وما زلت اكتب ، وأعرف أن هناك طقوساً في حياة المبدع لا بد منها ، وثمة عادات وتنظيم وقت في القراءة والكتابة ، ينبغي الحرص على تنفيذها ، وأيضاً ، لا بد من جدول ذهني لمشاريعه وأيامه وعائلته ، مع أسلوب في التعامل مع السنوات والشهور ، لئلا تختلط اخطاء الماضي بأخطار الحاضر ، بمعنى آخر لا بد من ارشيف في الرأس وأرشيف في البيت حتى يرى المبدع حقيقة المسافة التي مرّ بها ومن أجل أن يعرف نسبة الحلاوة والمرارة فيما كان يفعله في بحر اعوامه التي مضت .

**

ترى ، هل يمارس كاتبنا العربي طقوساً في الابداع؟ هل ثمة أرشيف في البيت أو الرأس غير أرشيف اخباره القصيرة وابتسامته التي نشرتها الجريدة ذات صباح؟

هل سمعتم بكاتب عربي يخطط أيامه ولياليه بما ينفع ابداعه ولا يخطط ابداعه ، بما ينفع أيامه ولياليه ؟

ربما كانت الفوضى تنفع احساس المبدع وتدفعه إلى شياطين الابداع ، ربما يستفيد الكاتب وهو يشطب بروح منفلته على الزمان والمكان معاً .

ربما يستأنس المبدع مع موائد الخمرة والأصدقاء والمحبة المستعجلة العابرة ، لكنه مع هذه الحالات كلها ، لن يعيش مبدعاً أكثر من عامين أو خمسة أعوام ، إذ سرعان ما سيرى (الفوضى) التي أحبها ، مجرد هيكل فارغ ، وأن شياطينها مجرد دمى مجوفة محشوة بالقش ، وسرعان ما سيكتشف أن ما بعثره من أيام النزف الجميل ، لم يكن إلا نزفاً في حق ابداعه ومغامرة ضد مشروعه الثقافي .

هل كان (غارسيا ماركيز) مثلاً ، سيكتب (خريف البطريرك) أو (الحب في زمن الكوليرا) إذا ما عاش دون طقوسه التي صرنا نعرفها كلنا؟ وهل كان (هيرمان هسه) سيكتب (ذئب البوادي) أو (لعبة الكريات الزجاجية) إذا ما ارغمناه على أن يكون موظفاً يأتي في الثامنة صباحاً ويذهب إلى بيته في الثالثة عصراً ؟!

كيف يمكن أن نتخيل (غراهام غرين) أو (استورياس) أو (يوكيو ميشيما) وهم خلف مكتب خشبي في دائرة الطابو أو دائرة البريد والبرق ؟ ما رأيكم إذا ما ذهبنا اليوم إلى مديرية التقاعد العامة أو مديرية السفر والجنسية ورأينا هناك السادة الموظفون (اندريه موروا) و(كلود سيمون) و(موريس بونس) و(جورج امادو)؟

ستضحكون دون أي شك ، أنا أعرف بأنكم ستضحكون وتستغربون فوراً إذا ما رأيتم (جنكيز ايتماتوف) أو (هنري ميللر) أو (ميلان كونديرا) في أيما دائرة مهما كان عملها ونوعها ، ذلك أن مهنة (المبدع) تحتاج إلى ثورة في العقل وإلى أفضل حالات التأمل والخيال والتفكير والسباحة في بحر المستحيل .

**

عندما بدأنا الكتابة ، منذ ما يزيد على أربعين سنة ، كنا ندخل ديوان النشر على استحياء برغم إيماننا بما نملك من عطاء في القصة أو الشعر أو المقالة ، لم تكن أصواتنا تعلو على أصوات من سبقونا ، ولم يكن من السهل أن نحسب على سوانا كل واردة وكل شاردة ، كانت أخلاقنا في مستوى خلقنا ، وكان خلقنا في مستوى موهبتنا ، بالتالي ، كانت هذه الموهبة في مستوى الثقة التي منحونا إياها ،

الناشر أو الصديق أو أبناء الجيل الذي كتب قبلنا ، ولم يكن الحياء الذي نتعامل به ضعفاً أو خوفاً أو مجاملة أو نزولاً عند رغبة أحد ، كنا حقاً نعرف ما نريد ، ولم نكن نريد سوى زيادة المعرفة .

هل صدر أي كتاب في القصة أو الرواية أو السياسة أو الفن أو المذكرات لم نتسابق إليه؟ مع أننا لم نكن نستلم عن كتاباتنا أي فلس ، كانت الفرحة تغزونا إذا ما رأينا نتاجنا ينتشر هنا وهناك ، وما زلت أتذكر الأسماء وأشعر بالحزن السعيد يغمرني ، فما عادت من مجلة أو جريدة لا تدفع مكافأة عن كل نتاج ينشر على صفحاتها .

كل هذا رائع ومثير إذا تم النظر إليه وفق مقارنة بسيطة مع الماضي ، ولكن السؤال الوحيد الذي نسأله بعد هذه السنين الطوال الممتدة من سواد الماضي إلى بياض الحاضر : لماذا يدخل بعض كتابنا الشباب مجزرة المساومات والشتائم والتشهير والمقايضات والمبايعات؟ لماذا وأكبرهم لم يصل بعد منتصف العقد الثالث من عمره؟ هل تراها موهبة أخرى تضاف إلى بقية المواهب ، أم هي مجرد رغبة في الظهور؟

**

ليس هذا محض اتهام بلا دليل ، فقد فوجئت بنماذج من هذه المساومات والشتائم والمقايضات والتشهير والمبايعات ، لم يكتبها وينشرها سوى بعض أحبابنا الشباب ، موهومين بنصر كاذب على حساب هذا المبدع أو ضد كبرياء ذاك الكاتب من ابناء الجيل السابق ، ولست أدري ما هو الثمن لكل هذا التخريب ؟

كل ما هو عراقي من شعر وقصص وموسيقى ورسوم ومسرح

وروايات ، هو ملك حضارة العراق ، نبدعه ونتركه أمانة في متحف هذا البلد العزيز ، أية قيمة لكاتب أو شاعر أو فنان دون هاجس الانتماء العميق للعراق ، اسم العراق ، سمعة العراق ؟

أيها السادة ، انتبهوا رجاء ، الخسارة موجعة جداً .

7

قانون العار

كم أحزنني الخبر الذي جاءني منذ يومين : مات الشاعر يوسف الصائغ ، يا للهول ، كيف ينتهي الشعراء بهذه السرعة؟ كنت قد رأيته في دمشق قبل رحيله بتسعة أيام ، قال لي : لماذا كتبتَ ضدي؟ قلت له : أنا كتبتُ عن يوسف الثاني الذي تبّرع بسمعته من أجل المال والوظيفة والشقة التي منحوها إليه مجاناً عندما تبرأ من الحزب الشيوعي .

يوسف الصائغ لا يدري بما كتبته بعد ذلك عنه ، فقد رحل بسرعة بعد تكريمه في الشام ، كم كنت أتمنّى عليه أن يقارع الظلم ، لكنه اكتفى بالصمت سلاحاً لئلا يأخذونه ثانية إلى الهلاك والعتمة والصمت .

**

يبتعدون عنك ، وتقترب ، أيها السيد المقيم في الابداع ، ها أنت اليوم تبتعد عنهم ، ويقتربون ، لا بد أنك تعرف أن الاقامة في الشعر والحياة والقراءة ، معجزة المبدع ، كم اختفى منهم ، ويختفي ، وكم ترك المقام ، وكم هاجر ، وكم غادر منهم ، ولم يبق في امبراطورية (الصبر) سوى النخل الشيخ العنيد ، شجر السنديان الشامخ الملتهب العاشق ،

بطولتك أيها المبدع الجميل ، من بطولات نخل العراق ، من شجر العشق الذي لا ماء سوى الفرات يغازله ويرويه .

أنا اقرأ ما تكتب ، هذا يعني بالنسبة لي ، أنني جمعتك في نخبة من اساتذتي ، نيرودا ، رافائيل البرتي ، أدونيس ، الجواهري ، غارسيا ماركيز ، ديستويفسكي ، ميلان كونديرا ، شولوخوف ، وليم فوكنر ، وسارتر ، وارغمتك أن تعلمني ، أيها المهذب الذي يرفض أن يغادر جسد الطفولة والصبا والمحبة الحارقة .

أنا أيها العزيز اقرأ كيف تختار اللوعة في سلة من حنين ، وأرى كيف تملأ حقائب البنات بتفاح البكاء ، أيها الشاعر الذي لا ينام قبل أن تستجير منه خمرة السعادة (إنه سيحتاج إليها غداً) أجل ، مع سبق الاصرار ، أنا اقرأ ما تكتب ، وأنا فخور بأن هذا الثراء جاء من لحم العراق وتربته ونخيله ولوعته وماضيه وحاضره ولمسة النساء فيه .

**

لا أصدق أبداً ، بانك (فلاح طيب) ولا أريد أن أكرر بعض ما يقال عنك ، فقد رأيت من (ابداعك) ما يجعلني اخاف عليك من الصفات التي ترفع هذا وسيلة من أجل أن تصفع ذاك ، أجمل ما فيك هو أنك فوق مشيئة النقد والدجل المباع في سوق الوجاهة ، تكتب ، ترى ، تعيش كما ينبغي أن يكتب الشاعر ويرى ويعيش ، لا أحد يملك أن يرغمك على كتابة بيت من الشعر لا تؤمن به ، وليس من كائن تمكن أن يسحبك إلى مسلخ الشتائم والموائد المستباحة مسبقاً .

أنت (يوسف الصائغ) المبدع ، المتميز في اختيار كائناته ، واعترافاتك ما زالت عندي ، اقرأ فيها القليل من أسرارك الصغيرة ، أعرف كم تركت من أسرار خلف الورق المزحوم بعيون الرقابة المسكينة

الوقورة ، لم تزل ترى - هذه الرقابة - كيف تمنع الطعام عن الجسد ، كيف تخلع الثياب عنا في الشتاء وتفرض أن نلبسها في الصيف .

أعترف أن المسافة بين الشعر والكائن الشعري ، أطول من بحر ، وأنها مسافة لا ترى من أول وهلة ، لكنك في ديوانك الكامل وفي السنوات العشر المنصرمة ، قطعت المسافة ودخلت الحالة التي نراك فيها ، كائن من الشعر والحزن والرضا المستحيل (كائن من الشعر في الشعر ، هل ترى نفسك هكذا؟ أم نحن رأيناك على هذا الشكل الكبريائي اللامع)؟

أرجوك أن تعذرني ، إذا ما قلت (شكراً على ديوانك الطالع من شغاف اللوعة) قرأته قبل أن تهديه إلي ، أنا أفهم أن الكتابة لا تأتي كل يوم ، تماماً كما النساء ، ولهذا أرى من العبقرية أن نجلس بانتظارها ، كما التلاميذ ، لا عيب إذا ما جلسنا كما الأطفال ، هادئين ، إذا كنا ننتظر القصيدة أو ، ننتظر المرأة ، كلاهما يستحق الصبر واللوعة أيها الشاعر .

ربما تسأل عن سبب الرسالة ، ولماذا اكتبها وانشرها على قرائي؟ لك الحق في أن تسألني ولهم الحق نفسه ، والجواب بسيط جداً ، سأقول :

- كم فات من سنوات العمر علينا ، نحن أدباء العراق ، ولم نكتب عن بعضنا ، إلا لغاية في نفس يعقوب ، أنا اليوم ، وكما ترى ويرى القراء ، لا غاية لي في الكتابة عنك سوى التأكيد على قيمة المبدع العراقي ، بعد أن شبعنا من توثيق ودراسة ومتابعة أدباء العالم جميعاً . . ونسينا أنفسنا تماماً .

**

في الثاني عشر من مايس ١٩٩٠ كنت في القاهرة ، عندما دخل الشاعر محمد عفيفي مطر ، كنا في أتيليه القاهرة الذي يجمع الفنانين والأدباء ، أخذني عفيفي جانباً وقال :

- يجب أن تبقى في القاهرة يا عمّار ، ابن الرئيس كتب عنك كلاماً سيئاً وقد يعتقلونك ثانية إذا رجعت .

ثم أخرج من جيب معطفه الصيفي صفحة من جريدة (البعث الرياضي) جاء بها من بغداد مكتوب في أعلاها (تعقيب على عذاب مزعوم) مع علامات تعجّب وراء العنوان ، نظرتُ إلى عفيفي بكثير من الجزع :

- كان ينبغي السفر بعد يومين إلى بغداد ، ماذا أفعل؟

قال عفيفي :

- أنت تعرف بلادك أفضل مني ، وبخاصة ابن الرئيس المعتوه ، ربما يصل الأمر إلى قتلك ، وأنت تعرف بأنهم لا يمزحون ، اقرأ ما كتبه عنك ، باسمه شخصياً وليس باسم مستعار كما يفعل في كل مرة .

#

﴿والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللّه كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون*﴾ صدق الله العظيم

نشرت جريدة القادسية في عددها ٣٢٤٧ ليوم الأحد ٦ أيار الجاري . . مقالاً تحت عنوان (رسالة في العذاب المبدع) يجده القارىء اسفل هذا التعليق . . وقد

حـوى هذا المقـال مـا يخـدش الذوق العـام . . فـهل عجزت لغتنا العربية الجميلة بكل مفرداتها الكبيرة والغنيـة . . لكـي لا يستـعين هذا الكاتب البـائس إلا بمفردات من كتاب الله الكريم . . ليصف حباً تائهاً غير مشروع . . ويطلق على امرأة يقرنها بأتعس الصفات . . لقب «النبية» .

ما كان لجريدة مثل جريدة «القادسية» أن تنشر مثل هذا الفـعل المشين . . خـاصـة أنهـا واحـدة من أوسع جرائدنا وصحفنا انتشاراً .

الحقيقة التي يجب أن نفهمها على الدوام هي أن اللّه عزّ وجل هو ربنا في كل مفاهيم الحياة . . فلولا نعمته لما كنا في مـثل هذا العـز . . فـهـو الذي أنعم بالنفط علينا . . وهو الذي أنعم بالنصـر علينا . . وهو الذي غرس في نفوسنا الغيرة والشموخ والرفعة . . لندافع عن نساء وحرائر العراق قبل أن ندافع عن أنفسنا . . وأخـيـراً هو الذي خلقنا على هذه الأرض . . لنملك ونكتسب منها كل صفات الخير والرجولة . . بدلاً من أن نخلق على أرض الأجانب والأعاجم حتى نكتسب كل صفات «الرزالة» .

واليـوم يأتي شـخص لأجل حب أعـمى وممسـوخ . . يخاطب الحبيبة بالفاظ من القرآن . . وهو شخص مليء بعقد ينسبها إلى الفقر ، في حين أن الفقر أخذه واستخدمه رجال ليكون لهم انطلاقتهم الأبدية باتجاه

الثورة وبناء الحياة . . بدلاً من ان يعيشوا في الوهم من الفقر الذي يخلقونه . . والمطلع على كتابة هذا الكاتب يجده يبذخ في وصف نفسه (كازانوفا) أو زيراً للنساء . . وأنا مستعد أن أحكم عليه حتى قبل أن أراه أو اعرفه . . وإنما هذه هي طبيعة الشباب ممن شاهدناهم في حياتنا أثناء المراهقة في الحياة أو شبابها . . فإن من يتكلم بهذه الطريقة عن المرأة «وكيف الحال عن الحبيبة» هو أول من ينكر الحب وهو أول من يجهل مفرداته الكبيرة . . وبالكاد يعرف كيف يخاطب أو يغازل الحبيبة . . أو أنه لا يعلم إلا مفردات مخاطبة الغانيات من النساء ومن خفافيش الليل!!

وتحت هذه الكلمة نشر الرسالة التي كتبتها ، وأيقنتُ أن هذا المعتوه صار يكرهني ولا بد من الحذر ، مع ذلك رحت أقرأ الرسالة حتى أرى ما الذي أغضبه إلى هذا الحد :

بارك اللّه في اليوم الذي عرفتك فيه سيدتي . . ليس من السهل أن يعيش الإنسان عذاباً مبدعاً قاتلاً كما أعيش . . اعطاني حبك يا مولاتي أجمل محنة في حياتي . . أنا أشكرك على هذا الحزن الطافر من جسدي . . أشكرك جداً فقد سلّمني حبك سيدتي إلى أحب مأساة في عمري .

نزل المطر اليوم ومشيت في الشوارع وحدي اكرر بيني وبين نفسي (إذا أنت هدمت حياتك في أرض فهي خراب أينما حللت) وأنا هدمت حياتي يا ولية أمري ،

هدمت حياتي تماماً . .
الشوارع مبللة بالذكريات والدنيا (صايرة هوسة) كما تقولين . . لكني الرجل الوحيد الذي يقطع الدروب تحت المطر وافكر في (الكنز) الذي غضبت من بريقه فاهديته إلى عالم بلا حدود .
أي نوع من النساء أنت؟ كيف لم أفهم سرك العميق وأنت معي؟ كيف هدمت حياتي وصار الخراب يضحك مني؟ لماذا صارت الخسارة - دائماً - من نصيبي؟ ولماذا بات على إنسان مثلي أن يخسر ويخسر حتى صارت كلمة (الربح) مجرد أكذوبة في قاموس حياتي؟
هذه رسالة عن نفسي اعترف بها واحكي لكِ بعض حياتي .
في اليوم السابع من شهر حزيران عام ١٩٤٧ جئت إلى الدنيا في صوب الكرخ ، لكن عائلتي انتقلت - وعمري أسبوع واحد - إلى صوب الرصافة في محلة اسمها الطاطران في بيت من البيوت المجمدة . . وفي هذا البيت بدأت حياتي .
كان البيت أصغر وانظف بيوت المحلة . . قال عنه أبي (إنه بيت الملائكة الصالحين) لكنه لم يكن كذلك مطلقاً . . كنت يا سيدتي اشرس أطفال المحلة . . اضرب من أشاء واغفر عمن اشاء . . طفل عنيف مخبول يخاف منه حتى الضيوف الكبار الذين يزورون

دارنا بين وقت وآخر . . أبي رجل ذو تجارب لا رقم لها ولا حدود . . لكنه لم يفهم تجاربه ولم يعش معانيها أبداً . . وأبي - كما تعلمين - كان البطل الأول في كتاباتي وجنوني . . وأنا أحبك بالجنون الذي أورثه لي أبي . . أحبك بالعنف والهوس والعصاب الذي عاش معي منذ طفولتي . . انني أخاف خراب روحي . . وليس من أحد ينقذني غيرك يا مولاتي . . وأعرف أنك مثلي - مثلي أيتها الهادئة التي يشتعل في جسدها الدمار والعنف والجنون - وإننا معاً وبهذا الجنون سنعيش حياتنا وننقذ بعضنا من رعب الحاضر ومن غموض المستقبل .

اصرخ دائماً في كل شبر أمشيه : انني أحبك حتى العبادة .

**

يأخذني المطر الجميل إلى طفولتي وأبكي حياتي التي هدموها . . واسكت مثل أرنب مذعور . . كيف تكون طفولتي ورجولتي داخل هذا الغلاف الرمادي المحروق؟ كيف اساعدك على حياة أجمل . . وأنا احتاج يا مولاتي إلى من ينقذني من اعصابي ومن حروقي التي تشتعل تحت رذاذ المطر؟

سبحان الذي اسرى بك نحوي . . سبحان الذي جعل الحب كله منك .

كيف تراني أيتها النبية الرقيقة أصبر على فراقك بعد

أن تعلمت على اختصار همومي وعذاباتي بين يديك؟
أي زمان غريب صار زماني؟ وأي جزع صار جزع مساماتي؟
تعلمت عليك حد الخوف منك . .
عندما نزلت إلى هذه الدنيا . . رأيت عائلتي افقر خلق الله . . لن أذكر لك مهنة والدي . . يكفي أن تفهمي أننا فقراء . . وكان هذا الفقر يقتلني .
إن في داخل كل شريان من جسدي نسغاً من المباهاة . . كل وريد تحت جلدي وكل شريان ينمو بين جروحي كان يرفض الفقر ويبكي على سوء حظي .
إن كل نقطة دم تسري على امتداد عروقي . . إنما هي من دماء الملوك والفاتحين والاباطرة . . هل تنكرين أنني كنت (ملكاً) متوجاً على جسمك الأبيض المجنون؟
هل تنكرين أنني فتحت كل مسامة من مسامات جلدك المغلق الصبور؟ هل تنكرين يا سيدتي أي امبراطور ارعن فاسق اهوج كان هذا الذي يقول (احبك) في الليل والنهار؟
كنت أريد أن أكون أغنى رجل في العالم . . كنت أريد الثأر من أيام الفقر والحاجة والعيون الحزينة التي تنظر إلى أموال الغير بذعر وحسد . . كنت أريد السفر والنساء والدنانير والثياب الفاخرة والمركبات الباذخة والبيوت الشامخة . . وكان كل هذا محض

حلم دام معي منذ طفولتي .
أنا مغرور كما تقولين عني . . لكن - يشهد اللّه - ما كان غروري هذا إلا جواباً على أيام الذل والبؤس والكوابيس والجروح التي ازدادت في هيكل عائلتي . .
ماذا يفعل الفقر سيدتي إذا دام عشرين سنة أو تزيد؟
ماذا يفعل الفقر وقد صار مثل عملاق وسخ حقير يدخل البيت ويخرج منه كما الشهيق ومثل الزفير؟
بارك اللّه في اليوم الذي رأيتك فيه . . إنه أغنى أيام عمري . . أنا يا سيدتي بفضل عذابك صار قلبي انقى قلوب الدنيا . . بهذا القلب النقي الغني التعبان سوف أحبك حتى يسكت نبض قلبي .

**

كان محمد عفيفي مطر ما يزال على مقربة مني ، سألته وأنا أبتسم ساخراً :

- هل تستحق رسالة كهذه أن يموت إنسان بسببها؟ في أي عصر نعيش؟ العالم في طريقه إلى اكتشاف السماء ونحن نخاف من رسالة حب!

قال عفيفي :

- ماذا ستفعل؟ تعال إلى شقتي ، أنت الآن بأمس الحاجة إلى ما تبقى عندك من نقود .

كل واحد منا يعلم تماماً ، أن المبدع في جمهورية ابداعه ، لا يدري بما يدور حوله ، فهو - ابان عملية الكتابة - شأنه اقرب ما يكون شبهاً بمن يعوم في بحر شاسع ، حيث تشترك متعة السباحة ولذتها مع

الخوف من هذا العفريت المائي الممتد إلى سواحل النجاة أو التهلكة .

ليس ثمة ازمة بين القارىء والمبدع ، كلاهما يعيش في (قريته) الخضراء بعيداً عن ملامح الثاني ، ربما يفكر القارىء أن يسأل عن هذا المبدع ، ربما يذهب زائراً إلى قريته ويرى سقف بيته ، ربما يشرب كأساً في حضرته ، وأيضاً ، ربما يفرح المبدع بهذه الزيارة ، ربما يبتسم في حضرة القارىء ، لكنه ، ما ان يغلق باب بيته حتى يفتح أبواب جمهوريته الصغيرة ، وهناك سوف ينسى كل شيء إلا شياطين ابداعه واقرانه الشيوخ من ابالسة وعفاريت ومشعوذين واباطرة وفاتحين ومؤمنين يعطونه وجبة أخرى من السحر والخيال والغرائب والابداع .

**

ها أنا في أزمة من النوع الثقيل ، مع من؟ مع أكثر الناس وحشية في بلاد ما بين النهرين ، هو نفسه من يغتصب البنات الجميلات ويأخذهن من الجامعة بالقوة ودون أن يعبأ بما سيفعله الآباء إذا ما عادت المسكينة إلى دارها وقد سلبها عذريتها ، هو نفسه من جاء يحاسبني على رسالة حب بريئة وطاهرة ، فماذا سيفعل هذا الوحش بي إذا ما رجعتُ إلى بلادي !

المبدع حالم كبير ، فكيف يمكنه العيش مع الوحوش؟ ثمة فارق عظيم بين اللص والشاعر ، بين المشعوذ والمؤمن ، بين الحاقد والعاشق ، لكننا في بلاد الضباع متساوون في كل شيء ، لا فرق بين ظالم ومظلوم ، بين كاذب وصادق ، بين كلب مسعور وإنسان مغلوب على أمره ، كل شيء كان ممكناً في جمهورية الزناة .

**

لم أعثر على مفردة تناسب ما أريد قوله سوى كلمة : حرام ،

حرام ما نرى ، حرام ما نقرأ من سطور يكتبها الطغاة والجناة دون حساب لكبرياء الناس ودون التفات إلى عذاباتهم وابداعاتهم ، والعجيب أن بعض رفاق المهنة صار صاحب حق في الضرب وفرز العيوب ، كما يفعل الطغاة أنفسهم .

ثمة من يأتي بالسوط ويجلدنا ويشطب على تأريخنا ، يغلق حناجرنا ويكسر أقلامنا ، لماذا؟ من الذي يستفيد إذا ما انكسر شراع القلب وهاج وماج بحر الأحقاد وليس من طوق نجاة ولا سفينة على مدّ البصر؟ من يملك حق الضحك علينا والسخرية منا ، ونحن لا شيء عندنا من أموال الدنيا غير القصص والقصائد والسلام؟

ليس من تاجر بيننا ولا غنيّ واحد في صفوفنا ، حاربنا الفساد والمثالب والأخطاء بسلاح من الهدى والجمال والحروف المقدسة ، أعطينا أعمارنا إلى جبل من الصبر والقناعة والرضا ، فهل نستحق أن نقرأ الشتائم وهي (تزخ) علينا كما المطر الأسود؟! ومن أجل من؟ لماذا تنشق (المواهب!) عندهم عن كليمات وصفات ومواعظ (مزوّرة) لن يتضرر منها سوى إبداعنا ، وربما رقابنا بعد ذلك ، هناك ألف وسيلة حتى تخبرونا بأننا أخطأنا ، وكما يقول أبو تمام :

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة

ولكن عين السخطِ تبدي المساوئا

وأغرب ما في الغرائب أن يأتي أحدهم ليقول عن أديب كبير بأنه : أصغر من دعسوقة في حجمه وأكبر من كل فضلات بغداد في رائحته .

قالها أمام من؟ قالها في حضرة أكبر الطغاة ، مفترضاً أن كلاماً كهذا لم يكتب أبداً حتى في كتب المعرّي أو سقراط أو الشيرازي ،

بل يقول الشيرازي نفسه :

- كن كشجرة الصندل تعطّر الفأس التي تقطعها .

بينما يقول سقراط : اعرف نفسك .

**

أعطاني عفيفي نسخة من مفتاح شقته ، ليس معي غير ثلاثمائة جنيه مصري وهي لا تكفيني أكثر من سبعة أيام ، هذا يعني أن بقائي في القاهرة يشبه المستحيل إذا لم أكتب وأعمل ، لكنني في الوقت نفسه كنت أسأل بعض من أعرفهم في السفارة عمّا إذا كان من شيء يخصني في بغداد ، وطبعاً كان الجواب دائماً : لا شيء عنك ، حتى إذا ما جاء مساء الجمعة الأخيرة من الشهر الخامس ، إذا بي أرى أحد الشعراء المخنّثين من أزلام السلطة ، سألته عما يعرفه عن رسالة ابن الرئيس ، فقال : تعال معي ، سوف أتصل ببغداد ، وفعلاً ، رأيته يرفع التليفون على مدير الأمن كأنه يتصل بصديق قديم ، ثم قال باسترخاء :

- اطمئن ، يمكنك العودة متى شئت ، لا شيء عنك يستحق الخوف ، كلام شرف .

وبرغم أنني لا أثق بشرفه ، وجدتني أتهيأ للعودة بعد أن اتصلتُ بعائلتي وأخبرتهم بأنني سأكون في مطار بغداد يوم الأحد في الخامسة عصراً ولا بد من شخص ينتظرني هناك .

كنت مرعوباً من سماء بغداد ، كم من الجرائم تحدث كل يوم تحت هذه السماء المغبرة؟ لكن الطائرة هبطت ولم يعد من الممكن فعل أيّ شيء سوى انتظار مصيري ، وكم أدهشني أنني دخلتُ باحة المطار وخرجتُ دون أن يهجم على جسدي وحقائبي أيا شبح (منهم)!

أحتفظ بذكريات خاصة ، تركتها في حقيبة الخوف والهلع على أمل في الروح أنها ستظهر ذات يوم وترى النور مهما طال أو تشعّب زمن الرعب .

لا فائدة ، لم يعد من أثر في النفوس ، برغم آلاف الكيلو غرامات من الكلام الخشن المفيد السافر ، الكلام الذي كان نصفه - أيام زمان - يهدم الجبال ويحرق الاعشاب ويشعل البراكين ويقلب الدنيا على رأس من يقرأ بعضه . . لا فائدة ، صار الكلام المكتوب مجرد حبر مسكوب بلا نفع وبلا تأثير وبلا فائدة !

**

كانت المحنة أكبر من بطولة الكلمات ، وأبعد كثيراً من حنجرة الناصح الغاضب ، صار الوقت تحت اقدام المال ، ولم يعد من أحد يحترم الثراء البشري الذي ما زال اسمه الضمير ونكران الذات . . كم تملك؟ ان ثمن المسافة التي امشيها معك ، سينتهي عند الساعة التاسعة ليلاً . . من يدفع أكثر ، سنحبه أكثر . . وتطول المسافة أياماً أبعد ، لا نقاش أيها السيد العزيز ، جميلة هي المصالح المتبادلة ، وإن جاءت بالعملة الصعبة ستكون أجمل .

لا نريد أن يغادرنا الكائن الطيب الرقيق المتسامح البسيط الذي يسمى (الإنسان) ونرفض أن يأتي إلينا كائن السحت والتدليس والبيع والشراء ، لكن الغرائب قد تفرض سيادتها علينا سنة من العمر أو سنتين ، ذلك أن أعظم الناس (ابداعاً) صار يشتري حماية يومه وزمانه بالمزيد من التزوير والضحك على الذقون ، بينا ينزوي (الإنسان) خلف جدران الصبر والدعاء والقناعة التي كانت كنزاً .

وما عاد يكفي أبداً ، أي صبر ودعاء وقناعة ، فقد سيطرت

(المحنة) على شريان القلب وصار من العسير على هذا القلب أن ينبض حتى أمام الأطفال والزهور والسحب البيض الساحرة الطرية ، صار القلب العظيم محض شيء زائد في الجسد البشري ، مجرد شيء يسهم في ديكور الحاضر ، وسيأتي الوقت الذي يباع فيه للاغنياء والمرابين وإلى من سيدفع أكثر .

لا فائدة ، لن تنفع الكلمات بعد اليوم ، إننا نخدع أنفسنا ليلة بعد ليلة ، نوهم أنفسنا بشيء اسمه الضوء الذي ينبعث من اعماقنا ، غافلين أن ذاك الشعاع الإنساني الباهر الذي كان يغمر نفوسنا ، صار مجرد بضاعة في المزاد ، يأخذها تجار السوق السوداء ويحرقها تجار السوق السوداء ، ربما كانت بضاعة في مناقصة لا يحضرها سوى هواة الانتيكات والسكراب والتحف العتيقة البالية .

ماذا حلّ بمدارسنا وجامعاتنا وبيوتنا وأزقة حاضرنا؟ نريد أن يسمع هذا الجيل كل شيء عن ماضينا ، أن يرى ويقرأ حضارتنا بعمق وأن يعرف اسباب هذه المؤامرة الكبرى علينا ، لا نريد أن نرمي بأوراق التوت عن اجسادنا إذا بما خسرنا مرة أو خسرنا مرتين ، فماذا سنفعل؟ ماذا سنكتب؟ هل تكفينا مجرد قصائد تصرخ أو قصص مريضة نرميها إلى العقول؟ ومن ترى سوف يسمع أو يقرأ الحقيقة إذا ما كتبنا صراخاً بلا معنى أو نقشنا قصصاً بلا روح؟ صدورنا عامرة بالكوابيس والشجون والأسى والحيرة ، ولن ينقذها الكلام الكاذب والتدليس على أعظم حقائق اليوم .

**

في بداية عمري (القصصي) مسّني احساس بالكبرياء والغرور ، وأنا أنشر القصة الخامسة في مجلة (الآداب) اللبنانية ، وبسبب شهرة

هذه المجلة آنذاك ، تهيأ لي أنني (وصلت) وأن رتبة (قاص) قد صارت من حقي .

لكنني بعد أن نشرت القصة الخمسين ، نظرت إلى طريق (الابداع) وأدهشني فعلاً أن أرى نفسي في بداية بدايته ، وأنني لم أنطلق بعد .

ماذا نقول اليوم عن حفنة من كتّاب القصة ، الذين ما ان ينشر الواحد منهم قصة واحدة أو قصتين ، حتى تراه يدخل من باب هذه المجلة أو تلك الجريدة وهو يضرب مكاتب المحررين و(يأمرهم) بنشر الثالثة ، مادام (سيادته) قد نشر مرة واحدة أو مرتين ، وهل يدري هذا النوع من الكتاب (الكاوبوي) أن فرانز كافكا العظيم حتى بعد أن نشر أول رواية له ، كان يدخل على اقرانه في دور النشر وهو يستأذن (الساعي) بالدخول ؟

وهل يعلم هؤلاء أن غارسيا ماركيز ما زال حتى هذه اللحظة يشعر بالخجل إذا ما تأخر عن موعد مع أصحابه ، لئلا يقال بأنه (صار أكبر)؟ وهل من الضروري أن نعطي قائمة طويلة عن تواضع الكتّاب السوفييت ، بحيث أنك إذا ما جلست مع شولوخوف - رحمه الله - أربع ساعات فهو لن يعطيك حتى فرصة أن تعرف أنه شولوخوف ما لم يتجرأ أحد من الجالسين ويخبرك بأمره؟

أين هذه البساطة وهذا التواضع وهذه القيمة العليا من نفوس من يكتب اليوم؟ إن الفن والأدب والمعرفة دعوة للنفوس أن تهتدي إلى ما هو أفضل ، دعوة للعقول أن تنمو بصورة اعظم ، ومن لا علاقة له بالفن والأدب والثقافة لن يرى في الحياة إلا شكلها النمطي الساكن .

إن الشاعر الكبير رسالة وموقف ومبدأ واضافة وتميز وقيمة ،

وكذلك الحال مع أي مبدع في بقية الفنون ، ولكن ، ثمة أعمال محسوبة على ابداعنا الشعري ، وهي في أحسن حالاتها ضرب من المرض الشعري أو الشعر المريض ، ثمة ديوان كامل ، لا يقول ولا ينطق بشيء ، لكنك ترى النقد مشغوفاً ومشغولاً به ، وكذلك الحال مع مجموعة قصصية ليس فيها سوى الثرثرة ، ثم يأتي ناقدك ليقول إنها (ثورَة في التجديد) بلا حساب وبلا احساس .

**

غائب عن هؤلاء حتى الوطن ، ليس من اشارة إليه ولا من مكان ينطق به ، كأنهم قادمون من وراء البحار ، إلى جزيرة غنية معطاء وما عليهم سوى استثمارها وقطف ثمارها ثم نسيانها في أول فرصة ، فهل (فعلها) شولوخوف الذي تغنى بالدون الهادىء؟ وهل ارتكب هذه الحماقة (حمزاتوف) الذي تضرع إلى بلده داغستان؟ وهل نسيها سارتر في ثلاثيته الرائعة؟ وهل يمكن نسيان الطيّب صالح وحنينه إلى مسقط رأسه أو نجيب محفوظ في جميع ما كتب؟

الوطن في (أعمالهم) غائب وبعيد ، وحتى إذا ما اقترب الوطن قليلاً ، فهو غريب وغير مرغوب فيه ، متروك خلف هموم صغيرة هي في أحسن حالاتها هموم مريضة لا أصل ولا عمق فيها إلا عمق المرض واصالته حسب . . صور خادعة ملفقه كاذبة بين سطر وسطر ، توحي بأن الوطن هناك ، قريب من الجسد ، لكنك ما إن تطيل النظر إلى تلك القصص وتلك القصائد (الفاتنة ، المغرية) حتى تكتشف أن الوطن محذوف مع سبق الاصرار ، ذلك أنه (موضة) قديمة لا تناسبُ كتابات الحاضر!

حتى الجزيرة الخالية إلا من نفر قليل ، يمكنها أن تخلق شاعراً

أفضل من هذا النوع الذي يرى في وطنه مجرد مكان لقضاء الوقت ، أو مكان لمزيد من الفوائد والمكاسب من دون أي احساس بما تعنيه كلمة (وطن) ومن دون أية مشاركة في بناء هذا الوطن .

إن البقاء في (دائرة الحضارة) حق طبيعي لكل إنسان ، وكما يقال «إن قوة الفرد من قوة المجموع ، وقوة المجموع هي اصلاً من قوة الفرد» أما أن يستهين هذا الفرد بكل عطاء المجموع ويرى في نفسه ما يجعله خارج حدود الناس ، ويكتب عن حالات لا علاقة لنا بها وأمور لا نعرفها ، فهذا نوع من خيانة المبدع لرسالته ، لا سيما إذا صار هذا النمط من الكتابات اساس اهتمامه ومركز اتصالاته .

8

أرشيف حياة

إذا ما اعترض رجل في العشيرة على جزء يهدى إليه من لحم الخروف ، فهو يرفض أن يسامر العائلة التي أخطأت في حقه ، وإذا أراد أن ينتقم بالطريقة نفسها فهو يقدم إليهم قطعة لحم عسيرة على الهضم من خروف عجوز !

ويبدو أن بعض المنتسبين إلى عشيرة الأدباء يعمل بأسلوب أفضل في عملية توزيع لحم الخروف على أبناء العشيرة الواحدة ، أسلوب لا نقاش فيه (والخطأ مرجوع لطرف واحد) . . ذلك أن غنائم وفوائد واستثمارات المشغل الابداعي لا تصل إلى المبدعين باعتبارها حقاً طبيعياً من حقوقهم ، بل نراها دائماً - تلك الفوائد والغنائم كلها - من حصة الأدباء الاداريين المتقاعدين عن الكتابة والابداع ، الذين صارت أعلى وأغلى أحلامهم تكمن في سحق وردم أحلام المبدع وتسويف حقوقه .

وإذا كان المبدع لا يملك في الدنيا غير الابداع - والابداع كما نعرف بحاجة إلى تجارب وسلوك وأساليب وحياة تنبض بالمبتكرات وتصبو إلى تحريك السكون إذا ما خيّم فوق أيام المبدع - يكون

السؤال : من أين لهذا المبدع المسكين أن يعيش تجربة أفضل أو سلوكاً أجمل أو حياة أشمل إذا كان الأديب (الاداري) بالمرصاد لكل نافذة يدخل منها الهواء إلى رئتيه ، ولكل باب يأخذه إلى السعادة وإلى المزيد من الابداع؟

**

إن تفسير الديمقراطية بالنسبة لهذا (الاداري) هي أن تقول ما تشاء وقت ما تشاء ، شرط أن تفعل كما يريد ، بمعنى آخر ستقول ما يمكن قوله شفاهاً ، لكنك لن تكتب ولن تفعل أي شيء إلا ضمن ما يحقق المنفعة له ، وبمعنى آخر أيضاً : أن تصرخ في بئر مهجورة حتى تتعب ، ما دام هذا الصراخ لن يؤثر على مصالح (الاداري) ولن يأخذ منه وظيفته ولا فوائده في الحياة الثقافية .

كل واحد منا يدري أن الأديب الإداري هو الذي يأكل حصة المبدع في السفر إذا ما توفرت فرصة السفر ، والأديب الإداري هو الذي يلتهم نصيب المبدع في النشر حال ما يتوفر النشر ، بل يسرق دوره في المهرجانات الأدبية والفنية ، فتراه الأول في تمثيل الأدباء في المحافل العالمية والعربية - مع ابتسامته الطيبة - وهو الأول أيضاً في توقيع إتفاقيات الثقافة والصداقة بين المبدعين - مع ابتسامته الطيبة - والأول هو دائماً في مؤتمرات الأدباء ودون اعتراض من أحد ، وهو الأول في توزيع الدعوات - بنفسه - حول العالم وعلى مقاعد الدرجة الممتازة في الطائرة والفنادق ، بل هو الأول في الحلقات الدراسية والندوات والدعوات أمام اشهى المأكولات .

**

ترى متى يجيء الوقت الذي يعترض فيه المبدع على هذا الجزء

الرديء من لحم الخروف؟ وإذا ما تمكن من الاعتراض كيف به - وهو لا يملك ثمن الخروف العجوز - إذا ما أراد أن ينتقم لنفسه على من طردوه وأهملوه وعلى من اقتسموا لحم الخروف الطازج على غفلة من غياب المسؤولية وغياب المسؤول في وقت واحد؟

هكذا كان الحال في زمن الطغاة ، رئيس وفد الأدباء ليس بأديب ، بل هو كاتب تقارير عما ستقوله وتفعله ، سيرى الكتاب الذي تشتريه والبرنامج الذي تراه على شاشة التلفزيون ، سيكتب (لهم) بمن اتصلت وماذا أكلت وكم مرة ذهبتَ فيها إلى المرحاض ، فهو رئيس الوفد (على سن ورمح) وعليه أن يثبت ذلك ، حتى تتسنّى له الرئاسة ثانية على وفد آخر .

**

من الحماقات التي أحسبها ضدّي ، ذاك الأسبوع الثقافي في دمشق الذي جاءني فيه الكاتب (أديب عزّت) وسألني :

- ها أنتَ في الشام ، ومن جديد ، بعد عناق دمشق وبغداد ، فما هي مشاعرك؟ وما هو رأيك بالواقع القصصي الراهن في سوريا؟

لم أعلم حينها بمن تربّص بي ، فقد كان شهرعسل ووفاق قصيراً بين البلدين ، وأنا رجل معروف في أرض الشام وأصدرتُ هناك ثلاثة كتب في القصة القصيرة ، وليس من شيء يخيفني حتى أقول جواباً على السؤال :

- هذا سؤال مهم ، ومعذرة إذا ما اختصرته ، فدمشق بالنسبة لي هي بغداد ، وعشقي لهما واحد ، وأقول باعتزاز عظيم ، بأني لم أكفر بحب واحدة منهما ، حتى في أحلك ساعات الظلام التي مرّت عليهما إلى غير رجعة ، وكتّاب القصة فيها أكثر من أقرأ لهم ، وقد

أحببت بعشق زائد ، وليد اخلاصي ، زكريا تامر ، وما زلت أتابع روايات حنّا مينه ، ويدهشني ظهور أسماء شابة تحمل الكثير من الطموح وتبشر بغد أعمق أثراً في حياتنا ومشوارنا مع القصة القصيرة .

هذا حرفياً هو جوابي على أديب عزّت ، فماذا جرى بعد ذلك؟ منعوني من المشاركة في أيّ نشاط ثقافي خارج العراق ، لم يتركني مسؤول الحزب في الوزارة يوماً حتى يكرر أسئلته البلهاء المقيتة :

- كيف تقول إن دمشق هي بغداد؟
- ماذا تعني بقولك : ساعات الظلام؟
- هل ترى أدباء الشام أفضل من أدباء العراق؟
- أعطيناك فرصة ثمينة للمشاركة في المهرجانات فكيف ترفس النعمة بقدميك؟

كنت أمام ذاك المسؤول الأرعن ، أقرب ما اكون شبهاً بدجاجة في حضرة غول أو عربيد ، كيف أخبره بالمعنى الذي جاء به كلامي وهو لا يفهم الفرق بين الراقصة والرقّاص؟ اكتم غضبي على مضض ، إذ لا فائدة من التفسير ، وبخاصة إذا كان الأمر لا يحتاج إلى أيّ تفسير!

**

لا أدري كيف تكرر ذلك مرتين ، وهذه المرة مع (فاديا الخشن) زوجة الشاعر أسعد الجبوري ، التي حاورتني حول الحياة الثقافية في العراق ، وكانت اجاباتي معقولة وبلا حرائق أو أشواك ، إذا بي أمام كلمة كتبها أحد كلاب السلطة نشرها في جريدة الجمهورية في الثالث والعشرين من تشرين أول ١٩٧٩ قال فيها دون أن يعبأ بمصيري :

قدّم الملحق الأسبوعي الأخير لجريدة الجمهورية وتحت عنوان

(إشارات) بعض ما ينشر في الصحف والمجلات من تقييمات وآراء في الميدان الثقافي ، واقتطف المحرر نصّاً من حديث أجرته فاديا الخشن مع القاص عمّار جواس البدري في إحدى الصحف التي تصدر خارج العراق حول القصة العراقية .

إن ما جاء على لسان عمّار البدري يمثل نموذجاً يفتقد إلى الموضوعية ويسيء إلى الحركة الثقافية وحركة النهوض الأدبي التي شهدها قطرنا .

إن ما جاء في الحديث المذكور من اتهام لمجلات ألف باء والأقلام والطليعة الأدبية عما ينشر فيها من قصص ، لهو تجنٍ واضح على هذه المنابر واساءة بالغة للقصة والقصاصين في العراق بخاصة والتوجهات الثقافية عموماً .

إن الذين يطلقون الآراء والاتهامات جزافاً ويصرحون في الاحاديث الصحفية ، وهم خارج العراق ، لا يكتفون بالتقييمات المغرضة بل ينزلقون إلى حضيض الشتائم والسباب والبطولات المفتعلة .

وحين يحرص «الملحق الاسبوعي» رصد ما ينشر في الخارج ونشر تلك الاشارة ، فإنما أراد كشف مثل هذه الممارسات الخاطئة والمسيئة واللامسؤولة ، كيما يوضع حداً لمثل هذه الإساءات وكيما يعرف القاص أو الأديب أو المثقف العراقي حدود موقعه وموقفه ، حين يدلي بأي حديث لصحيفة خارجية ، من ثم فإن الامانة التأريخية والمسؤولية الوطنية والقومية تقتضي من أمثال هذا القاص أن يكون حريصاً على سمعة المنابر الاعلامية والثقافية التي رعته ونشرت نتاجه .

ونموذج «حديثه» يدلل على عدم الوفاء للمؤسسات التي رعته وطبعت نتاجه وهيأت له فرص العمل الشريف .

إن النموذج الذي اشرنا إليه والذي رصده «الملحق الأسبوعي» ليس النموذج الوحيد من الممارسات الضارة ولكن الذين يسعون إلى ذلك ، هم ، في الحد الأدنى ، يفتقدون إلى الوفاء لخبز الثورة وملحها . . ، ومثل هؤلاء سوف لن يغيروا من جوهر الحقيقة ونصوعها حتى لو ملأوا اعمدة الصحف اتهامات واساءات مغرضة .

**

أعرف أن (سوف) لا تأتي مع (لن) لكنني تركتها كما جاءت في كلمة ذاك السلوقي الذي تركني لقمة سائغة تحت أنياب السلطة التي لا تعرف الرحمة ولا تفهم معنى الحرية ، وهذا السلوقي لم يكتب اسمه ، بل عافه لئلا يغضب عليه الأدباء وهو يرمي بواحد منهم إلى التهلكة .

جاءني سامي محمد وقال بحرقة :

- لا بد أن تكتب جواباً على هذه اللعبة الخبيثة ، هناك من يريد الشرّ بك .

يومها أخذني حمدي مخلف إلى حدائق اتحاد الأدباء ، شربنا الخمرة على حسابه ، وكان كريماً معي في ذلك المساء ، وهو يرى الكثير من الأدباء يتأسّى من مقالة السلوقي الذي يريد قتلي في وضح النهار .

بعد منتصف الليلة نفسها ، رحت اكتب ايضاحاً مسالماً عما جرى ، لكن تأخر نشره عمداً حتى الثالث عشر من تشرين ثاني من السنة نفسها ، ولم أنم حتى أكملتُ الكتابة :

- نشر ملحق (الجمهورية) الصادر في ١٩٧٩/١٠/٢٠ (فقرة) من

لقاء اجرته معي الزميلة فاديا الخشن في جريدة الثورة الدمشقية العدد ٥٠٧٢ في ١٩٧٩/٩/٧ .

وبعد ثلاثة أيام فقط نشرت (الجمهورية) في عددها ٣٧٣٠ وفي صفحة (آفاق) كلمة بعنوان (عن نموذج مغرض وحديث متجن) أراد كاتبها أن يقول عني :

- انني افتقد الموضوعية فيما قلت .

- انني أسيء إلى الحركة الثقافية وإلى حركة النهوض الأدبي التي يشهدها قطرنا . .

- انني أتهم المجلات الأدبية بالقصور في أداء واجباتها . .

- انني أسيء إلى القصاصين في العراق خاصة والى التوجهات الثقافية عامة .

- انني افتعل البطولة وانزلق إلى حضيض الشتائم والسباب .

- كما يريد مني الحرص على سمعة المنابر الثقافية التي نشرت نتاجي ورعت قلمي .

- انني عديم الوفاء للمؤسسات التي هيأت لي فرص العمل الشريف .

وأخيراً فهو يقول بأنني :

- عديم الوفاء لخبز الثورة وملحها .

**

لست أنكر طبعاً ، أن هذه الاتهامات وقد سقطت مرة واحدة ، كانت أكبر من كل ظنوني فأنا - كما أعرف نفسي وكما يعرفني اصدقائي الأدباء - لا اضمر سوءاً حتى لعدوي ، فكيف بي اضمر كل هذا السوء لاحبابي؟ كيف انزلق إلى حضيض الشتائم والسباب ،

وأنا لم أقل إلا بعض رأيي في القصة ، وهذا اضعف الإيمان بحرية الكلمة أولاً وحريتي ككاتب ثانيا؟ ثم أن الحياة الثقافية منذ بدأت ، وحتى يومنا هذا ، ما زالت تحتاج إلى المماحكات الطريفة حيناً وإلى النقاشات الموجعة حيناً آخر . . ولم يكن ما قلته في جريدة الثورة الدمشقية الا بعض هذه المماحكات والنقاشات ، ولم يكن فيها سوى ما يغني هذا الجانب الحيوي من حياتنا الثقافية ، ولا يستحق الأمر في (غايته) القصوى أن (يتهمني) الكاتب بعدم الوفاء لخبز (الثورة) وملحها . . ولا أدري لماذا وصل به الأمر إلى استعداء (الثورة) ضدي؟ وهل يعتقد الكاتب المحترم أن (الثورة) ملك لفرد دون آخر ، أو أنها مقصورة عليه – بالذات – دون بقية ابناء الشعب؟

انني أعلن هنا دون ضعف ولا خوف ، وبلا مهادنة أو ضغط ، بأنني أكثر احتراماً ووفاء للثورة ، وأن كل قرار جديد وكل خطوة ثورية جديدة إنما تجعلني أعمق فرحاً وأكثر ابتهاجاً وإيماناً بالمستقبل . . ويكفيني اعتزازاً بنفسي أنني لا اساوم على هذا (الحب) ولا (امثل) هذا الاحترام ، إنما هو ينمو مع كل مشروع صناعي للعمال ، ومع كل حقل جديد للفلاحين ، ولم انسحب في يوم ما للتزلف ورفع الشعارات وتزييف حقيقتي .

**

كان لا بد من الردّ لئلا أذهب بنفسي إلى المشنقة ، إنهم يفتشون جيداً عن الأخطاء والعدو مرصود ومعروف ولا بد من اغلاق فمه بقوة ، لا تسامح مع أحد ، هذا شعارهم الذي غرسوه في المدارس وفي أزقة الفقراء ، لا تسامح ، جئنا لنبقى .

**

كنت حينها أشاهد فيلماً يقول فيه بطل القصة : إن سرّ الحياة ، إنك إذا لم تعرف ما تريد ، انتهيتَ إلى أن تجني ما لا تريد .

وبرغم أنني أعرف ما أريد ، لكن بلاهة السلطة قلبت المعادلات جميعها ، نحن البلد الوحيد الذي يصبح فيه نائب العريف وزيراً للدفاع ، نحن البلد الأوحد الذي يصير فيه الحمار رئيساً لاتحاد الأدباء ، نحن وحدنا في هذا العالم من يأتي بامرأة بلهاء لتكون رئيسة على النساء .

قلت في ذاك الحوار مع فاديا ، إن القصة القصيرة في العراق محكومة بظروف صعبة ، لا أريد الخوض فيها ، لكنها برغم ظروفها القاهرة أنجبت القاص محمد خضير وقالت بعض همومها على لسان جليل القيسي ، وكانت القصة قد أعطت الكثير مع محمود جنداري وفهد الأسدي وسركون بولص :

- هل كذبت؟

لكنهم انتبهوا جيداً إلى الشطر الثاني من الحوار الذي قلت فيه :

صارت القصة الجيدة نادرة جداً ، وإذا قرأتَ مجلات الأقلام والطليعة وألف باء لن تجد سوى التكرار الفاجع مع أفكار مضحكة ساذجة ، لكنها قصص صالحة للنشر جداً ، لأنها رسمية جداً وسخيفة جداً ، حتى أسماء من كتبوها غير معروفة ، لا يعرف أحدهم من هو فرانز كافكا ولم يقرأ شولوخوف ، وإذا سألته عن وليم فوكنر لقال لك : في أية مدرسة هو الآن؟

**

كانت الجبهة الوطنية بين الشيوعيين والبعثيين قد انهارت ، ولم يعد من أحد يمكنه الدفاع عني ، بدأت عمليات القتل بالجملة ، بعد

أن كانت بالمفرد ، هرب المئات إلى دمشق وبيروت واستانبول ، ومن هناك إلى الشتات ، لندن وباريس واستوكهولم وهلسنكي وبراغ وبودابست ، أفرغوا البلاد من كبار المبدعين ، فاضل العزاوي ، فوزي كريم ، سعدي يوسف ، محمود البياتي ، إبراهيم أحمد ، حميد الخاقاني ، عبدالقادر الجنابي ، مؤيد الراوي ، كمال سبتي ، فاطمة المحسن ، فالح عبدالجبار ، نجم والي ، عدنان حسين أحمد ، جنان جاسم حلاّوي ، عدنان الصائغ ، نبيل ياسين ، أنور الغساني ، سليم مطر ، دنيا ميخائيل ، وعبدالرزاق الربيعي ، حتى كاد العراق أن يخسر غيرهم بالعشرات في هجرات أخرى لم تتوقف على مدى ثلاثين سنة من حكم الفاشست ونظام الرايخ الرابع في بلاد ما بين النهرين .

**

الحياة لم تعد ممكنة بين جدران الممنوعات ، عليك أن تتأكد مما ستكتبه غداً ، لئلا تمضي بنفسك إلى جحورهم المعتمة ، اقرأ مقالتك ثلاث مرات ، وعليك أن تقرأ القصة أربع مرات ، احذر ، أما الكتاب وهو جوهرة الكاتب ، فعليك قراءة ما فيه ست مرات وأكثر ، حين يولد هذا الكتاب يولد المعنى في حياة الكاتب .

والكاتب المبدع لا يسهر الليل ولا يحتسي المواجع والهموم ولا ينام في الكوابيس ولا يصبر على الجوع والفقر إلا من أجل هذا الكائن الاسطوري العجيب الذي سميناه الكتاب والذي اعطيناه من دمنا ما نعجز أن نعطيه لكائن سواه .

**

بعد عام أو عامين من التفكير ، وبعد آلاف الكيلو مترات من السطور ، وبعد بحيرة من الحبر ، وبعد جبل من الأوراق ، تأخذ كتابك

إلى الرقابة على أمل بسيط : أن يقرأه خبير بمستوى سهر الليالي أو مواز للهموم والمواجع التي عاشها العقل والقلب معاً ، أن يكون واعياً لكابوس واحد من كوابيس الابداع أو مدركاً لجزء من صبرك الذي تجاوز الفقر والجوع حتى فاز عليهما .

ستقرأ تقرير الخبير على غفلة من روتين الفواجع ، وسوف تكتشف فوراً أن هذا السيد الخبير قد قال (كلمته) الفيصل بمنع الكتاب ، وانتهى الأمر ، ولم تعد ثمة مسؤولية بعدها على دائرة الرقابة أو مديرها .

لكن ، لا أحد يدري أن بعض الخبراء يختارون اقصر الطرق إلى النجاة والفائدة معاً ، فهو يمنع الكتاب لئلا يصبح مسؤولاً إذا ما تبين فيه – محض جزء واحد في الألف – ثمة ما لا تحمد عقباه لا سيما وأن الفائدة مستمرة ومكافأة القراءة لن يتضرر منها الخبير في الحالتين!

**

وهناك بعض المحظوظين من الخبراء ، تتكدس في بيوتهم العشرات من الكتب ، لا يجد الخبير المحظوظ امامها من الوقت إلا ما يتركه في آخر المطاف بين امرين ، اما القفز فوق الصفحات ، وأما الاعتماد على (سمعة) هذا الكاتب أو ذاك الشاعر ، فيكتب تقريره عن الكتاب ضمن هذا الميزان الثابت ، إذ ليس من المعقول برأي الخبير – مثلاً – أن يقرأ رأياً مغايراً عما كان يعرفه من آراء هذا الشاعر أو ذاك الروائي ما دام كل واحد منهما يكتب عن الحزب والثورة والحضارة .

إذن ، لم يعد امام الخبير المحنك غير اسم هنا وكتاب هناك ينبغي الوقوف امامهما بحذر والانتباه إلى كل كلمة مكتوبة في هذا المخطوط (الخطير) الذي تقول سمعة كاتبه بأنها على جانب من الانفلات

والفوضى والنفور .

سوف يقرأ هذا الخبير باحساس مسبق ، يدفعه هذا الاحساس إلى رفض الكتاب ، لأنه اصلاً كان قد رفض الكاتب - في الجزء المغمور من وعيه - قبل أن يقرأ الكتاب .

وما دام الخبير قد عاد بالكتب إلى دائرة الرقابة ، وما دام قد قال كلمة خبير في الشاعر الفلاني والروائي فهو على حق فيما قاله أيضاً عندما منع بقية المبدعين من الظهور ، وهو - ضمن هذا السلوك المهذب - رجل على حق فيما يقول ويكتب!! .

**

سوف يذهب المبدع بعد حين إلى الرقابة ، ويستلم كتابه (الممنوع) وسوف يسأل نفسه عن السبب ، فلا يعثر على أي جواب .

وفي الوقت نفسه ، سوف ينام الخبير ملء جفونه على فراش لا يخدشه الوسواس وليس فيه من أثر لسهر الليالي ولا من أثر للهموم والمواجع وليس من شيء يشير إلى الصبر على جوع أو فقر . . سوف ينام الخبير بلا كوابيس فقد تسلم مكافأة طيبة على قتل المبدع والابداع في ساعة واحدة فقط .

يتكرر السؤال ثانية وثالثة عن السبب الحقيقي وراء نسبة الحظ التي ينالها البعض في سرعة النشر في دوائر النشر الرسمية وحرمان الغير من هذا النصيب وهو حق طبيعي للمبدعين جميعهم؟

ربما كان مجرد سؤال ، لا يلتفت إليه المسؤول عن النشر ولا يعنيه من قريب أو بعيد ، لا سيما إذا جاء هذا السؤال من (مبدع) كبير لا يبالي بشيء غير الابداع . . لكن المسألة أبعد من أن تكون مجرد (قول) عابر ، بل هي في قلب الثورة الابداعية ومن أبرز شروطها .

لقد اصدرت إحدى دور النشر الرسمية في العراق ما يقرب من ثلاثة كتب لكاتب واحد في سنة واحدة ، بينما يعاني كاتب آخر من (حجر) كتابه ما يقرب من سنة واحدة في منزل السيد الرقيب .

سنة كاملة حتى يمر الكتاب من يد الرقيب في طريق العودة إلى دار النشر ، ثم سنة ثانية حتى يعرف (المبدع) ان كانت الموافقة على كتابه قد تمت أم العكس!

ترى ، كيف صدرت ثلاثة كتب لكاتب واحد في سنة واحدة؟ ألا رقيب عليها أبداً ؟ هل كان الأول من صنف البشر وكان الثاني من صنف الشياطين؟

الا ينبغي طرح آلاف الأسئلة على هذا المسؤول حتى نعرف الوسائل والاساليب والطرق (المشروعة) التي يمشي على دربها ويحقق (النجاح) فيها ؟ بأي حق يحرم هذا المبدع وبأي حق يعطي الحقوق كلها إلى مبدع آخر ؟ وكيف يكون جوابه إذا كان المبدع (المحروم من النشر) هو افضل عشرات المرات من المبدع السابق ؟

**

هذا الكلام ذهب أدراج الرياح ، والسؤال نفسه ما زال يجرح كبرياء المبدعين ، هذا يبتسم خجلاً وذاك يشعر بالمرارة والمهانة ، وربما تستمر الغصّة في النفوس إلى أمد بعيد .

9

كاتب قصة قصيرة

نظرة ذكية إلى رجل ما ، يمكنها أن تعطيك فكرة عن طبيعة المهنة التي يمارسها . . ربما نخطىء مرة ، لكننا دون ريب سنعرف نوع الرجل الذي أمامنا إذا ما نطق ، وسوف نكشف ملامحه أكثر إذا ما غضب أو ابتسم أو راح يحكي عن هموم الدنيا .

سوف نفهم (النوع) الذي امامنا من همسة أو نكتة أو كلام عابر ، لا يمكن أبداً أن نتوهم - مثلاً - إن هذا السيد الحزين الوقور الهادىء كان يعمل حلاقاً أو بائعاً للخمور ، ذلك أن مهنة الحلاق وبائع الخمور لا يناسبها الحزن ولا الوقار ولا الهدوء إلا بنسبة جد ضئيلة ، ولا يمكن أيضاً أن نتوهم لحظة واحدة أن هذا الرجل الذي يقرأ (هنري ميشو) أو (مارسيل بروست) والذي يشرب القهوة ويدخن السجائر بصمت ، يمكنه أن يكون ملاكماً أو اسكافياً ، ذلك أن هذا النوع من المهن يتعارض - احساساً وانشغالاً - مع قراءة ميشو وبروست .

وهناك مئات الحالات من أنماط البشر ، لا نريد أن نحكيها كلها مرة واحدة ، المهم ، هو أن الإنسان - بقليل من الفحص والذكاء -

ستعرف نوعه ومعدنه وطقوس حياته وملامح اعماقه أيضاً . . ولعل أول هؤلاء الذين ينبغي علينا أن نعرفهم هو (الأديب) .

سوف أعود بذاكرتي إلى سنوات أبعد ، عندما كان الأديب أقرب ما يكون شبهاً برسول ، كيف أن الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، تحترم الزمان الذي عاش فيه وتعشق الكتاب الذي انجزه والكلام الذي ابدعه ، بل وتردد ما قاله وتفعل بما أوصى به .

أعتذر من اسماء أراها اقرب ما تكون شبهاً بهذا الرسول الطيب ، وما زالت تملك من نبض البهاء ما يبشرنا بألف خير ، أنا لا أريد نسيان الشعراء الذين احترم خطواتهم واخلاقهم وابداعهم ، ولا أريد نكران الدور الإنساني للمبدعين الكبار من القصاصين ، فهم اقرب كتابنا إلى لحم الماضي ودمه ونبض قلبه المتسامح .

لكنني اسأل عن مئات تراهم اكثرنا حضوراً وهم بلا حضور ، وأكثرنا وجاهة ومالاً واناقة ، دون وجاهة في الفكر ودون اناقة حتى في الهموم .

كيف ننتظر ابداعاً عظيماً إذا كانت أخلاق المبدع تنبع من سرداب معتم؟ لا مانع أن يحكي لنا عن سردابه المعتم الذي نشأ وترعرع فيه وعاش أعوامه بين شعابه ، بالعكس ، تلك قصة رائعة له الحق في سردها ، لكننا لا نريد أن تكون أخلاق السرداب هي الطاغية على كل ما يفعله وكل ما يقوله ويكتبه .

**

اعترف هو نفسه بأنه يسرق القصائد من هنا وهناك ، مرة من شعراء لندن وأخرى من الشعراء العرب ، يأخذ من هذا ويعجنه بما

قاله ذاك ، وتأتي النتائج بشعر هجين ، لكنه ممتع ومهم ، هو نفسه يقول : أتحدى من يعرف أصل تلك الطبخة من أبيات الشعر المأخوذة من السويد وفرنسا وبيروت !

فهنا مقطع من (توماس آرنسترومر) وهناك بيت مائل من فوزي كريم ، ثم يدخل خيمة أدونيس حتى يسرق منها صورة يؤطرها بكلام لا يخطر حتى على بال الجن ، وقد احتار في أمره القراء والنقاد حتى اعترافه رسمياً بأنه (أفضل من يسرق القصائد ويكتبها باسمه)!

**

بدأ الكتابة / السرقة منذ عام ١٩٩٢ وذاع اسمه فوراً في المقاهي والحانات الرخيصة ومنازل الصعاليك ، قال له الشاعر خالد علي مصطفى :

- أنت شاعر مهم وخطير .

لكنه أجاب فوراً ودونما خجل :

- أنا سارق مهم وخطير ، إذ لا أحد يعرف المكان الذي أسرق منه تلك الجواهر الثمينة ، ويبدو أن لا أحد يمكنه تفكيك قصائدي حتى يكتشف منبعها الأول .

واستمر اللص الظريف في سرقاته ، مع أنه غادرنا من بغداد إلى عمّان إلى أمستردام حيث يقيم الآن ، وحتى لو ذكرت لكم اسمه ، فهو لا يعبأ بما سيقال عنه ، بل هو نفسه الذي يعترف بتلك السرقات ، قطعة شيكولاته من الجواهري ، مع رشفة فودكا من فيسلافا شمبورسكا ، حتى أنه يخلط سرقاته من عناوين أفلام

السينما وقصائد أوكتافيو باث وروايات كلود سيمون ، بل تجرأ على دخول قلعة (ثربانتس) العظيم ليأخذ بعض ما قاله على لسان فارسه المغوار دون كيخوته !

جاءني إلى مبنى الجريدة ذات مساء وأعطاني واحدة من (سرقاته) الجميلة أيام كنت رئيساً للقسم الثقافي وقال :

– هذه قصيدة ستعجبك أكثر من غيرها .

فقلت له مازحاً :

– ومن أين سرقتها هذه المرة؟ عزرا باوند أم الشريف الرضي ؟

قال وهو يضحك :

– حتى إبليس نفسه لن يعرف من أين لملمتها وجمعتها وجئت بها ، وأراهن على أن أعظم القراء نبوغاً سيعجز عن اكتشاف من قالها .

أنا وأسرة تحرير الصفحات الثقافية ، اجتمعنا في مبنى الجريدة من أجل هذا الشاعر ، رجعنا إلى كتب ودواوين جبران خليل جبران وهنري برغسون وميّ زيادة وباتريك وايت وخليل حاوي وسميح القاسم وبول شاؤول وجورج برناردشو وهيرمان هسه ، بل قرأنا «محيط المحيط» و«الجاسوس على القاموس» و«دائرة المعارف» وحتى «معجم الحيوان» ولم نعثر على أيما أثر لتلك القصيدة (العصماء) التي (لطشها) الشاعر الصعلوك المقيم حالياً في بلاد الثلج والملوك ، حتى إذا ما زارني ثانية للسؤال عن (قصيدته) ومتى ستنشر ، قلت له بشيء من الصرامة والحزم والعناد :

– إذا لم تخبرني عن مصدرها ومن أين جئت بها ، وهو سرّ بيننا ، فلا أظنني سأنشرها .

أظنه في تلك الساعة ، كان يريد أن يعترف أمامي ، شعرت بأنه سيقول الحقيقة ، أو بعضها ، جاء على خاطري كل ما يمكن أن يفكر فيه إنسان عاقل سويّ ، أن يكون ، مثلاً ، قد أخذها من بطرس البستاني ومزجها بأقوال فارس الشدياق ، أو جمعها من أبيات وليم ووردزورث وبابلو نيرودا أو أراغون ، لكنه لم يفعل أي شيء من ذلك كله ، بل اقترب مني كما لو أنه يخاف أن يسمعه أحد من عائلة الجريدة ، وقال هامساً :

- لن تصدق أبداً من أين جئت بهذه القصيدة .

سأعترف بأنني كنت لحظتها على جانب كبير من الإثارة والرغبة في معرفة الينبوع الذي انهمرت منه كلمات القصيدة ، فهي بحق واحدة من أعذب القصائد التي قرأتها خلال خمسة أعوام مرت ، إذ جاء فيها :

يمكنني رؤية القبور جميعاً
إلا قبرك يا حبيبتي
فلستُ أنا من يصدق
رؤية حيّ يدفن
اخبرني من مات لك
أقل لك من أنت
وأنا كما تعلمين سيدتي
ما من أحد غيري مات لي .

وهنا ، سمعتُ أكبر مفاجأة سقطت على رأسي عندما قال لي وهو يضحك مثل طفل يهتز على أرجوحة :

- هذه ليست قصيدة من أي كتاب يا صديقي العزيز : إنها أغنية

(هندية) لطشتها من آخر أفلام شامي كابور وهو يبكي على (قبر) حبيبته التي ماتت وهي في عزّ الصبا .

**

وبرغم ذلك ، ها أنتم تعلمون طبعاً بأنني نشرتها فوراً مع صورة فوتوغرافية للشاعر الظريف وأنا أحكي مع نفسي مثل مجنون وأكرر قوله :

- حتى إبليس نفسه لن يعرف من أين جئت بها؟

الغرائب والعجائب في هذا العالم صارت أكثر من المعقول ، وفي حوار طريف وسريع مع الروائي البلجيكي الشهير جورج سيمنون ، كان هناك من يسأله عما إذا كان يراجع ترجمة رواياته المنقولة إلى لغات العالم؟

قال سيمنون بهدوء : كلا ، مطلقاً ، تركت هذه العادة منذ أن روى لي أحد أصدقائي في طوكيو ، ان مترجماً يابانياً اقتبس رواية (دون كيخوته) للروائي الساخر ثربانتس ، وكان فيها الفارس الحزين يهاجم طواحين الهواء بسيفه على امتداد الرواية ، ولكنه ، حسب النص الياباني ، كان يهاجم الطواحين بالجودو والكراتيه!

نقلتني هذه (الضحكة) يومها إلى جبل من الروايات التي نقرأها على امتداد الوطن العربي ، وامرها - مع شيء من التمحيص والمراجعة - أعجب من النص الروائي الياباني الذي جعل دون كيخوتة يحارب الطواحين بالكراتيه ، فهي تملك اسم الرواية ، أجمل العناوين المستلة من القواميس والكلمات المتقاطعة ، وتملك حجم الرواية ، كما أنها رواية صالحة للنشر جداً لأنها لا تخربش ولا تخرمش ولا تصفع ولا تهمس ولا تغازل!

لكنك ما ان تدخل في شعابها وتسأل عن مغزاها وتحرق أعصابك في مسك اهدافها وأسباب كتابتها ، حتى ترى أن المترجم الياباني كان على حق فيما فعل ، إذ قال للشعب الياباني ما يفهمه اليابان واعطاهم الصورة التي يرسمونها بلا متاعب أو رموز كاذبة .

أما الرواية العربية التي نقرأها اليوم ، فهي - ضمن الموضة السائدة - لا بد أن تكون على اجزاء ، تماماً كما فعل صالح مرسي في رأفت الهجان وكما فعل الممثل (سلفستر ستالون) عندما رأى النجاح الساحق لفيلمه الشهير (روكي) حيث قام فوراً بكتابة وتمثيل الجزء الثاني والثالث والرابع ، كذلك الحال مع فيلم (سوبر مان) وسواه من أجزاء البضاعة الهوليودية الماكرة .

أما (العيب) الحقيقي في ما يفعله بعض كتاب الرواية فهو اصرارهم على كتابة جزء ثان لرواية لم يقرأها أحد ، وربما كان في علم الغيب جزء ثالث ورابع ، ما دام مصنع هوليود قد اعطاهم (كارت بلانش) لتلميع أبطال الجزء التالي .

أنا على يقين من شيء واحد ، هو أن الكاتب يفهم أسرار النفس البشرية ، يعرف الفرق بين الأمس واليوم ، كما أنه قادر على استيعاب تطورات المستقبل ، ودون هذه الصفات - وهي أدناها وابسطها - كيف سيكتب ولمن سيكتب؟

لكن ما نراه ونلمسه باصابعنا ، أن الروائي الذي نقرأ اليوم أعماله هو ادنى من مستوى آلاف القراء ، وقد يهزأ من معلوماته المهندس المعماري أو يبتسم امامها الطبيب والمعلم والمشاور الحقوقي والمحامي والرسام واستاذ الجامعة .

كيف يكون الحل ؟

هل يأتي الحل بكتـابة ابداع يزاحم هذه الأعـمـال؟ أم يأتي بالمحاسبة النقدية الصارمة؟ أم الحل في اهمال الكاتب والكتاب؟ أم يأتي الحل في جلسة أدبية تناقش المسؤولين عن اخراج هذا العمل إلى النور؟

هذه حلول كلها غير ممكنة ، لأنها غير قادرة على أن تواجه الوهم الذي يعيشه الكاتب العربي ، فهو يرى في روايته ثمن الوقت الذي قطعه في الكتابة (الكتابة هنا بمعناها العضلي) كما ان أية شهادة محلية أو عالمية تشير عليه بضحالة ما يكتب ، غير قادرة على اقناعه ، فهوضحية (الشلة) التي تدور حوله وتجلس معه ، وهم عادة من النوع الذي اقعده الفشل في الابداع فتهيأ لهم النقد انقاذاً وخلاصاً وملاذاً وعلاقات جيدة ، وهي تكفيهم غذاءاً أدبياً واجتماعياً .

هل سمعتم عن رواية تكتب في نصف شهر؟ ليس هذا هو المهم ، إنها مجرد رصف كلمات ، وأبطالها يحاربون طواحين الهواء .

**

نمط النقاد الذين يحاربون طواحين الهواء يحتاج أيضاً إلى وخز وتذكير ، والحقيقة ليست مهنة كما الوظيفة والنجارة وبيع الطماطة ، كذلك من يكتب دون قضية ، لا يمكنه أن يتساوى مع مبدع له قضية ، وقد طلب مني أحدهم أن أذكر أسماء من أكتب عنهم ويعترض على ترك الحبل على الغارب ، بحسب تعبيره .

لا بد أنني سأحتاج إلى حماية لا أستطيع توفيرها لنفسي ، إذا ذكرتُ أسماء من أعنيهم بكتاباتي ، ويبدو أن الجميع يرغبون في

(فضح) اسم الشخصية التي نحكي عنها ، وليس من أحد يرغب في معرفة القصة نفسها ، الفضيحة مرغوبة في كل زمان ومكان .

العاطفة متغيّرة في سلوكها ، بينما العقل ثابت ، هذا مفهوم ، وينبغي على الناقد أن يكتب من خارج بيت العاطفة لئلا تأتي مقالاته موشومة بالحقد مرة وبالمحبة مرة ، ولهذا وجدتُ في كتاب (ماركيز رائد الواقعية السحرية) نموذجاً لنقد العقل .

بعد أن انتهيت من قراءة كتاب (ماركيز رائد الواقعية السحرية) شعرت بفرح كبير . . ها هو المبدع لا يبالغ فيما يقول ، ولا يتباهى بما يملك ، ولا يفرض رأياً ولا يشتم احداً ولا يريد سوى رسم حجمه بين بقية المبدعين ممن سبقوه .

ترى كم عدد الكتاب الذين يشبهون (ماركيز)؟

وأيضاً كم عدد المهووسين بالشهرة والمجد ، الذين ينتظرون جائزة نوبل حتى يستطيع واحدهم أن يصدق (اكذوبته)؟

اعترف لكم ، أن جائزة نوبل ليس من السهل أن تمنح ، وليس من الطرافة أن أخبركم أن (البعض) ينتظرها بين عام وعام ، يخرج من هنا إلى هناك ويعيش (غربة) مفتعلة كاذبة لعل الصحافة العالمية تسمع به ، ولعل الحظ يبتسم له ، بل يستجدي المستشرقين والباحثين ، إذ من يدري ، لعله يعثر على صديق في مجلس الجائزة ويخدعه بما ليس فيه ويفوز بها !

لكن اللعبة هنا لا تشبه اللعبة هناك ، ومن يسقط في فخ الأسد قد لا يسقط في فخ الأرنب ، والقصيدة الكاذبة (المصنوعة) لا يمكن أن تكون البديل للقصيدة العظيمة ، وأيضاً ، لا بد من القول إن القصيدة المريضة التي تخدع بها ثلاثة آلاف مواطن لا يمكن أن تخدع

بها ثلاثة ملايين قارىء ، ومن يعتقد أن الزمن العربي ما زال راكداً وساذجاً وبسيطاً ، عليه أن يبحث عن طريق آخر وزمن آخر .

كتاب (ماركيز رائد الواقعية السحرية) اشار إلى الموهبة الكبيرة والموهوب الكبير . . وهو خير جواب على أكاذيب البعض من كتاب الموائد والرسائل التي تتوسل الفوز بذيل نوبل !

ثم أن رائد الواقعية السحرية ليس بساحر ، لكنه حقق المتعة إلى أقصاها .

**

دعوني أحكي لكم عن نموذج لا يشبه غارسيا ماركيز حتى نعرف حجم الفروق بين الشرق والغرب ، انتبهوا إلى هذا الاسم الجديد في عالم الرواية :

- مايكل كوردي ، العمر ٣٥ سنة (حين كتب روايته الأولى) المهنة موظف كومبيوتر ، الجنسية بريطاني المنشأ ، ذلك أنه قرر ترك وظيفته في قسم التسويق في واحدة من كبريات شركات الكومبيوتر ليتفرغ لكتابة رواية ، وكان يكرر بين أصدقائه أن الرواية في العالم كله مجرد سلعة مثل بقية ما يشترى أو يباع في السوق .

وهكذا بدأ العمل في روايته المسماة «السلسلة المعجزة» كاسراً بذلك القواعد المعروفة التي يحتاجها الأدباء ، ألا وهي الخبرة والتجربة والممارسة والقراءة والتأثر بكبار المبدعين . . تجاوز مايكل كوردي ذلك كله وراح إلى جزيرة (برمودا) ليصنع روايته الأولى!

الرواية تدور أحداثها عند نهاية القرن العشرين ، تعالج موضوعة العلم في مواجهة الدين ، والقدر في مواجهة إرادة الإنسان ، وكذلك المقامرة في مواجهة الظنون والكسل ، أما أساس هذا العمل ، فهو

التركيبات الجينية الوراثية للإنسان ، وامكانية استنساخه بايولوجيا ، وبرغم أن دور النشر - في أول الأمر - لا سيما في لندن ، امتنعت عن إبرام أي عقد مع «مايكل كوردي» لكنها تسابقت إليه بعد مرور فترة قصيرة من الزمن ، عندما انتهى (خبراء القصص الكبار) من قراءة تلك الرواية العجيبة على حدّ تعبير «باتريك وولش» الذي اشتراها فوراً وقرر تسويقها إلى عموم بريطانيا .

وبين ليلة وضحاها ، أصبح «مايكل كوردي» واحداً من أغنياء لندن الشباب ، حيث تم طبع روايته بـ(٩) لغات عالمية واشترتها منه مؤسسة (والت ديزني) الشهيرة لتحويل فكرتها إلى فيلم سينمائي بتمويل مالي كبير .

الرواية تحكي قصة عالم شهير يتسلّم جائزة (نوبل) للسلام ، يأتي إليه من يحاول قتله بسبب اختلاف الآراء ، لكنه - سهواً - يقتل زوجته ، وفي الوقت نفسه تتعرض ابنته الوحيدة إلى مرض خطير يستعصي على الشفاء . . ومن هنا تأتية فكرة المواد الخام للجينات واحساسه انه قادر - ذات يوم - على اعادة الحياة ثانية إلى زوجته وابنته ، بل يمكنه اعادة الحياة إلى كل من يشاء لهم العودة مهما كانت منزلته أو بعد المسافة بينه وبينهم ، بشرط أن يحصل على خلية واحدة من خلايا الجلد .

**

حصل «مايكل كوردي» في ظرف شهرين ، على ثلاثة ملايين دولار ، وهو في طريقه إلى حفنة ملايين أخرى ، ستأتيه من نسبة البيع في بريطانيا والمانيا وامريكا وايطاليا وفرنسا وسويسرا والدنمارك

واستراليا وروسيا أيضاً . . حيث تم بيع المخطوطة إلى تلك الدول الكبرى في طريقها - بعد ذلك - إلى الترجمة بشكل أكثر شمولاً في بقية اقطار العالم .

كتب مايكل كوردي هذه الرواية في جزيرة (برمودا) وهو الآن ، بعد أن تسلم أول نسخة من روايته ، يعود إلى (برمودا) ثانية ، ليتذكر كيف بدأ الكتابة هناك . . . وعندما سألوه في أول حوار معه (ماذا تفعل بعد نجاحك الكبير هذا؟) اجاب :

- لا شيء ، سوى أنني بدأت اعشق المرور على المكتبات في شوارع لندن لقراءة من سبقوني ، وأنا اقرأ اليوم في رواية (الأب الروحي) لماريو بوزو .

أنا أسأل نفسي عن حال الأديب العربي ، كم سيكتب من أعمال ، حتى يحصل على واحد بالمائة مما حصل عليه (مايكل كوردي) من عمل واحد ؟!

أعني واحداً بالألف طبعاً !

**

مع ذلك ، أنا لا أحسد الأغنياء ، ولا شأن لي بهذا الشيء الخرافي الذي يسمّونه المال ، ولم أقترب يوماً من قصر شامخ إلا إذا كان قصراً تأريخياً . . لكنني حقاً ، وأحياناً دون ارادتي ، أنظر إلى السيّاح وكل من يحمل حقائب السفر ، نظرة اعجاب وحسد ، فهم يفعلون ما أشتهي وينعمون بما ينقصني وأحتاج إليه .

السفر إلى شعاب العالم وزواياه ، ليس مجرد متعة عابرة ، إنها عملية اكتشاف من الدرجة الممتازة لهذا العقل البشري ، تساعده على الابداع وتحرك نبض قلبه صوب وجبة طيبة من الفرح والفائدة .

إن جـواز السفـر هـو اجمـل الكتـب التـي يقرأهـا المبدع ، في كل صفحة من صفحاته بحور ومحيطات وبشر ومفاجآت على كل مسامة من مساماته ذكريات لا تريد الذاكرة أن تغفل عنها أو تنساهـا .

بماذا سينفعني جورج أمادو أو آرنست همنغواي أو هنري ميللر أو غارسيا ماركيز وهم يحكون لي قصص اسفارهم ومذكراتهم وغرائب ما جرى لهم إذا لم اعش أنا نفسي كما عاش كل واحد منهم ، وأرى بنفسي بعض ما يرون ، واعشق الغابات والانهار والعواصم الجميلة كما يعشقون؟!

في سنة من سنوات العـمـر ، في شـهـر ربما كـان آذار أو تموز أو تشرين ، في يوم هو الجمعة أو السبت وربما الأربعاء ، سترى ملايين الخلايا تنهض من جديد ، تسابقك إلى الكتابة والابداع ، سوف ترى القصة التي بين يديك افضل من كل ما كتبت والقصيدة التي اعطاك البحر شيطانها اجمل من كل ما شعرت ، سوف (ترى) كنوز الروح تتناثر على الأرض التي تمشي عليـهـا ، على الورق الذي يلامس امنياتك الصغيرة الحلوة .

خذ كنوز الروح . . وتمتع بما اعطاك الوحي من قصص وقصائد ، إذا ضاعت الذاكرة سوف تبقى بين يديك اجمل المذكرات في لوحة ما رسمها رجل مجنون في (المونمارتر) وأنت في باريس ، سوف تبقى بين يديك صورة أخـذتهـا في (بلاثا مـايور) وأنت تبـتـسم أمـام شـوارع مدريد ، سوف ترى بين اصابعك ورقة صغيرة كـتبت عليـهـا رقم الهاتف الذي اعطته امرأة في بار (نابليون) وأنت تضرب مائدتك من فرط المتعة في براغ الجميلة .

اقرأ هذا الكتاب الجميل ، إنه أصغر حجماً من كتب الدنيا كلها ، لكنه أكثرها وأعمقها وأبعدها غنى وفائدة ومتعة ومالاً وفلسفة .

**

من بين تلك الكتب التي غمرتني بالمتعة إلى أقصاها رواية (تيريزا باتيستا تعبت من الحرب) حيث شعرتُ حقاً بالحسد والغيرة من كاتبها (جورجي أمادو) .

لكن سبب الحسد لم يكن في قيمة هذا العمل الروائي الجميل ، فقد قرأنا أعمالاً أفضل منها بكثير ، بل يكمن سرّ حسدي أن (أمادو) يعيش في البرازيل ، ذلك يعني أن الرقابة على ما يكتب (رقابة برازيلية) وبمعنى آخر : كتابة بلا رقيب .

وبرغم محاولات المترجم في اخفاء الكثير من المفردات والتعابير الحسية المفضوحة والالفاظ التي تخدش حياء الرقابة العربية ، إلا أن ما وصلنا من هذا الكتاب أكثر مما نريد ، بل أكثر مما كنا نحلم .

بسبب (تيريزا باتيستا) رجعت فوراً إلى كتابي (السفر إلى الحب) الذي منعته الرقابة بعد توزيعه بثلاثة شهور ، رحت أقارن ما جاء فيه من وسواس حسي والفاظ (يقشعر لها الجلد الناعم) بما ورد من وسواس والفاظ في رواية جورجي أمادو ، فماذا رأيت وأية أعجوبة اكتشفت؟

إن كتابي الممنوع ، بصفحاته التي لا تزيد على عشرة ملازم ، ليس إلا فصل واحد يتيم بين فصول (تيريزا باتيستا) التي تفرز من مساماتها وصفحاتها التي تزيد على (٢٩) ملزمة ما لذ وطاب من النساء والبنات اللائي يركضن خلف الرجال أو يركض الرجال وراءهن ، وكل ما ينسحب وراء النساء والبنات من أسرار وحكايات

في الرغبة والشهوة الجنسية التي لم تكتب في أيما كتاب عراقي منذ نشوء الحضارة السومرية إلى يومنا هذا ، ولم نقرأ ما يوازيها شبقاً ومتعة وارتخاء حتى في كتاب (ألف ليلة وليلة) في طبعة (بولاق) الأولى أو رجوع الشيخ إلى صباه!

كنت أريد أن اختار صفحة من صفحات (تيريزا باتيستا) دليلاً على ما اقول ، لكن الكتاب برمته ، وأنا سعيد به جداً ، يحكي عن أشياء ترفضها الرقابة - بلا نقاش - إذا كان كاتبها من أب عراقي وأم عراقية ، إذ يبدو أن من العيب على ايما أديب عراقي أن يكتب بوقاحة (جورجي أمادو) أو (هنري ميللر) أو (ألبرتو مورافيا) وليس من حقه أبداً أن يكون بمستوى وجرأة وصراحة (هنري باربوس) أو (جان بول سارتر) أو (غارسيا ماركيز) أو (كولن ويلسن)؟

**

كنت أسمع من يقول احتجاجاً ، إن الكتابة في الجنس عند هؤلاء العباقرة ، إنما توظف بطرق سليمة لا تخدش حياء القراء ، وان هذا النوع من الكتابة مع المبدع العراقي تأتي بلا وظيفة إبداعية عليا ، وانه محض كلام في الجنس ليس إلا . . وهذا الدفاع المستعجل عن الكتّاب الاجانب لا غبار عليه وأنا مؤمن به أيضاً ، لكن الرأي الثاني - والذي يمس كاتبنا العراقي في الصميم - إنما يمزق البقية الباقية من ايما (أمل) في أن نكون ذات يوم بمستوى أدباء العالم ، فقد صار حجم الممنوع من ابداعنا أكبر عشرات المرات من حجم المسموح به ، ولعل أكبر مصائبنا التي نعاني منها اليوم هي أننا اصبحنا - ونحن نكتب - نراقب اقلامنا ومشاعرنا ونبض قلوبنا وعيون زوجاتنا لئلا تمشي أقلامنا عكس اتجاه المسموح به .

بينما تأتينا الكتب المترجمة وفيها كل ما نريد أن نكتبه (ولا نكتبه) وكل ما نريد أن نقوله (ولا نقوله) وكل ما نحلم أن نفكر فيه (ولا نفكر فيه) فهل ينبغي أن أنزع اسمي واكتب بدلاً عنه اسم (غريغور ايفالدو) مثلا ، حتى ينزل كتابي إلى السوق دون حذف ولا منع ولا تشطيب؟

ما عليكم سوى انتظار الكاتب البرازيلي الكبير (غريغور إيفالدو) بالسيلوفين البراق ، كم أضحك على الرقابة التي ترى الكتاب من وراء اسم المؤلف ، أما أسماء عمّار وحمدان وإبراهيم وجمال فكم تبدو مزعجة!

**

هناك نوع من القصص القصيرة هو السائد الآن ، يمكن أن يكتبه كل من أراد الكتابة ، فهو لا يعطيك سوى حفنة من الكلمات المختارة ، بينها حفنة من الحوار ، زائداً بعض (الخدع) الذكية التي توهم بتأزم البطل .

ولا ينقصك سوى القليل من الحظ ، عساك تعثر على ناقد طيب القلب (يهديه اللّه إليك وإلى قصصك المأزومة) فيقول عنها أكثر مما قال قيس في ليلى العامرية .

يأتي على ذاكرتي قاص وناقد ، كلاهما كان صديقي ، تعلّم الأول كيف تُكتب القصة القصيرة ، أو توهم أنه قد تعلّم ، بعد أن قرأ العشرات من القصص السائدة المنشورة في الصحف والمجلات .

ما زلت أذكر كلامه وهو يبتسم «إذا كان هذا هو فن القصة القصيرة فأنا أكتب هذا النوع من القصص وأحسن منه أيضاً» . كان على حق ، وصار بعد عامين كاتباً قصصياً نشرت له أبرز المجلات

والصحف اليومية لا سيما وأنه كان يعطي قصصه للنشر عن طريق صديق آخر من كتّاب القصة .

ثم حاول كاتبنا أن يصبح أكبر ، ففوجئت به ينشر قصة في (الأقلام) العراقية ، وثانية في (أفكار) الأردنية ، ثم في (إبداع) القاهرية ، وإذا به يشارك في ملتقى القصة ومهرجان المربد !

كنت أسعد الأصدقاء بهذا الصديق الذي يصعد سلالم مجده الأدبي برغم أنه لا يكتب سوى هذا النوع السائد من القصص ، بل رحت أساهم في نشر قصصه هنا وهناك ، في بيروت وعمّان والقاهرة والدوحة .

صار واحداً من كتّاب القصة ، وعضواً في اتحاد الأدباء وشخصية محبوبة من نصف أدباء العراق . . ثم جاء وقت النقد ، محض مصادفة لا غير ، أن يجتمعا على مائدة واحدة : القاص والناقد ، القاص يمدح والناقد يصغي ، حتى إذا ما دخل الليل في نصفه الثاني ، صار الناقد يمدح والقاص يصغي . . وانتهت الليلة الساخنة بالعواطف والعناق على موعد لاحق قريب .

وتكرر اللقاء والحوار ، القاص يحكي عن آخر ما قرأ من كتب (لا يذكر سوى عناوينها) وعن مشاريع في الذاكرة ، والناقد يصغي ويطرب لهذا الطموح الجميل ، ثم جاء دور الناقد الذي صار يحكي عن كتب أخرى كان يقرأها وعن مشاريع في الذاكرة ، والقاص يصغي وينتظر أن يناله أيّ نصيب من تلك المشاريع (وكلها طبعاً عن كتاباته المستقبلية في حق افضل كتاب القصة) .

ثم جاء الوقت المناسب ، إذ من العيب أن يجلسا معاً ويحتسيا (هموم الدنيا) معاً دون أن يكتب هذا عن ذاك ، ويقول فيه كلاماً طيباً

يوازي حرارة المائدة التي عاشت عناقهما وحوارهما .

وكما أراد القاص ، كتب الناقد مقالته وبعث بها إلى النشر!

ولكن ، ما ان كتب الناقد مقالته ، حتى صار القاص يبحث فوراً عن ناقد آخر ومائدة أخرى ، ثم ناقد ثالث ورابع وخامس ، حتى لم يعد يجلس - هذا القاص المبدع - إلا مع النقاد ، بماذا ينفعه كتّاب القصة ، وهم لا يكتبون النقد ولا يقولون أي رأي فيه؟ . . والغريب في أمره ، أنه صار يترك الناقد الذي يكتب عنه ، مباشرة بعد نشر مقالته النقدية ، بل يكاد يهمله تماماً ، إذ ما نفع إضاعة الوقت وقد أخذ ما يريد من السيد الناقد الأول؟

**

صار القاص - بحماس أكبر - يكتب عشرات القصص ، من هذا النوع السائد الذي يكتبه كل من أراد الكتابة ، والذي لا يعرف غيره من القصص : مجرد حفنة من الكلمات القاموسية المختارة ، صار يفتش في الكتب المهمة عن مفردات أخرى ، ثم حفنة من الحوار ، مجرد حوار إذا ما رفعته من أية قصة من قصصه لن تشعر بفراغ أو خراب في المعنى ، ذلك أن القصة التي يكتبها برمتها مجرد (شيء) بلا معنى .

والغريب حقاً ، إن هذا (الشيء) الذي بلا معنى ، في داخله بطل (مأزوم) وقد أجمع النقاد على أن (أزمة) البطل هي أزمة الإنسان المعاصر الذي تحاربه حضارة القنبلة الذرية ، وانه الوجه الثاني من اضطراب القيم والمبادىء وتفكك العلاقات الاجتماعية - انظر كلمة تفكك - وأن ما يكتبه يعبّر عن إنشطار العقل العربي وتخبطه في بحر الظلمات!

بعـد هذا العـمـر الممـتع من النشـر في أحـسن المجـلات ، عـاش صـديقي - كمـا بقية أقرانه من كتّاب القصص السـائدة - في أجـمل أوهام العـمر ، صار يناقش ، يعترض . . بل ويشـاكس ، ويضرب المائدة إذا ما أغضبه (أحدهم) . .

صار كاتباً من كتّاب القصة!

10

دفاعاً عن الحُب

– هناك أشياء كثيرة لذيذة في هذا العالم يمكن القيام بها ، مثل عدم القيام بأي شيء!

هذا ما قاله (ميشيل زاماكويس) عام ١٩٤٥ وهو يشاهد مسرحية تافهة ، وعدم القيام بأي شيء هو ألذ ما يفعله بعض الناس ، وبعد مرور أكثر من ستين سنة ما تزال هذه المقولة تناسب المئات من البشر .

**

عندما قال «استورياس» إن رواية «مئة عام من العزلة» مليئة بالتكرار ، وثقيلة الظل ، وانها لم تعجبه اطلاقاً ، وان هذا الصبي «غارسيا ماركيز» مجرد جامع للامثال ، ما كان على ماركيز يومها غير القول : ليس المفروض أن تعجب «مئة عام من العزلة» أحداً بالقوة .

وما أقوله في كتابي هذا ، ليس بالضرورة أن ينال الرضا بالقوة أيضاً ، إذ صار من المضحك أمام انقلابات الكتابة وافرازاتها اليومية العجيبة ، أن يعمد بعض كتّاب القصة أو الشعراء إلى عملية (توصيف) لما سيكتبونه من شعر وقصة قصيرة ، ثم يكتبون على غرار ما جاء من توصيف مسبق ، فهذا يرى (الحداثوية) تناسبه أكثر من

الرومانسية ، وذاك يرى أن الكلاسيكية ما زالت هي المدرسة الأُم للشكل الذي يبتغيه ، وثالث يرى أن الواقعية هي ينبوع المدارس منذ بوشكين وانتهاءاً بالجواهري ، وان كان كاتب قصة فهو يرى أن الواقعية السحرية العجائبية ما جاءت أبداً على يد غابرييل غارسيا ماركيز ، بل جاء بها يوسف إدريس منذ أن كتب قصته الشهيرة (مسحوق الهمس) .

ترى ، هل يستوجب وصف البلبل حتى نطمئن إلى أنه بلبل؟ وهل ينبغي الوثوق من النخلة وحراشفها حتى نقول إن هذه النخلة هي نخلة حقاً؟ ذلك أن الذي يحدث الآن إنما هو شكل من أشكال الطُرفة أو النكتة .

**

دعونا نقرر الحال الذي نحن فيه اليوم ، ماذا نطلق على حفنة من الشعراء يشطبون بالقلم الاحمر على مملكة «المتنبي» وجمهورية «أدونيس» وبلاط «سامي مهدي» وقطاع «صلاح عبدالصبور» وبوابة «أمل دنقل» وشياطين «فوزي كريم»؟ ثم يأتي دور القصاصين ليشطبوا في الوقت نفسه ، على امبراطورية «زكريا تامر» وشاهنشاهية «الطيب صالح» ومنازل «محمد خضير» وديوانية «عبدالخالق الركابي» ومجانين «جليل القيسي» ليكتبوا بعدهم ، عن الوهم المسافر في فنجان قهوة ، وعن العربيد الذي يغرق في شبر ماء وعن الاخطبوط الذي قطعوا رأسه (بجرة) قلم وهم يضحكون على جبروت الابداع الذي دام مئات السنوات وكان هو المعلم والسيد والباشا والسلطان والأمير على كل ما جاء بعده من كتابات لا تطمع إلا بالطمع ولا طموح لديها غير أن يسقط الجبابرة .

الذي يحدث الآن ، هو أنهم يعملون على توصيف الشعر الذي سيكتبونه والقصة التي يحلمون بها ، ثم تبدأ الكتابة بعد (التوصيف) الهندسي وليس قبله . . الذي يحدث الآن هو أنهم يقررون أن الشاعر (س) كان رومانسياً ، والشاعر (ص) كان كلاسيكياً ، والشاعر (م) كان واقعياً ساذجاً ، وما عليهم سوى الكتابة على النقيض منهم جميعاً حتى تفتح أبواب المجد على مصراعيها ليأتي السيد الحبشي الرطين المسافر في المجرات وينشر ملحمة العصر على جبين الرمال!

يقول برنارد شو : ينبغي علينا أن نتحدث إلى المرأة بحسب درجة أنوثتها ، تماماً كما ينبغي أن نتحدث إلى المجنون بحسب درجة جنونه .

ولا أظنني ساقول أكثر مما يقوله سواي ، عن تلك الجوقة التي تنظر إلى العصفور قبل الكتابة عنه ، وتنظر إلى بستان البطيخ حتى تطمئن إلى محصول البطيخ - إن هذا بطيخ فعلاً - ثم تكتب وتغني مجدها الطروب الجميل ، إننا نعرف يا سادتي كيف نكتب مثلكم عن البطيخ والعصفور !

**

منذ عشرات السنين ، كان على هذه الأرض أكثر من «تولستوي» و«شولوخوف» و«ديستويفسكي» و«ستيفان زفايج» وكان عليها أكثر من «عزرا باوند» و«يفتشنكو» و«محمود درويش» ولا أحد منهم وصف الحال الذي يسبقه ليقرر ماذا يكتب بعد ذلك ، لأن الكتابة منذ أول حرف جاء على جلود الماضي كانت من أجل البشرية ، وأصلاً ، كانت من أجل الإنسانية ، ولا شأن لها بالموضة والعصرنة وشراء الحضور وابتياع الوجاهة . . إنها اصلاً ، منذ أول بيت شعر في

الجاهلية إلى آخر قصة قصيرة كتبها المرحوم موسى كريدي ، كانت وما تزال وستبقى عملاً حضارياً يخدم المستقبل والإنسان ويخدم أيضاً طمأنينة القلب موازاة الحروب والاخطاء والجرائم والذل والجوع .

لا بد للخطأ من أخطاء حتى يستقر في منزله ، ولا بد في رحلة العمر من شهود كثر على الصواب حتى يستقر الصواب في مملكته ، لا هذا قادر على شطب ذاك ، ولا ذاك بقادر على تحطيم هذا ، لكن جمهورية العوانس ترفض العروس الحسناء ، فهي وحدها من تحطم اسوار الاكذوبة وتذبح بحلاوتها اوهام الكلام الزائد ، والشعر كذلك هو العروس الاجمل بين اوهام العاجزين وباعة المجد .

**

الرجال العظام ، إذا كانوا أكبر منا ، فذلك لأن رؤوسهم ، كما يقول باسكال ، أعلى من رؤوسنا ، لكن أقدامهم دائماً هي في مستوى أقدامنا .

لهذا أتمتع بمن يراني عظيماً ، أو عبقرياً ، وربما غلّفني الغرور عشرات المرات بسبب ما يكتب عني من (وله) خارج النقد ، أنا لا أتمتع بما يكتب عن قصصي القصيرة أو رواياتي ، بل ألتذُ بما يكتب عني ، والفرق كبير طبعاً بين مقالة عن أدبي وأخرى عني ، نعم ، هناك أسماء معروفة كتبت عن مؤلفاتي ، أذكر منهم : شمس الدين موسى (المصري) وأفنان القاسم ، وعبدالعزيز المقالح (اليمني) وفاطمة المحسن وحاتم الصكر وصالح هويدي ومحسن الخفاجي ونصر محمد راغب وجواد الحطّاب ومحمود الريماوي (الأردني) وحمزة مصطفى ومالك المطلبي وحسين محادين والياس خوري وعلي الحلّي ومدني صالح وعواد ناصر ومحسن اطيمش وعبدالكريم الناعم (السوري)

وسامي محمد وعبدالجبار داود البصري وعادل المانع وياسين النصيّر وسليمان البكري وعلي حسن الفواز وفاروق سلّوم وعبدالرزاق المطلبي وأحمد خلف وغالب هلسا وغسان كنفاني (فارس فارس) وجليل القيسي وإبراهيم فتحي وقيس كاظم الجنابي ، وعشرات غيرهم ، لكن الكتابة عني (أنا عمّار جواس البدري) لها طعم آخر يشبه نكهة البرتقال والمانجا والفراولا ، لها طعم امرأة من الأساطير تأتي إليك وحدك من آخر الدنيا لتقول :

- هيت لك .

ولهذا ، ما زلتُ أحتفظ بتلك الكتابات التي جاءت عني وليس عن أعمالي (حلوة كلمة أعمالي ، تذكرني بديستويفسكي وعبدالرحمن مجيد الربيعي) ومنها كلمة بعنوان (دفاعاً عن الحب) كتبها شاب أعمى اسمه حازم الصافي ونشرها في جريدة (بابل) في التاسع عشر من شباط عام ١٩٩٢ يقول فيها :

قلت لصديقتي الرومانية «لقد نسي هذا الرجل وشاحه» . . كان ذلك عصر كانون رعدي في مطعم وسط بوخارست لا يبعد كثيراً عن مطارها . بعد عام تقريباً التقيت رجل الوشاح ، هو يذكر ذلك جيداً ، ذلك المتأنق جداً في اختيار النساء اللواتي لهن القدرة على جعل البحار المتوحشة تنام في حقائبهن الصغيرة كما تنام القطط البريئة ، كان ذلك الرجل هو عمّار جواس البدري ، وقبل أن تسرقني الكلمات ، فإن له عندي وشاحاً أبيض مثل حمامة . . فهل يذكر هو أنه قد ترك وشاحاً في يوم يلهث بالمطر والقبلات في مطعم وسط بوخارست لا يبعد كثيراً عن مطارها ؟ إن تذكر ذلك فليطالبني به ، أو ليهديني اياه ، على أن اسلمه - مجاناً - ثلاث صور مجنونة

«أخذتها» له يوم رأيته مرة أخرى وهو بصحبة امرأة ، اظنها عربية ، في متحف من المتاحف الألف المنتشرة على جسر مدريد المتوحش .

**

الآن ، سيتهمني ، بعضهم ، بأنني رجل يحلم بأمر ما يشبه دخول قنفذ عجوز جوف المعدة ، سيشيرون إليّ ويقولون هذا رجل يدافع عن شخص اتفقنا على أن نبغضه ، ولكنني أيها الزملاء رجل مشكوك في أن حبله السري ربما يكون قد دفن في حوصلة عصفور أو في فم قبلة سقطت سهواً على طريق عام ، كما انني (ثوري) من طراز جديد . . فأنا الثوري الأول في العالم الذي يستمد ثوريته من كونه عاشقاً من طراز عمّار البدري ، أنا رجل ثوري ولكنها ليست الثورية التي يحاول بعضهم ومن وراء ظهرها ، تصوير رائد الحب فينا على أنه ليس سوى - ديكتاتور - استهتر بمشاعر الشعب وقت أزمته . . قاس هو السيد الذي يستكثر على عمّار حديثه عن امرأة ما وقت الحرب . . أقول لكم انني احترم حدّ الموت ، ذلك الرجل الذي له القدرة على أن يجمع بين الحب وبين الحرب في حضن امرأة ، كما انني انحني احتراماً وتقديراً ، لمن يقدر على زرع ياسمينة جذلى وسط مستودع القنابل وبين أسرّة العرفاء المتعبين ، إنه لرجل بارع ذلك الذي يستطيع أن يذكرنا وسط دمدمة المدافع وألسنة اللهب البذيئة وصراخ الموت أن هنالك خلف هذا الكوم من الموت واليأس مرجاً اخضر يزرعه الحب وتغنيه نساء بطعم الروح ، بل انني اجزم - وعن تجربة - ان الذي يذكر الجندي بحلاوة أن يكون عاشقاً مجنوناً سيكون قادراً على أن يصنع منه بطلاً محارباً بدرجة عاشق (ملاحظة ، قد لا يحبها رؤساء تحرير الصحف ، وقد لا يستسيغها البعض ، وهي أن صورة جميلة

لـ«ليندا كارتر» تحفز الرجال على أن يحموا عيون الفرات من لظى الصواريخ الغبية ، أكثر مما تحفزهم التحقيقات العرجاء التي يكتبها صحفيون فاشلون عما يفعله تجار بلا عشق باسعار الغذاء) . . قد يقرر البعض أن كل هذا إنما هو شيء مما يكتبه رجل بلا بندقية . . فما الذي سيقوله الذين يهاجمون عمّار جواس البدري؟

إنهم ضجرون لأن الرجل العاشق الذي يريد نشر الحب في زمن الكوارث والجريمة والقنبلة الذرية هو أول من كتب للحب وللحرب . إن المتتبع لما يجري على الساحة الثقافية سوف يدرك أنهم ، هم ، أولئك الذين قصدهم البدري يوم كتب مقدمته الرائعة لكتاب أوراق امرأة عاشقة . . قال : هذا كتاب عن الحب أرجو أن يساعدني على نشر الحب في هذا الزمن الصعب ، وأرجو أن أصل به إلى حلبة المنافسة بينه وبين الكتابة في السياسة والدين والكوارث والترجمة والحروب والقنبلة الذرية ومباريات كرة القدم وغيرها .

اولئك الذين يحاولون منعه من الوصول إلى الضفة الأخرى لأنه لا يحمل مثلما يحملون ، لكنه ترك لهم كل شيء ليمشي خفيفاً لا يحمل سوى قلب عاشق وأوراق تخص رجالاً ونساءاً «عاشقين» وذكريات محلة ، وحب مدينة ، انني اسأله اليوم خوف أن يكون قد نسي في حقيبة سفره - سهواً كما يفعلون - رزمة دولارات تسعى كالحيات ، أو لعله عمل في زحمة انشغال الآخرين تاجر ويسكي وحتى - استغفر اللّه - تاجر مصاحف طبعت في ايطاليا ، لكنني اعرف ويعرف الذين يلبسون القبعات الملونة - حسب درجة حرارة الجو - انه لا يحمل شيئاً ولا يريد أن يكون سوى عاشق جوال «يملك قلباً يعطي ويسرف في العطاء ، وحتى آخر سنوات العمر» . انني أدعو

الأصدقاء جميعاً أن يقرأوا عمّار البدري مرة أخرى وبتجرد . . سوف يصفقون له لأنه قادر على أن يصمد في معركة الحب . . علينا أن نسمعه كلمات طيبة في حياته حتى لا نتعب في صياغة جمل العرفان له في أيام أخر . هذا بعض ما اقوله للرجال في اتحاد أدباء . . الذين حينما طلبت منهم نصيحة وأنا ابن سبعة عشر عاماً في ما أقرأ ، حتى أفهم ، واحس ، كم كانت دهشتي حامضة حينما كتبوا لي دواءاً غريباً ، ابتعد عن عمّار جواس البدري وكفى . . ذلك اليوم صممت على أن اعرفه بشكل آخر ، فلم اكرهه على الاطلاق .

أما ما اقوله للبدري فهو أن يتذكر فيما إذا كان قد نسي في مطعم وسط بوخارست ، ليس بعيداً عن مطارها ، وشاحاً أبيض بلون حمامة . . وفيما إذا كان يحب أن يرى صوراً ثلاثاً التقطتها له خلسة وهو يحتضن قصيدة شعر - اظنها عربية - في متحف ما من متاحف مدريد الجميلة .

**

تسقط السيجارة من بين أصابع المدخن ، ولا يسقط الدخان ، في القلب محطّات ينساها النبض ولا تنساها ذاكرة القلب ، وهذه الكلمة التي كتبها حازم الصافي جعلتني أبكي بلا دموع ، ثم تسرّبت إلى جناح الجسد وأرغمتني على الفرح بصورة لم أعشها منذ وقت ليس بالقصير ، مع أنني لا أعرف من يكون حازم الصافي ولم أكن قد رأيته قبل تلك الرسالة ، وأعترف اليوم بأنه كان وسيماً ومبصراً وهو يكتبها ، فما من غاية من كتابتها غير المحبة .

لا أدري لماذا حذّروه مني ، لماذا قالوا له أن يبتعد عني؟ اكتفيتُ حينها بما هو مكتوب فيها ولم أعد أسأل نفسي عمّا كانوا يضمرون

لي ، الحياة مفتوحةٌ أبوابها ومن العيب أن نغلقها دونما سبب عظيم .

اكتب في اليوم الأول من آخر شهر في عام ٢٠٠٦ ولم أفكر بعدُ في نشر هذا الكتاب ، ذلك أن التجنيس يبدو عسيراً عليه ، فهو كما أراه مرة سيرة شخصية عن أدباء العراق ، ومرة ما يشبه الرواية الكولاج ، ومرة عودة إلى الوراء منذ الستينيات حتى يومنا هذا ، وكان من الممكن كتابة ذلك في مقدمة أذكر فيها ظروف تأليف هذا الكتاب ، فقد اعتمدت فيه على ما أملكه من أرشيف ، مزقتُ منه مئات الصفحات بعد أن تراكمت في غرفتي الصغيرة جداً وأنا في عمّان .

أتمتع بنزهة يومية تطول أحياناً إلى عشر ساعات من قراءة الكتب التي جئتُ بها من القاهرة ودمشق وبيروت ، وصارت الكتابة أمراً جانبياً لا يرقى مطلقاً إلى لذة القراءة ، وليتني عشتُ ما فات من حياتي مع تلك الكتب الرائعة حتى أخففّ من نسبة الكتابة التي أزداد بها افلاساً بعد كل كتاب يمضي إلى الناس .

**

لم أعد أخرج من بيتي كما كنت أفعل منذ سنين ، صارت الشيخوخة تفرض نفسها على خطواتي ، وحادث السيارة التي هشمتني كان أكبر أسباب عزلتي وكآبتي ، وبالتالي قلّة اهتمامي بالدنيا وما فيها من ملذّات ونساء .

الخمرة تؤنسني من التاسعة حتى الواحدة ليلاً ، لكنها في الوقت نفسه توشك أن تفلسني ، فقد ارتفعت أثمانها خمس مرات منذ هبوطي على أرض عمّان الحسناء وما اشتريه اليوم من خمورها كنت أشتريه بنصف الثمن الذي أدفعه الآن .

العجيب ، هو أنني نشرتُ منذ خروجي قبل سبع سنوات وحتى لحظة الكتابة هذه عشرين كتاباً ، خمس روايات وست مجاميع قصصية وستة كتب في النقد وكتاب في المسرح وآخر مترجم إلى اللغة الصربية وآخرهم حياتي في قصصي والذي أحكي فيه عما جرى في طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي وبقية أحزاني .

كانت متعتي عظيمة بين فراش الموز وصندوق الأخطاء وسوق السراي وشارع المتنبي وسوق الوراقين ومقهى الشابندر وباب القشلة ، كتبتُ نصف الأحزان وحمار على جبل وبعد خراب البصرة وجمهورية العوانس وأنا في قطار السمك مع الحكواتي و(أبو الريش) والكوّاش وكلها عناوين يضاف إليها أسعد رجل في العالم الذي ترجمه (سربكو ليتشاريتش) إلى لغة اليوغسلاف وأسعدني حينها كأنني بحق أسعد رجل في هذا العالم .

العجيب ، أن هذه القصة كتبتها عن الشاعر گزار حنتوش ، وكم أوجعني خبر وفاته قبل أيام بنوبة قلبية وكنت أتمنّى أن تصل إليه نسخة من هذه السيرة ، لكنه كما أرى لم يعد بحاجة إليها .

**

في عام ١٩٦٤ عندما أخذني أبي جوّاس إلى القاهرة ، أحببتُ (عزّة محمد المهدي) وهي تكبرني بما لا يقلّ عن سبعة أعوام ، كان عمري آنذاك سبعة عشر ولكنني أبدو معها كأننا في عمر واحد ، كانت تكتب الشعر ، وكان شقيقها يعمل في السينما دوبليراً يقوم بالأعمال الخطيرة نيابة عن صلاح ذو الفقار ، مع أن السينما المصرية ليس فيها من شيء خطير يستحق البدائل .

دامت فترة العشق عشر سنوات من الرسائل والقصائد حتى

رأيتها ثانية في ١٩٧٤ فاكتشفتُ أن الحب كان من طرف واحد ، فما كانت عزّة سوى مصيدة في طريقي تحقق مآرب شقيقها الممثل الفاشل ، وهي نفسها لم تكتب الشعر ولا مرة واحدة ، بل كانت تسرق القصائد من هذا الشاعر أو ذاك وأنا أزداد لهيباً وعشقاً !

عشرة أعوام بلاهة ، عشر سنوات حبُ عارم من طرف واحد ، عشرة أسفار دون معنى ، حتى أنني أرسلتُ أختي وأخي لرؤيتها هناك ، وعادا من القاهرة دون أن ينطقا بشيء عن احساسهما ، قالا إنها جميلة ولا شيء سوى ذلك .

شعرتُ بوجع عظيم يوم اكتشافي حقيقة أمرها ، تلك الفتاة كانت درساً لا أستطيع نسيانه مهما جرى من مؤامرات بعدها ، وما زلتُ أعتقد أنها هي وحدها من علّمني تمثيل الحب دون حاجة إلى دوبلير يقوم في مقامي إذا ما جرت الرياح بما لا تشتهي السفن .

لم أعد أستخدم كلمة (أُحبكِ) مطلقاً ، حتى أتأكد تماماً من نوع المرأة التي أحبّها فعلاً ، ومن بين ١٨٢ أنثى لم أقل أحبكِ سوى ثلاث مرات طوال حياتي .

**

لا أتذكر عملاً قصصياً من أعمالي إلاّ وكانت المرأة بحراً ودغلاً ومسامة من بحاره وأدغاله ومساماته ، إنها العصب الخامس ، المخيف ، الجميل الذي لا يُرى في القصة ، لكنك تشعر به منذ السطور الأولى .

حتى عناوين كتبي تحكي قصة هذه المرأة في شعاب رأسي وممرات جلدي ، عنوان هنا يقول (نساء من مطر) وعنوان هناك يردد (أوراق امرأة عاشقة) وغيرها أسماء قصصي المنثورة في الشوارع والبيوت والمقاهي واكشاك المارّة ، انني مع المرأة دائماً من أجل أن تكون

حياتها أجمل وأهدأ وأكثر سعادة .

المرأة في حياتي هي نفسها تلك المرأة التي يراها الناس في قصصي ، ومن يقرأ (النورس في مدريد) أو (مساء الثلاثاء) أو (في مقهى لاپاس) سيرى أن هناك امرأة بعينها وبطلاً هو نفسه الكاتب أو قرينه الذي يحكي نيابة عنه ، وطوال سنوات الوظيفة كنت أعمل على مقربة من النساء ، وهنّ أفضل وأكثر اخلاصاً من الرجل بالمقاييس كلها ، وأرى أن المرأة تستحق راتباً ونصفاً على جهدها وحسن تدبيرها شؤون العمل ، لا سيما وأنها لا تشكو ولا تتبطّر إلاّ ثلث ما يشكوه الرجل أو يتبطر عليه ، وقد كتبتُ الكثير من القصص عن حياة الوظيفة ، منها (الفريسة من؟) وكذلك (النورس في مدريد) وهي قصة طويلة منعوها بعد نشرها ، خلاصة تجربة حقيقية في أروقة العمل ، حكيتُ فيها عن صناعة الحب الشهيرة التي تجري في سنوات الوظيفة والتي غالباً ما تنتهي بالزواج أو الهجران ، وفي الحالتين هناك دائماً قصة (ما) تستحق الكتابة ، وقد فوجئتُ بامرأة كاتبة اسمها (بشرى ناصر) كتبت عنها في قطر ، مجلة أخبار الأسبوع ، في الثامن عشر من شباط ١٩٨٩ حيث بدأت الكتابة بمقولة الامام عليّ التي يقول فيها (آه من قلّة الزاد وبُعد المسافة ووحشة الطريق) مع عنوان فوق صورتها يقول (شيء في صدري) وعنوان آخر كان هو أساس الكلمة جاء فيه (ضياع الحلم في قصة النورس في مدريد) :

– في مقدمة (السفر إلى الحب) يتساءل عمّار جواس البدري : لماذا نكتب القصة؟ لماذا يقرأ الناس هذه القصص؟ إن شراء قصة واحدة أصعب عشرات المرات من الذهاب إلى الطبيب ، وإذا دفع

القارىء نصف دينار في كتاب مزحوم بالقصص القصيرة فقد فعل المستحيل أمام إغراء التليفزيون والفيديو ورؤية نجوى فؤاد وهي ترقص في أحسن أفلام حسن الامام . . ومن أجل هؤلاء القراء الذين يحترم ذوقهم ، يكتب هذا القاص أحسن قصصه ويؤمن أن أفضل الكتابات هي تلك التي لا تتعامل معهم بفوقية ولا تضحك من بساطتهم .

ورغم أن عمّار جواس البدري قد اقترب كمٌّ إبداعه من الرقم عشرين إلا أنه قليل الحظ في الشهرة ، ربما لأنه لا يتملق النقاد ولا يحضر مجالس المساومين الاخوانية ولا يساوم على فنه . . بل يؤمن أن نقاد هذا العصر العظام رؤوسهم أدنى من مستوى رؤوس المبدعين . . ولا يرى ايما سبب يدعوهم إلى وهم العظمة .

في هذه المجموعة القصصية التي تحتوي على ست قصص طويلة نوعاً . . اخترت أن اقدم قراءة لأولها . . وهي النورس في مدريد لتمايزها الحاد كقصة . . ولأنها تركت في ذاكرتي طعماً أخاذاً . . تمنيت لو أني كتبتها . . فأنت لا تستطيع من خلال رؤيتك للبطلة رشا عبدالباري وهي تسير بهذا الجنون العذب . . وتقودها تناقضاتها الحادة إلى حتفها دون أن تشعر بالحزن لأجلها .

تلك المرأة التي تتوق إلى الإنعتاق من الوصايات الذكورية والأبوية . . والتي تمثل نموذجاً لامرأة رائعة تعيش في أزقة الطاطران «محلة الكاتب» تحلم بالسفر وتهب نفسها للكتب العظيمة والسينما الرائعة . . كانت تريد أكثر مما تريده المرأة العادية . . برغم هذا حكم عليها بالوظيفة كنافذة صغيرة تطل من خصاصها على ما يحتوي عليه عالم الرجال .

**

خسرت جسدها في الثالثة عشرة من عمرها . . أو ربما اكتشفته ليصير معيقاً لها . . تبدأ مشكلاتها بلقاء وجيه حيران الخلف الذي يشابه أباها . . وربما لهذا السبب راحت تقرأ بروح شبقة مريضة أسراره وتقلب إضبارته ورقة ورقة . . وتصر على معرفته حتى لتصير رغبة موجعة برغم أنها تستاء من لون عينيه وتؤمن أنه لصّ فاسقٌ طرد من الجيش لأسباب فاحشة . . وأنه ماكر يلبس كل يوم وجهاً جديداً . . ويتستر بآيات اللّه القرآنية .

لكنه يقودها إلى جملة ظروف وقدر جديد . . بل وربما نهاية مفجعة . . تبدأ بطلبه خدمة صغيرة منها . . فتكتشف أنها ليست خدمة . . بل عرضاً للزواج . . وعرض كهذا ليس في مجمل مخططاتها . . انها ترفضه لكنها تضع له ترتيبات ، أولها التحرر من أسرارها والاعتراف بصدق أن جسدها مأخوذ . . لكن وجيه «الحيران» جبان أطلق لساقيه العنان مكتفياً بطقوسه الدينية وآياته قبل أن يمنحها حتى فرصة استكمال لعبة الاشتياق . . تاركاً لها شبحه المطارد .

**

ثم يبدأ شبحه في الدائرة التي تعمل بها ، أو التي يعمل معها فيها . . لتواجه مصاعب نفسية جمة . . تكشف لنا أوراقها ونتعرف عليها ، فنراها امرأة شرقية مائة بالمائة تثور لشرفها وقد تضرب رئيس عملها بحذائها وتبصق على شاربه وعينيه . . لكن امرأة تدافع عن اسمها بالضرب لم توجد بعد في عرف الرجال إلا إذا كانت مجنونة . . لذا فمكانها الطبيعي بين الأدوية والصدمات الكهربائية .

يبدأ الجزء الأخير من القصة بتحقق حلم رشا عبدالباري وعزمها على السفر . . لكن وكما مات خالها وابن عمها واختها دون أن يكون

لهم قبور . . فقد مات وجيه ليعيش في ذاكرتها ويعكر هروبها ونزقها الحاد . . ولأنها راحت تعيد صياغة «قيمة المرأة» بمنظورها الذاتي فقد فشلت . . وتأكد لنا أيضاً أن ما ردده قطيع الذكور من مقولات «المرأة لا حق لها بالعمل» «وأنها جسد مشاع يمشي عليه من يشاء ويختار البقاء فوقه من يشاء» «والزواج سند البيع بين طرف وآخر» . . إلخ ، هو الحتمي والباقي حتى لو حاولت امرأة مثل رشا تعذيب جسدها باللذة أو الاقتصاص منه طالما يظل الاخرون ينظرون للأنثى باعتبارها جسداً فقط . . وها هي تمضي حياتها في وهم طويل وفي رغبة عارمة وملحة بالمغامرة . . لكنها برغم الهروب من الحاضر والوصايات . . ظلت أسيرة لهاجس مخيف لا يسكن الأماكن . . بل ينمو في داخلها ويتربى معها . . يكوّن «أناها» الخاصة «يطاردها كمارد أو شبح يمشي خلفها ويسأل عن افكارها ويومها . .» «ورغم المغامرات العابرة والصراخ في اقبية العشاق ورقص الفلامنكو كان هذا الشعور حارساً على جسدها وسجاناً . .» ثم نرى أنه ليس هاجساً . . بل حدساً قوياً . . وأن ثمة من يطاردها . . ليتركها فوق بركة صغيرة من الدم . . وقد تعلقت على وجهها ضحكة عريضة بقيت فوق ملامحها حتى الآن . . بينما غطت آية الكرسي صدرها بالدماء فلم يبق واضحاً منها غير ﴿لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . .﴾ ولكن ، من هوالعراقي الذي نزل قبل أن يقف قطار مدريد في باريس مملوءاً بالخوف . .؟

هذا ما تركه المؤلف حتى لا يفسد هذا الطرح الجميل لحكاية امرأة حقاً كالنورس .

**

من أجمل ما قرأته من شهادات ما جاء به جمال حافظ واعي الذي يقول :

- كنا نؤمن بحقيقة واحدة هي أن موتنا أمر مفروغ منه ، وهو أشبه بالقضاء المبرم ، لذلك أصبحت حياتنا بمثابة مراوغة لتأجيل هذا القضاء .

11

السابع من حزيران

أكتب في اليوم الأخير من شهر شباط ٢٠٠٦ وفي يوم كهذا قبل ثلاثة عشر عاماً جاءني خبر وفاة الممثل (هاني هاني) .

هل كانت مصادفة أن يقول لي قبل موته بأنه معجبٌ فعلاً بكتاباتي عن المسرح؟ لا أدري ، ولكن يشهد اللّه على أنني أحببتُ هذا الفنان واقتربتُ منه في سنواته الأربع الأخيرة كما يقترب الندى من المطر والعشب البريّ من الأرض .

أسعدني ما كان يقدمه للناس من فن رفيع وأخلاق توحي لك فوراً بأنه لن يعيش أبعد مما كتب اللّه له .

أية خسارة أن حكايته مع المسرح تنتهي مع (قصة حُب معاصرة) هو المحب المعاصر الذي كتب قصة حياته تحت خيمة الفقر والانتظار والبحث عن أيام محترمة غنية توازي احترامه لنفسه وحبه للناس والفن والحياة ، كم مرة يا هاني دفعنا سيارتك العتيقة (المفلشة)؟ كم مرة أحببناك وأنت تأتي صباحاً إلى المدرسة مع أطفالك والناس من حولك يستغربون :

- هذا الفنان المعروف ، سيارته تمشي بالدفع!

إلاّ أخلاقك يا هاني ، فقد كانت أجمل وأسرع من عربات الدنيا كلها .

معذرة أبا رشا ، أنا أرثيك اليوم ، من العيب أن نرثي الأحياء ، أنا أعطيك جواز مرور إلى الذاكرة والتأريخ والأصدقاء ، كلهم يذرفون الدموع عليك ، من ترى يصدق أنك قد (فعلتها) حقاً ومضيت ، تاركاً وراء ظهرك العشرات من المشاريع ، مشاريع العمر التي بقيت في حقيبة الرأس تنتظر فرصتها للظهور .

نم هانئاً يا هاني؟ نم شريفاً ، عفيفاً ، طيباً ، كريم النفس ، كلهم يقولون (خيراً) عنك ، لا أحد يمكنه أن يحكي شيئاً لا يناسب مقامك النظيف ، ويكفيك يا هاني ابن هاني هذا الحب الذي شيعوك به إلى مثواك الثاني .

أما عني ، فما زلت أرجو منك أن تعذرني ، لأنني ابداً لا أعرف كيف اقول عنك ما افكر فيه ، والذي ينبغي أن يقال ، لن تسعفني ذاكرتي على قوله الآن . . لا سيما وأنك ترفض أيها العزيز أن تسمعني ، لأنك ، كما ترى ، كنت قد غادرتنا مبكراً جداً وقطعت عنا فرصة أن نخبرك (كم احببناك وكم دفعنا عقولنا - كما ندفع سيارتك القديمة - لنصدق انك فعلاً يا هاني هاني قد رحلت عنا بهذه السرعة) .

أيها الصديق الرائع ، أيها الفنان المحترم ، نم هانئاً يا هاني ، لا هموم بعد اليوم على قلبك المسكين الطاهر . . أما سيارتك العتيقة فما زال كل واحد منا يحسد من سيملكها بعدك يا أغنى فقراء الأرض .

**

مات العشرات من الأصدقاء وأنا بعيد عنهم ، واليوم بعد أن

قطعتُ ثماني سنوات في عمّان وجدتني أعتذر من الموتى والأحياء معاً ، في طريقي إلى فراش النوم ، أعتذر ، وعندما أصحو ، سأعتذر ، أجلس في مقاهي عمّان وأنا أعتذر ، أمشي في شوارعها وانحناءات جبالها ولا أكف عن اعتذاري ، كيف أنني ذات يوم غادرت بلادي ولم أعد إليها .

أعتذر ، أنا عمّار جواس البدري ، لا أدري ماذا أفعل اليوم غير أن أعتذر ، من دجلة والفرات ، من شارع الرشيد ، من سوق السراي ، أنا حالة اعتذار موجعة من الرصافة والجسر والمها ، من مكتبة الشطري ، من مقهى الشاهبندر ، من زقاق الطاطران ومن سينما الخيام ، هل ما تزال هناك سينما في بغداد؟

لن أكف عن اعتذاري من باب القشلة ومن صبابيغ الآل وسوق حمادة والجسر المعلّق ، من صوت صفير البلبلِ في المدرسة الابتدائية ، والذي هيّج قلبي الثملِ ، أعتذر من أسيل ابنة أختي ، من منير ابن أخي ، من الناس التي تشبثت في أن أبقى ، أعتذر من أول أصدقائي حسين حسن ، ومن الليل البغدادي الطاعن في الأحزان ، أعتذر من حمدي مخلف الحديثي الذي ذرف الدموع بعد غيابي عن العامرية وشارع حيفا وحدائق اتحاد الأدباء ، من النخلة السامقة التي طالما جلستُ تحت ضحكتها الطروب .

أنا مسبوك من شخص آخر لا أعرفه ، مع أنه يحمل اسمي أحياناً ، أتماهى مع رجل يسمّونه عبد الستار ناصر وأفرد له جناح الذل من المغفرة ، وأقول بين يديه : يا اللّه ، كيف نسيت مكتبة التحرير وبناي جار اللّه ، كيف لا أرى بعد اليوم سوق الهرج بعد الهرج الذي نحن فيه؟ كيف لا أرى شارع المتنبي ولا سوق الصفافير؟ ماذا أكون

أنا إذا لم أجد نفسي مع المشائين في شارع النهر وسوق الشورجة ، وكيف تراني سأعيش بقية عمري دون حافظ القاضي وبائع الدوندرمة في المنصور ودون عشيقاتي وحبيباتي في كل شبر من أوهامي ؟

هل تراني تبرأتُ من البغددة بعد أن كنت أغوص في عظامها ولحمها وشعابها؟ هل تراني ما زلتُ أحمل اسمي القديم وأنا هكذا بعيد عن مسقط رأسي؟ نسيت شؤوني بعد أن غلبتني شجوني وأنا أفكر في الشناشيل و(الروازين) وشيف البطيخ على سطح البيت تحت نسيم الصيف ، أين ذاك الصبيّ اليافع الوقح الذي تضوع منه رائحة الكنافة والباقلاء والبالوتة واللبلبي؟ كيف تراه يمضي خبباً ويترك خلفه العاقولية وباب الشيخ والدهانة وسوق الغزل وسيّد سلطان علي وبني سعيد وفضوة عرب؟ كيف تراني نسيتُ بستان الخس والمهدية والفناهرة ورأس الحواش وخان اللاّوند وأنا مسبوك من حجارتها ومن كهولتها ومن حكاياتها التي لا تنتهي أبداً ؟

**

أعتذر وأنا مشقوق الفؤاد ، من الستّ نفيسة ومن الجعيفر والشيخ صندل وجامع غنّام ، تطاردني ذكريات طفولتي وصباي وأنا في باب السِيف والفحّامة وخضر الياس ورائحة التوابل والحنّاء والبهارات في سوق الشواكة ، ماذا أفعل غير أن أعتذر حتى تهدأ الروح وقد فارقت بيض اللقلق وبائع الفرارات وبائع البادم وشعر البنات والسمسمية .

عيني خفيفة الوطء عليك يا سوق حنون وسوق البزازين وأنتَ تحتضن البوبلين والكودري وخام الشام ودم الشهيد والشيفون ، أكاد أبكي واللّه على شربت الحاج زبالة (هل ثمة في الكون كله من يسمّونه زبالة؟ ماذا لو كانت الأسماء تباع وتشترى؟) وأذرف الدموع

على طوب أبو خزامة ، هناك حيث كنا نلعب عسكر وحرامية حتى يسقط الليل علينا .

هل ما يزال العيد عيداً في بغداد؟ هل ما يزال الناس يغسلون أجسادهم في حمام المهدي وحمام السيّد قبل يوم من العيد؟ ماذا حلّ بكِ يا بغداد الحلوة؟ يا بغدادي ، كيف أصدق ما يجري من ذبح وتفخيخ وقتل على ترابكِ المقدس؟ أقول : يا اللّه ، كيف يحدث هذا في بلد عربي مسلم كان اسمه وما يزال دار السلام؟ وهل ينفع اعتذاري أنني لم أُذبح مع المذبوحين ولم أُقتل مع المقتولين ولم يسفح دمي حتى الآن ؟

ماذا سأكتب عنكِ يا بغداد حتى أنال غفرانك دون شروط؟ أيّ نوع من المفردات سأبتكر حتى أشعر بالسماح وأرى الأبواب تفتح أمام قلبي التعبان الذي دهسته فضائيات الغش وأخبار الموت؟ ماذا أفعل وماذا أقول وماذا اكتب والسنوات تمشي بالمقلوب ، حيث عُدنا بالساعة إلى الوراء مئات الفراسخ كأننا ضحية هشة لعقاربها ، أين الشعر ، أين القانون ، أين الرواية ، أين الأمان ، أين قيس وليلى ، أين الحب ، أين الماء والعشب وأين شميم عرار بغداد الحلوة الحبّابة ؟

أعرف أن اعتذاري لا ينفع ، لكنني أتساءل كل يوم وكل ساعة وكل لحظة من زمن البشاعات والمسالخ وأصرخ نحو السماء وأقول : أين اللّه ؟

**

قبل أن أكتب اعتذاري ، وصلتني من حمدي مخلف مقالة تحت عنوان (عمّار جواس البدري ، متي تعود؟) كتبها خضير ميري الذي صار يملك بريداً ألكترونياً مثل بقية العقلاء ، هو الذي يعتز بجنونه

وانفلاته ، يقول :

– كان عمّار البدري ، النجم في سماء ثقافتنا ، وقد حافظ على صموده ونجاحه وشبابه لأكثر من ربع قرن ونيف ، كان ينطوي على جرأة وشجاعة في كتابة القصة القصيرة وهو يشاغب داخل مسروده القصصي ، فيرمز معرضاً بالسلطة الحاكمة آنذاك ، ثم يسطع نجمه برغم ذلك ، هو الأديب الذي ظهر على شاشة التلفزيون وصافح الديكتاتور ، ثم سرعان ما سافر إلى عمّان ليعلن قطيعته مع النظام المقبور ويكتب عن مكبوتات لديه مع أسرار ومواقف محرجة ، وعندما قابلته في عمّان عام ٢٠٠١ وجدته ما يزال حيوياً ومرعوباً مما يحدث في العراق من مآسٍ ومجازر وعبث بحيوات الناس ، واليوم ، بعد أن تحقق حلم عمّار جواس البدري بسقوط النظام الديكتاتوري ما زال مصرّاً على تحمّل غربته بينما العراق يمرّ بألف محنة ومحنة ويتعرض إلى فراغ ثقافي (وسكت رواده فيه) وعجالة القادمين إليه والراحلين بسرعة عنه .

إن عمّار البدري ترك فراغاً لا يمكن نكرانه أو التنكر له ، داخل الخطاب الثقافي العراقي الذي يعاني اليوم من أسوأ حالات التسييس و(التجيير) وآليات الضغط و(الاضطغان) ويدخل على جسده طعنات جديدة ومشكلات قاتلة .

يمرّ عمّار اليوم بأزمة صحية صعبة ، بعد تعرضه لحادث سيارة ، يتطلّع إلى قلوب محبّيه و عشاقه – من النساء طبعاً – اضافة إلى صعوبة حياته مالياً في عمّان ، نقول : سلامات أيها الصديق الساحر ، ونرغب بعودتك إلى جحيم العراق ، اللذيذ ، الرائع .

كان هذا الموقف قد أسعدني حقاً ، مع أنه جاء من مجنون ، ولم

أقرأ أيّ موقف آخر من رجل أو مبدع عاقل سوى ما كتبه عني حسن العاني بمناسبة عيد ميلادي .

**

في جريدة الزمان ، نشر الكاتب والأديب المبدع الصديق العزيز عمّار جواس البدري مقالة تحت عنوان (السابع من حزيران ١٩٤٧) أشار فيها إلى أن هذا اليوم ، وهو عيد ميلاده ، هو يوم نكد وشؤم في تأريخه الشخصي ، لأنه فقد نخبة من معارفه وأصدقائه الأدباء والفنانين ومنهم نصر محمد راغب ، محسن اطيمش ، كاظم جواد ، وموفق الخطيب ، كما انتقل إلى رحمة اللّه في مثل هذا اليوم خال عمّار البدري وابنة أخيه وابن أخيه وابنة أخته وخال أمه وابن خالته ، وفي مثل هذا اليوم الذي تمنّى الكاتب فيه لو اجتمعت المرجعيات الشيعية والسنيّة وأصدرت فتوى بالغائه من التقويم السنوي ، قامت إسرائيل بضرب المفاعل النووي العراقي ، كما استولت على القدس الشريف واعتدت عسكرياً على الجنوب اللبناني ، وفي مثل هذا اليوم بلع عمّار جواس البدري – على عهدته – أكثر من ٣٥ قرصاً دوائياً في محاولة للانتحار بعد أن يئس من الحياة وهو يمضي أيامه الساخنة في غرفة لا يزيد طولها على مترين تحت رحمة المخابرات في بغداد ، إلاّ أنه لسوء حظه ولحسن حظنا – نحن أحبابه – لم يمت!

مقالة مفزعة ، لا أنصح النساء الحوامل ولا الأحداث بقراءتها ، فهي لا تتحدث عن غير المآسي والكوارث والميتات المفجعة وكأنها كلمة ممثل الجامعة العربية في توديع زعيم عربي إلى مثواه الأخير!

على أن أغرب ما في المقالة هي نهايتها ، التي يتمنّى فيها موتي بصورة مبطنة ، حيث يقول : ولا أدري لماذا أظن وأعتقد وأتخيّل وألح

على خيالي وذاكرتي بأن الكاتب القاص الصحفي المعروف حسن العاني لا بد أنه من مواليد هذا اليوم أيضاً ، وسوف أسأله ذات يوم حتى أضيفه إلى ضحايا عيد ميلادي ، ذلك أن سوء الطالع وسوء الحظ وسوء الحال الذي يعانيه صديقنا المبدع حسن العاني لا يمكن أن يأتي مطلقاً إلاّ لمن كان يوم ميلاده هو السابع من حزيران أيضاً !

أريد أن يطمئن الصديق عمّار بأن يوم ميلادي هو أكثر سوءاً وشؤماً من يوم ميلاده ، فأنا من مواليد ٢٨ نيسان ١٩٤٥ وفي هذا اليوم ولد أدولف هتلر أكبر كارثة في تأريخ الحروب البشرية ، وفي مثل هذا اليوم أحرق نيرون عاصمته الجميلة ، وفي ٢٨ نيسان أيضاً ولد طاغية العراق أعظم كارثة في التأريخ المعاصر ، وفي مثل هذا اليوم الدامي قررت بمحض ارادتي ومن دون اكراه أو ضغط من ديوان الرئاسة الموقر ، أن أتخلّى عن حريتي في المحكمة الشرعية ، وسلّمت مفاتيح معتقلي الرهيب إلى عقيلتي سليلة الحسب والنسب والنفوذ والسلطان والقوة ، وفي مثل هذا اليوم أيضاً قبل عشرين عاماً تعرضتُ إلى أسوأ كارثة في أحد مطاعم شارع السعدون ، حيث تعرفتُ على عمّار جواس البدري!!

**

هذا ما كتبه عني مغامر المقالات المشاكس حسن العاني ، وأنا فعلاً لا أحتفل بعيد ميلادي ، ولا يهمني ما يقال عن يوم كهذا حتى بالنسبة للكبار من المبدعين ، فهو مجرد يوم آخر لا يختلف عن بقية أيام الأرض وهي تدور حول نفسها (بالمناسبة ، آخر من حاز على جائزة نوبل أورهان باموق مولود في السابع من حزيران أيضاً) .

عيد الميلاد ، ماذا يعني لك؟ هكذا يسمّونه طبعاً ، عيد المستر

جون هامستد في لندن ، وعيد المدموزيل نيكول في باريس ، وعيد الشيخ عصفور في الچبايش ، في النمسا كما هو في بوليفيا ، في بيروت كما هو في الدوحة ، وبرغم ذلك جرى ذات يوم بين الأصدقاء في بغداد الاحتفال بعيد ميلاد عمّار جواس البدري في السابع من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٧ .

وهذا اليوم كما تعلم أمي وحبيبتي وجيراني في اسكان غربي بغداد من أغرب أيام العمر بالنسبة لي ، إذ جئتُ إلى الدنيا ليلاً دون هلاهل وبلا شموع ، إذ طغت يومها أخبار الدمار والحروب وغياب (هتلر) ليس على ولادتي وحدها ، وإنما على أخبار الوطن العربي كله ، وأنا عكس أقراني الذين يفخرون بأعياد ميلادهم ، أضحك من هذا اليوم وأخاف منه فعلاً ، ذلك أن أسوأ ما جرى طوال حياتي كان يحدث للأسف في هذا اليوم نفسه من كل سنة .

مثلاً ، ضربت إسرائيل مفاعل تموز النووي في سبعة حزيران واستولت على القدس الشريف في ٧ حزيران ومات أحبّ أصدقائي نصر محمد راغب في التأريخ نفسه ، كما انتقل إلى يوم حسابه محسن اطيمش في ٧ حزيران ، وكذلك الحال بالنسبة للشاعر كاظم جواد ، بل مات أخي عبدالرحمن بجلطة في الدماغ يوم ٧ حزيران وكنت قد انفصلت عن زوجتي في اليوم نفسه من السنة نفسها!

وفي هذا التأريخ العجيب الغريب ، غرقت ابنة أختي فائزة في بحيرة الحبانية مع عشر بنات عام ١٩٧٩ وماتت معهن طبعاً ، وهو نفسه اليوم الذي انتقل فيه إلى رحمة اللّه ابن أخي (صائب) بالسرطان عام ١٩٨٢ ناهيك عن انتحار ابن أختي فاطمة برصاصة في فمه على طريقة آرنست همنغواي عام ١٩٨٩ زائداً موت الفنان

الصديق موفق الخطيب في السابع من حزيران عام ١٩٩٣ وموت خال أمي الشهير (مهدي الكبابچي) في الشواكة وهروب حبيبتي إلى أقصى مدن الشمال عام ١٩٧٤ إلى هلسنكي ، والكثير الكثير مما أغفلته الذاكرة .

**

إنها أصعب أيام العمر حقاً ، وأنا أبداً لا أحتفل بهذا اليوم المرعب ، لكنني أتذكره تماماً برغم أنفي ، وأخاف من نسيجه وعقاربه وتماسيحه وأرجو من اللّه سبحانه أن يمرّ النهار والليل في السابع من حزيران على ألف خير .

واليوم ، صار عمري سنة أكبر ، وصرتُ أخاف عيد ميلادي أكثر وأكثر ، إنه أعجب أيام العمر وأكثرها غرائبية ، فقد خسرتُ فيه صديقي الشاعر فوزي كريم عندما هاجر في مثل هذا اليوم إلى لندن عام ١٩٧٩ وخسرتُ فيه صديقي سركون بولص عام ١٩٦٥ عندما هاجر صوب أمريكا ، بل فشلتُ في الدراسة نهار السابع من حزيران عام ١٩٦٣ ولم أحصل على أيّ شيء من نعيم الشهادات والرقي والنجاح .

وهو يوم غريب فعلاً ، مات فيه خالي محمد فارس عام ١٩٨٧ هو الذي قام بتربيتي طوال طفولتي ، كما مات فيه منذر جاسم ابن خالتي عام ١٩٨٤ هو وأطفاله في حادث رهيب تحت نفق الشرطة ، ولم أعد أحب هذا اليوم أبداً ، بل أرتعش هلعاً عندما يقترب مني يوماً بعد يوم ، وكنت أرجو اللّه تعالى أن يمسحه من التأريخ لئلا أراه وأعيشه وأخاف منه عاماً بعد عام .

**

ربما يستغرب القارىء ما أقول ، وقد لا يصدقه ، لكنني في هذا

اليوم انتحرتُ بكمية من الحبوب تزيد على ٣٥ حبة ، وكنت يومها أنام في غرفة لا يزيد طولها على مترين تحت رحمة جهاز المخابرات في العراق ، كم يؤسفني أنني يومها لم أمت وبقيتُ (حياً) أرى قسوة الزمان تزداد حولي ساعة بعد ساعة .

سبق لي تسجيل ما جرى في السابع من حزيران ، والعجيب أنها أحداث جدّ سيئة وليس من شيء سعيد فيها ، وقد كتبتُ في يومياتي عشرات الغرائب لكنها حصلت في عموم الخارطة وليس في العراق وحده ، السابع من حزيران يوم أخافه ولا أحبه ، وفي مذكراتي مواجع شخصية ونكبات متفرقة ، كلها جرت في ذلك اليوم الموحش الكئيب ، فقد ضربت إسرائيل جنوبي لبنان في السابع من حزيران عام ١٩٩١ بوحشية لا مثيل لها ، وفي اليوم نفسه مات الكثير من الأدباء والفنانين الكبار في العالم .

هو يوم سيء بامتياز كبير ، لعل أسوأ ما فيه ، هو أنني أنا نفسي ولدتُ فيه قرب بطيخة فقيرة جاء بها أبي ليخدع أمي بعد عذابها الرهيب وبلواها بمجيء هذه الكارثة التي اسمها يشبه اسمي ، كان يخدع أمي فعلاً وهي تقدم للدنيا أسوأ مولود جاء في السابع من حزيران سنة ١٩٤٧ حيث كانت الحرارة في بغداد تكفي لسلق البيض في الشوارع !

هل تراني سأفعل المستحيل إذا ما جعلت من هذا اليوم عكس ما كان عليه؟

أنا ، بصراحة ، ما زلت أحاول أن يكون هذا اليوم أفضل قليلاً مما كان عليه ، برغم أنني على ثقة ويقين أن السابع من حزيران - يوم ميلادي - سيبقى من أسوأ أيام العمر ، عمري أنا ، مع الاعتذار لبقية

مواليد هذا اليوم ، ولا أدري لماذا أظن وأعتقد وأتخيّل وألحّ على خيالي وذاكرتي أن الكاتب القاص الصحفي المعروف (حسن العاني) لا بد أنه من مواليد هذا اليوم أيضاً .

سوف أسأله ذات يوم حتى أضيفه إلى ضحايا (عيد ميلادي) ذلك أن سوء الطالع وسوء الحظ وسوء الحال الذي يعاني منه صديقنا المبدع حسن العاني لا يمكن أن يأتي مطلقاً إلاّ لمن كان يوم ميلاده هو السابع من حزيران أيضاً !

**

يقول شاكر الانباري : إن رسالة الفن التي يكتبها عمّار جواس البدري تصل إلى القراء دون مبالغات ودون افتعال ، وان قصصه هي فعلاً ضد البلاهة والفراغ والموت والجنون كما يصفها البدري نفسه في مقدمة (الحكواتي) .

وهذا يعني أن السابع من حزيران ليس سيئاً إلى هذا الحد ، وربما كان فيه بعض المنافع للبشرية .

12

مهنة الافلاس

في السابع من حزيران ٢٠٠٧ أكون في الستين من عمري ، ليس من الممكن نسيان ما فعله أدونيس الشاعر من أجل انقاذي من براثن السلطة المقبورة التي سلبتني حريتي في التاسع من شباط ١٩٧٥ فقد كتب في افتتاحية مجلته (مواقف) العدد ٣٠ من السنة نفسها تحت عنوان (الكتابة والسجن) :

– أُعتقل في بغداد الكاتب العراقي عمّار جَواس البدري وتردد أن سبب اعتقاله قصة نشرها بعنوان (سيّدنا الخليفة) اعتبرالنظام القائم أنها ترمز له .

كل نظام يقدر أن يفسّر أي نتاج أدبي أو فكري على أنه ضدّه ، إذا كان يعتبر نفسه ضد الحريات الديمقراطية الأساسية التي هي الخبز الآخر للشعب ، وفي طليعتها حرية التعبير ، وهذا ما يؤدي إلى نهاية الابداع وتحويل الإنسان إلى كائن يُعامل كما تعامل الأشياء .

إننا نستنكر كل قمع يتعرّض له الكاتب بتهمة الكتابة ، فالخطر كل الخطر ليس في الكتابة مهما كانت ، وإنما هي في القمع ، في الخرس والصم والعمى .

وهذا الصوت الذي نرفعه تعبير عن اصرارنا على تمتع الكاتب والمفكر والفنان بالحرية الكاملة التي لا بديل عنها ، ذلك أن هذه الحرية صدى للحرية الاجتماعية ، وكل قمع للكتابة إنما هو امتداد لقمع اجتماعي أشمل .

وهذا الصوت الذي نرفعه يمثل أصواتاً عربية كثيرة .

الحرية لعمّار جَواس البدري .

**

في نهاية الكتاب ، يطيب لي ذكر أحلى ما قيل عني ، ليس للتباهي كما يظنّ البعض ، لكنه الوفاء لمن غاب عنا ، والوفاء لمن تبقى على قيد الحياة ، وما قالوه عني أعطاني شوطاً مضافاً للكتابة والشهيق ، إذ ليس من السهل أن تبقى في هذا العالم إذا كان كله حسد وغيرة وسباق أعمى نحو مجد لن يصل إلينا أبداً ، فقد وصفني فاروق سلوم بأنني (قاص الشوارع الخلفية) في جريدة الجمهورية ١٦ آب عام ١٩٨٧ ، وقال عني رشدي العامل :

- منذ فترة طويلة ، لم أقرأ مجموعة قصص لكاتب عراقي يتمتع كاتبها بالقدرة على الإمساك بزمام التكنيك القصصي ، وبالموهبة على رصد مشرق وأخّاذ فيما انطوى عليه من سلاسة وليونة ، مثل مجموعة عمّار جواس البدري (الحب رمياً بالرصاص) الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥ .

قالها في جريدة الجمهورية في الخامس عشر من نيسان عام ١٩٨٦ تحت عنوان (نعم ، إنهم كتّاب عراقيون) .

قال الدكتور نجم عبدالله كاظم في مقالته (عمّار جواس البدري أديب له جمهور) ما ينبغي نقلها كاملة ، لكنني لن أفعل ذلك ، بل

أتركها لضمير الذاكرة والقراء ، وقد نشرتها جريدة العراق يوم ١٢ من الشهر الخامس عام ١٩٩٣ .

بينما يكتب أفنان القاسم في مجلة (الطليعة العربية) في الثامن من نيسان ١٩٨٥ أن مستوى قصصي (فنيّ ورفيع) ويكرر قوله عبدالرحمن مجيد الربيعي بعد سنة واحدة ليقول :

- عمّار البدري بارع في تعامله مع اللغة ، وهو لا يكلّفها أبعد من طاقتها ، وإنها لديه وسيلة لا غاية ، ولذلك يظل القارىء معه . وكان قد نشر ذلك في جريدة الجمهورية أيضاً في الثاني من تموز عام ١٩٨٦ .

أما صديق طفولتي حسين حسن ، الشاعر والمترجم ، فقد قال قولته الشهيرة عني :

- عمّار البدري يحتال علينا ، فقد تعلّم التشويق والإثارة من السينما ، كان يذهب إلى السينما كل يوم ، وهناك في الظلمة درس فن الغواية والإمساك بتلابيب القارىء ، عليه أن يعترف بفضل السينما عليه .

كتب عني شمس الدين موسى أكثر من خمس مرات ، كان معجباً بما أكتبه حدّ أنه قال في الحادي عشر من أيلول ١٩٨٦ في مجلة (عالم الكتب) :

- من المعروف أن عمّار جواس البدري ليس غريباً على متابعي القصة في مصر ، فقد نشرت له قصص عديدة في فترات سابقة بالمجلات (ابداع) و(الموقف العربي) و(روز اليوسف) وجريدة (المساء) فهو من الكتّاب العرب الذين اخترقوا جدران الحدود معمّقاً المساحة التي يتحرك عليها ككاتب قصة لا يريد أن تظلّ العوالم التي يقدمها

أسيرة لحدود بلده .

**

أسعدني سيف الجراح عندما قال عني في مجلة (ألف باء) في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٩١ ، بأنني (عصاميّ) في الثقافة بدرجة جيدجداً ، لم أدرس في كلية أو جامعة ، لا في الوطن ولا في خارجه ، إنما أصبحتُ ما أنا عليه بمحض جهدي وحده .

والقول نفسه سيكتبه معد فياض بعد سنة من تأريخه (فما من شيء أحبّه عمّار البدري يوازي عشقة للكتابة والقراءة) بينما يكتب عبدالعزيز المقالح في جريدة الحياة في السابع من أيلول ٢٠٠٥ :

– ليس من شك في أن الكاتب الروائي والقاص العراقي عمّار جواس واحد من هؤلاء الذين يأسرون القارىء ويحكمون سيطرتهم عليه ، لا يمكن أن يكون من يكتب هذا الكلام عن (أخطائه) و(جرائمه) سوى عمّار جواس البدري ، هذا الواضح الشفاف الذي يكره التصنّع والتمويه على النفس كما يكره التصنع والتمويه في الكتابة .

تزدحم ذاكرتي وأرشيف حياتي بآلاف الصفحات ، هي غذائي وطراوة أيامي ، حتى أحزانها كانت من نوع آخر لا يشبه أحزان سواي ، هو (الحب في الزمن الصعب) كما يقول حاتم الصكر في التاسع من تموز ١٩٨٢ على جريدة الجمهورية ، والقول نفسه يكرره لطيف ناصر حسين في الخامس والعشرين من حزيران في الجريدة نفسها ، لكن جليل القيسي كان أول من كتب عني وحفّزني على البقاء حتى أكتب ، كان ذلك في مجلة (ألف باء) بعد نشر أول كتاب لي عام ١٩٦٨ وهو (الرغبة في وقت متأخر) كتب يقول : إن

عمّار البدري موهبة واعدة ، وأضيف بمسؤولية ، إن عمّار سيكون من أبرز القصاصين في المستقبل .

قال ذلك عني وأنا في العشرين من عمري ، تنهشني نرجسيتي ويغلبني الغرور على أمري ، بينما جليل يؤكد أكثر من مرة (أنني مؤمن جداً بموهبته ، أنظر بكثير من التفاؤل إلى مستقبله الأدبي) . . ثم راح يقارنني ، وأية مفاجأة عظمى ؛ بما فعله وليم فوكنر وكروتشه وكافكا وأسماء ما كنت أعرفها آنذاك .

**

أكتب كل يوم ، وأقرأ كل يوم ، وعلى مقربة مني تمشي سنواتي بسرعة حصان بريّ جامح ، لكنني عشتها واكتفيت بها ، فهي حياتي التي لن تتكرر حتى إذا عدتُ سهواً إليها بعد مئات السنين .

أمين صالح قال نيابة عني ما كنت أريد قوله بعد هذه السنوات الطوال :

ها أنت هناك ، في المنفى ، تخوض رئات عواصم ترشقك بالعداوة حيناً ، وتشيح عنك بلا اكتراث حيناً . ودائماً إليك الضواحي ككائن دخيل . . . «اذهب من هنا أيها الأجنبي» .

وحتى عندما تطول إقامتك في المكان الغريب ، فإن جسدك فقط هو الذي يكون حاضراً ، أما روحك وذاكرتك ومشاعرك فمشدودة إلى الماضي ، إلى المنبع ، إلى الوطن الأم ، تحاول أن تسدل سديم النسيان على القلب اللاهث ، لكن تباغتك الذاكرة من حيث لا تدري ، صورة ما ، نبأ ما ، حلم ما . . . يبلل روحك الغافية فترتعش أطرافك من فرط الحنين الموجع .

ها أنت هناك ، في المنفى ، تجرجر أثقالك وأعبائك وحاضرك ،

عارفاً أن جذورك ليست هناك بل هنا . . . حيث الهواء والماء والأرض واللغة والطفولة والأهل والسهر والضحك والألم واللعب ، وكل هذا يقتفي أثرك أينما حللت ، يجذبك من كتفك لتلتفت إلى الوراء ، ومهما قاومت وعاندت وكابرت فإنك لا تستطيع أن تتجاهل النداء اللحوح الذي يتحول إلى عويل ونحيب في هاوية روحك ، أما إذا كنت مسكوناً بالماضي ، فإن آلامك ستكون مبرّحة ، مهلكة ، وبلا شفاء .

**

تذكروا قطعة الأرض الصغيرة الرطبة في مقبرة الكرخ ، فهي ما زالت بحاجة إلى رقم السنة التي سأموت فيها ، ليس من شاهدة مرمرية تشبه ما هو مكتوب فيها :

هنا يرقد عمّار جواس البدري

عاش ومات ، لماذا؟ لا ندري .

وتذكروا ، عفواً ، بأنني أحبّ الحمار ولا أرى في وصفه شتيمة كما يشعر بذلك الناس جميعاً ، كما أتمنّى لو أنني عدتُ إلى الثلاثين من عمري حتى أعمل في السينما ، فقد أرهقني تمثيل دوري كل يوم ، وكل يوم أنا عمّار جواس البدري ، وهذا ما أتعبني فعلاً .

لن أفسخ العقد هذه المرة ، سأقول إذا ما رجعتُ إلى شبابي : وداعاً لمهنة الافلاس الجميلة ، وداعاً لمهنة الكتابة .

عمّان ٢٠٠٧

أدباء وأصدقاء

هكذا رحلوا !

١- محمود البريكان . شاعر . مات مقتولاً في بيته .
٢- رشدي العامل . شاعر . قتلته العائلة .
٣- عبدالجبار عباس . ناقد . قتله الحرمان والافلاس .
٤- يوسف الصائغ . شاعر . قتلته السجائر .
٥- شفيق الكمالي . وزير وشاعر . قتله الحزب الذي انتسب إليه .
٦- موسى كريدي . قاص . مات كمداً وحسرة .
٧- حياة شرارة . روائية . انتحرت احتجاجاً .
٨- محمود جنداري . قاص . مات مسموماً بعد خروجه من السجن .
٩- صاحب الشاهر . شاعر . مات في طريق عودته من الحرب .
١٠- نصر محمد راغب . قاص . مات في حادث سيارة .
١١- حاكم محمد حسين . قاص . قتلوه رمياً بالرصاص بعد هروبه من الحرب .
١٢- محسن اطيمش . ناقد . مات بالسرطان .
١٣- غانم محمود . مترجم . قتله البرد والجوع والخمرة .

١٤- لطيف ناصر حسين . قاص . مات وهو يحلق ذقنه .
١٥- شريف الربيعي . شاعر . الوحيد الذي مات وهو يضحك .
١٦- عبدالأمير الحصيري . شاعر . قتلته الخمرة على رصيف شارع الرشيد .
١٧- ضرغام هاشم . كاتب . قتلوه غدراً .
١٨- سامي النصراوي . مصوّر فوتوغرافي . مات بصاعقة من السماء في أميركا .
١٩- جليل القيسي . قاص ومسرحي . مات وحيداً .
٢٠- محمد شمسي . روائي . مات بالسرطان أيضاً .
٢١- عبدالأمير معلّة . شاعر . قتله الحزب الذي انتسب إليه .
٢٢- صلاح الانصاري . قاص . قتلته الخمرة والاهمال .
٢٣- نزار عباس . قاص . قتله (زقاق الفئران) .
٢٤- حسين سلمان . باحث . مات بالسرطان أيضاً .
٢٥- منهل نعمة المهدي . شاعر . قتلوه شنقاً بعد التعذيب .
٢٦- سامي محمد . كاتب . مات سهواً .
٢٧- ياسين أبو ظفار . شاعر . قتله ارهابي من البهائم .
٢٨- يوسف الحيدري . قاص . مات فجأة وهو في سيارة عبدالخالق الركابي .
٢٩- مطشر السوداني . ممثل . قتله ارهابي من البهائم .
٣٠- گزار حنتوش . شاعر . مات بنوبة قلبية .
٣١- أطوار بهجت . شاعرة ومذيعة . قتلوها رمياً بالحقد .
٣٢- اسماعيل عيسى . قاص . مات وهو بحاجة إلى دواء .
٣٣- أحمد فياض المفرجي . باحث . مات منتحراً رمى بنفسه أمام

سيارة .
٣٤- حسن مطلك . قاص . مات تحت التعذيب .
٣٥- جعفر السعدي . مخرج . مات على خشبة المسرح كما كان يتمنّى .
٣٦- رعد عبدالقادر . شاعر . مات كمداً وحزناً .
٣٧- رياض إبراهيم . شاعر . قتلوه غيلة وغدراً .
٣٨- عوني كرومي . فنان مسرحي . قتله عشقه للمسرح .
٣٩- إبراهيم زاير . فنان تشكيلي . قتل نفسه على طريقة مايكوفسكي .

من اصدارات عبدالستار ناصر

١- لا تسرق الوردة رجاء . قصص . اتحاد الكتّاب العرب . دمشق ١٩٧٨ .
٢- الحب رمياً بالرصاص . قصص . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٨٥ .
٣- امرأة في البريد . قصص . دار الشؤون الثقافية . بغداد ١٩٩٠ .
٤- أسعد رجل في العالم . قصص . Geo poetika يوغسلافيا ٢٠٠٤ ترجمة سربكو ليشتاريتش .
٥- على فراش الموز . رواية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠٦ .
٦- سوق الوراقين . كتابات في النقد . دار ورد . عمّان ٢٠٠٧ .
٧- الحكواتي . قصص . دار المدى . دمشق ٢٠٠٦ .
٨- سيدنا الخليفة . قصص . وكالة الصحافة العربية . القاهرة ٢٠٠٤ .
٩- نساء من مطر . قصص . مكتبة النهضة العربية . بغداد ١٩٨٧ .
١٠- حياتي في قصصي . سيرة أدبية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠١ .
١١- مسرحيات عراقية . دار ورد . عمان ٢٠٠٧ .
١٢- نصف الأحزان . رواية . دار الآداب . بيروت ٢٠٠٠ .
١٣- صندوق الأخطاء . رواية . وكالة الصحافة العربية . القاهرة ٢٠٠٢ .
١٤- باب القشلة . كتابات في النقد . المؤسسة العربية للدراسات

والنشر . بيروت ٢٠٠٣ .

١٥- مقهى الشابندر . كتابات في النقد . مكتبة مدبولي . القاهرة ٢٠٠٥ .

تحت الطبع :

* قشور الباذنجان . رواية .
* الحكواتي الثاني . قصص قصيرة .

الهجرة نحو الأمس

رواية كولاج

سيرة أدبية

عبد الستار ناصر

يقع هذا الكتاب خارج التجنيس، لم أعثر على صفة تناسبه، ولم أجد كتاباً عربياً يعتمد الكولاج كما هو الحال مع اللوحة أو المنحوتة.

لا أدري إن كان كتابي هذا أقرب إلى روح السيرة منه إلى جسد الرواية، لكنه يقترب منهما على استحياء، فهو مزيج من مذكرات مكتوبة وذكريات ما تزال وراء قحف الجمجمة، إلى جانب الذاكرة التي ساعدتني على تأليفه، مع أنني أقول:

– هي فكرة خطفت مثل نيزك ذات ليل، أن أجمع بعض النصوص وأربطها بما جرى في حياتي، زائداً ما أملكه من معلومات عن أدباء العراق وما حلّ بهم من هجرة وموت وشتات وأسرار.

الكتاب حزمة حقائق عن زمن أسود ما كان من أحد يصدِّق يوماً بأنه سينطمر ويمضي إلى الجحيم بعد أن تحرّرنا منه.

•••

شيءٌ واحد فعلته مرغماً، هو اسمي الذي تغيّر وصار عمّار جَواس البدري، لئلا يتكرّر عبد الستار ناصر بين السطور، فيزعجكم.

منذ الثالث والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1999 حتى الثالث والعشرين من شباط (فبراير) 2007 نشرتُ عشرين كتاباً في الرواية والقصة القصيرة والنقد والمسرح، بينما كتابي هذا وحده الذي لا أعرف ماذا سيقال عنه، فهو دون هوية معقولة وبلا نسب أو أب أو عائلة أو عشيرة.

كونوا أنتم عشيرته إن شئتم، والمهم هو أنه جاء إلى الدنيا بعد ولادة عسيرة، وليس من الرحمة أن يعود إلى الرحم.

من مقدمة المؤلف

ISBN 978-9953-87-230-8
9 789953 872308

المجلس العراقي للثقافة
IRAQI CULTURAL COUNCIL
www.almajlis.org

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت